الإسلام والتصوف

مصطلحه - مقاماته - في أقوال كبار مشايخه الطريقة النقشبندية

للشيخ
امين الشيخ علاء الدين النقشبندي

تحقيق
د. محمد شريف احمد

تقديم
الشيخ عبد الكريم المدرس

الدار العربية للموسوعات


الشيخ امين النقشبندي
الاسلام والتصوف
الدار
تاريخ
تصوف
٤
٦
١٣

ما هو التصوف؟ متى بدأ، ومن أين جاءته هذه التسمية؟ أسئلة جوابها في الإسلام الذي جاء به محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ بأمر من ربه تعالى، حتى ليمكن اختصار التصوف كله بكلمات: التصوف هو الإسلام، والإسلام هو التصوف.

ويمكن أن نترك القلم ليصول ويجول، ويبحث ويسجل، وللفكر ليبدع مرتكزاً على تاريخ الأوائل من الصوفيين الذين كانوا من صحابة رسول الله محمد ﷺ الذين استقوا من نبعه الشريف وارتكزوا على تعاليمه الفاضلة، وساروا على هديه بدءاً بأبي بكر الصديق وعلي بن أبي طالب وسلمان الفارسي وأبي ذرّ الغفاري ومن هؤلاء الأوائل جعفر الصادق والحسن البصري ومنهم داود الطائي ومعروف الكرخي والسريّ والجنيد، إلى سلسلة من الأسماء كثيرة طابت مغارسها وعطرت الأجواء عطاءاتها، وما زال الزمن يتحفنا بأسماء عطرت صفحات التاريخ حتى يومنا هذا، وكلها نابعة من الإسلام ومستقية من نوره.

ويمثلهم قول الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله: "من رأيتموه يمشي على الماء أو يطير في الهواء، ووجدتم عنده ما يخالف الشرع الشريف فاعلموا أنه دجّال كذاب أخطأ الحق والصواب" وما أروع هؤلاء الذين آمنوا بربهم حق الإيمان وزادهم ربهم هدى.

قال بعض المؤرخين: بدأ التصوف مبكراً في الإسلام وسمي المتصوفة بأولئك الفقراء من الصحابة الذين اتخذوا من الصفة في مسجد النبي مأوى لهم يصلّون ويصومون ويعبدون الله ويعيشون على الكفاف ممّا يتحفهم به رسول الله وأصحابه الكرام.

وقال آخرون: سمّي الصوفيون بهذا الاسم لأنهم اتخذوا لباس الصوف شعاراً لهم متخذين من الحديث النبويّ القائل: "اخشوشنوا فإن النعم لا تدوم" شعاراً وطريقاً يسلكونها.

وعلى امتداد الأيام كانت للصوفية مراكز، ولمعت أسماء، ووثق بأصحاب الطرق كثير من المسلمين.

الناشر

الإسلام والتصوف

الإسلام والتصوف

مصطلحه - مقاماته - في أقوال كبار مشايخه
الطريقة النقشبندية

للشيخ
أمين الشيخ علاء الدين النقشبندي

تحقيق
د. محمد شريف أحمد

تقديم
الشيخ عبدالكريم المدرس

الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

٢٠٠٩م - ١٤٢٩هـ



الدار العربية للموسوعات

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط1 - بيروت - لبنان

ص.ب: 511 الحازمية - هاتف: 00961 5 952594 - فاكس: 00961 5 459982

هاتف نقال: 00961 3 388363 - 00961 3 525066 - بيروت - لبنان

الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الشيخ عبد الكريم المدرس

الحمدلله وكفى وسلام على عباده الذين اصطفى لا سيما سيدنا محمد أشرف الأنام في الوفاء وعلمائه وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد فقد وجدت الكتاب الشريف اللطيف الذي ألفه صاحب القلم الثمين والكاتب بالتمكين الحاج الشيخ أمين النقشبندي في التصوف باللغة الكردية لتوجيه المسلمين إلى حقيقة التصوف ثم حققه د. محمد شريف للوصول إلى بيان وافٍ بحيث تستفيد منه الأمة العربية والإسلامية ويكون نفعه أعمّ وأتمّ، فوجدت الأصل من نفائس التأليف بحيث يستحق التقديم والتقويم والتشريف فأحببت أن أتشرف بالمساهمة في ذلك الإحسان بكلمات موجزة حول التصوف وحقيقته فأقول:

إن التصوف هو تصرف الإنسان المسلم في نفسه بتنبيهها عن الغفلات، وزجرها عن السيئات، وتوجيهها إلى الحسنات بالاتباع الكامل بحسب الإمكان لخاتم الأنبياء والمرسلين الذي كان خُلقه القرآن.

ولا شك أن أتباعه إنما يحصل بالعبادة عملاً بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وفي الإخلاص فيها لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ وبمعرفته تعالى بقدر المستطاع

لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ وفي الابتعاد عن أهل الغفلة لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾ وفي الخوف المستمر من الرب سبحانه وتعالى استناداً إلى قوله الكريم ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾. وفي مزيد الرغبة في التقوى لقوله تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ﴾ وفي الثبات على الحق في السراء والضراء لقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ﴾ وفي حراسة القلب والمشاعر والحواس عما نهى الله عنه عملاً بقوله تعالى: ﴿وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ﴾ وبالاستقامة على ترك المنهيات وفعل الطاعات عملاً بقوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾.

والتصوف بهذا المعنى الجليّ الجليل هو الإسلام بمعناه السليم الكفيل لسعادة الدارين وليس شيئاً غيره وليس غير ما قلنا من الإسلام قطعاً فالمتصوفون بالدرجة الأولى هم المسلمون والمسلمون بالمعنى الكامل هم المتصوفون.

وإذا أسند الإسلام إلى غيرهم فإنما هو للعمل بظاهر الآداب والأعمال، وللاستناد إلى سعة رحمة الله المتعالي ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ وللتنوّر بذلك الاتباع ولو كان شيئاً قليلاً.

وكان المتصفون بذلك الاتباع الشريف الرعيل الأول من الصحابة الذين هم خير أمة أخرجت للناس كالخلفاء الراشدين وأصحاب الصفة المهتدين ومن اصطفى لنفسه الاتصال بحضرة قدسه مؤثراً للبقاء على الفناء.

فانتشرت منهم فائحة عطور الأزهار والأوراد، وانشرحت صدورهم بعبادة رب العباد، وفاضت منهم الأنوار على قلوب من جاورهم بالإخلاص فصاروا على قدم الرسول (ﷺ) مهتدين بهداه ومتذكرين

بذكراه ومتنورين بنور قلبه الشريف وسناه، وخلق الله في قلوبهم وسائر لطائفهم السنة النبوية المعنوية باقية فيهم إلى يوم لقاه.

وسرت تلك الأنوار منهم إلى غيرهم كما وصل من الصديق الأكبر ﷺ إلى سلمان ومنه إلى قاسم بن محمد ومنه إلى جعفر الصادق، ومن سيدنا علي بن أبي طالب إلى الحسن البصري ومنه إلى الحبيب ومنه إلى داود الطائي ومنه إلى معروف الكرخي ومنه إلى السري ومنه إلى جنيد بن محمد سيد الطائفتين أي علم الأحكام وعلم الإخلاص والتخلي عن الآثام رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

ولم يكن أولئك الأعلام إلا من أهل القرون الثلاثة الذين شهد الرسول (ﷺ) بأن قرونهم من خير القرون، فهل يتصور أنهم كانوا إلا على الحق السليم والصراط المستقيم؟

وقد أثنى الله تعالى على زمرة الأصحاب منهم عامة وخاصة، وكفى في الثناء عليهم قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ﴾.

ولما كانت الأزهار تفوح منها العطور فكلما جاورهم مخلص من المخلصين تنور قلبه وانشرح صدره، وبذلك كثرت أتباعهم وتنورت القلوب بالأنوار القدسية، وابتعدت عن الكدورات النفسية فتطورت الأمة المخلصة العابدة الذاكرة، فانكشفت لهم الأسرار، فظهرت منهم خوارق وكرامات صارت شواهد على المعجزات، وانتقل الناس من غياهب الخيالات إلى أنوار اليقينيات فكانت أعداد المسلمين الطالبين للمعارف والإخلاص تزداد يوماً بعد يوم وسنة بعد سنة.

وبما أنهم كانوا مجاهدين في سبيل الله وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ انكشفت لكثير منهم صلاحية نوع

من الأذكار والطاعات لأهل العصر واختار بعضهم لأتباعهم الدوام على الخلوة والصيام والقيام بالليل، ومنهم من اختار تقليل الكلام في ما لا يفيد وإكثار ذكر الله وكلمة التوحيد، ومنهم من اختار الذكر القلبي ومراقبة أحواله وحراسته عن الخطرات، ومنهم من اختار الإكثار من تلاوة القرآن الكريم والصلوات على صاحب الخلق العظيم سيدنا محمد (ﷺ)، وكل ذلك داخل في واجبات الدين أو سنة النبي الكريم، وعليه اشتهر بين الناس الطريقة الجنيدية أو الطريقة القادرية أو غير الأسماء يعني آدابه الخاصة في تطبيق الكتاب والسنة الإسلامية حيث إن آداب الدين منها واجبات عينية أو كفائية ومنها سنن مؤكدة ومنها سنن غير مؤكدة يعبر عنها بالتطوع، وبأنه باب واسع مفتوح للدخول في رحمة الله تعالى، ورحمته واسعة وسعت كل شيء، وقال تعالى: ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ وليس في شيء منها بدعة ابتدعها الناس خلافاً لما جاء به الرسول أو معارضاً لدينه ومن عبر عنها بذلك فهو لم يفهم معنى الدين ولا الفرائض ولا السنن، بل هو المبتدع الذي يعبر عن كل خير لم يره بالبدعة، وحاشا الصحابة والسلف الصالحين عن الابتداع ولكن الجاهل غافل..

وقد أكد علماء الدين وأولياء الإسلام أن من خرج عن منهاج الدين قيد شعرة فلا شعور له ولو كان عنده ألف شعار فإنه لا خير في شعار بلا شعور ولا في مصباح بلا نور حتى قال سيدنا قطب العارفين الشيخ عبد القادر الكيلاني نور الله روحه، من رأيتموه يمشي على الماء أو يطير في الهواء ووجدتم عنده ما يخالف الشرع الشريف فاعلموا أنه دجال كذاب أخطأ طريق الحق والصواب. أو كما قال.

وليس التصوف في الإسلام عبارة عن الرياضيات الهندوسية ولا عن الشعوذة وحيلة المحتالين ولا عن فن ابتدعوه وافتتن به الناس كما زعم الجهلة الأجانب لأن تصوف الإسلام هو التخلق بأخلاق المصطفى (ﷺ)

والاقتباس من أنوار صدره الشريف وقلبه اللطيف وقد منَّ الله تعالى عليه بشرح الصدر فقال له: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ وكل أتباعه وأمته من المختصين بذلك الشرح وذلك التنوير. ولا حق للأجانب في التدخل في معنى تصوف الإسلام فإن الدين لله تعالى والحق عنده وهو أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين وغفار المذنبين وستار عيوب التائبين ومما يجب الانتباه لأمرين مهمين في هذا الموضوع أي موضوع التصوف في الإسلام.

الأول: أن أولئك المتصوفين المتصرفين في أنفسهم بصيانتها عن الفساد لم يتركوا الكسب الحلال حتى يكونوا كلا على الناس بل كانوا مكتسبين من الحلال وعائشين على ما اكتسبوه من المال. ولم يكونوا رهابنة يتركون الزواج والابتهاج الثابت بالدين من الحلال فإنه قد كان لكثير من أولئك الصالحين أزواج مثنى وثلاث ورباع وكذلك أتباعهم في سائر الأقاليم والأصقاع امتثالاً لقوله (ﷺ): تناكحوا تناسلوا فإني أباهي بكم الأمم يوم القيامة ولو بالسقط، وأقوى شاهد على ما قلت كتب التاريخ والطبقات.

الأمر الثاني: أنهم لم يكونوا مبتعدين عن خدمة الإسلام والجهاد في الدين فإن أصحاب الصفة وهم الرعيل الأول كانوا حاضرين في الجهاد والدفاع عن الإسلام وساعين في نشره في صفحات الأقاليم وكذلك أتباع الحسن وجنيد ومن بعدهم وكذلك أتباع سيدنا الشيخ عبد القادر الجيلاني وأمام العيون الحروب الصليبية وحضور ابنه السيّد عبد العزيز بجيشه الجرار وفتحهم لبعض الديار المقدسة، وإمام العيون أبو الحسن الشاذلي وسفره لحرب المغول وكثير من الجيوش الإسلامية تكثرت برجال الروح والتصوف الإسلامي وقد نصرهم الله تعالى في مواطن كثيرة وإمام التاريخ الشيخ شمس الدين ومناصرته للسلطان محمد الفاتح حتى فتح الله عليه الأستانة وغير ذلك مما يطول بيانه.

وهناك مهمة أخرى يجب التنبيه عليها وهي أن أولئك الأولياء كانوا دائماً كالجيش في الثغور لإرشاد المسلمين وشرح الصدور وترغيبهم في التزام الطاعات واجتناب الفتن والغوغاء ولم تفسد الدنيا إلا بفقدانهم وفقدان الناصرين لجيوش المسلمين علاوة على ما كان لهم من خدمة العلم والمدارس الدينية العالية الصافية زائداً على إرشادهم للمسلمين وما كان عندهم من إطعام الطعام وإدارة الضعفاء من المساكين والأيتام والإصلاح بين الأنام. فالحق والحقيقة أن أولئك المتصوفين وجمهرة العلماء العاملين العارفين كانوا هم الجناح الأيمن للدول الإسلامية بمر الزمان. فالتصوف هو الإسلام والإسلام هو التصوف ومن عداهم تبع لهم كمؤخرة جيش الإسلام، هذا هو الحق والله يحق الحق وهو يهدي السبيل.

عبد الكريم المدرس

مقدمة المحقق

الحمد لله ولا إله إلا الله. من استعان بغيره فقد ذل. ومن سلك غير سبيله فقد ضل. ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور. والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين، وعلى من سبقه لهداية البشر من المصطفين للرسالة وعلى الآل والأصحاب والتابعين لهداهم إلى يوم يبعثون.

أما بعد:

فمن الغريب - ولا عجب في الغرابة اليوم! فما أكثرها، وما أكثر الغرباء في عصرنا - أن أتصدى لترجمة كتاب في التصوف جليل القدر وأنا صفر اليدين، فارغ الفؤاد، رائن القلب. والتصوف تزكية النفس، ولطافة الروح، والتحليق بها في ما وراء الطبيعة وفي أجوائها بفيض نوراني ينزل من كل مكان، وبدون مكان إلى القلوب التي علمها الله بتقواها (كما هي التقوى) فأدركت ما لا تدركه الأبصار. ورجاله هم الرجال الذين أحبوا أن يتطهروا فاعتكفوا في محراب المحبة عابدين خاشعين فتذوقوا طعم ذلك الفيض فكانوا في الدنيا بأجسامهم وفي الآخرة بقلوبهم.

فأين العبد المسكين الذي أقل ما يقال فيه إنه غريق هذه الدنيا

وحريق آمالها وآلامها؟ ومن دواعي الغرابة أيضاً أن مدى علمي باللغة الكردية وهي لغة الأم قاصرة كل القصور عن إدراك الأدب العالي في أسلوب المؤلف الفاضل صديقي العزيز الشيخ أمين النقشبندي فهو أديب صوفي رضع من لبان التصوف، ونبع أدبه من زلاله، وتذوق الجمال المادي والروحي في جبال كردستان العراق، ومدرستها الروحية في «بياره». وهو موهوب تتجاذب إلى قريحته النقية قيم الجمال ومعانيه فقد تأتي شعراً عندما تستدعي الثوب الجميل، وقد تنساب نثراً عندما يكون أفضل تعبير عنها. وهو في الحالين بالغ قمم الروعة والعذوبة والرقة. وأما أنا فلا زلت في الأقعار أنظر من بعيد إلى سماء الأدب، وصفاء السماء...

فكيف إذا اقتحمت الملحمة؟؟

في البدء طلب مني أخي المؤلف ترجمة مؤلفه باللغة الكردية «ما هو التصوف» إلى اللغة العربية لغة الإعجاز القرآني والإسلام، ثقة منه بقلمي، وللصلة الأخوية الموطدة بالصداقة الخالصة، والمودة الصدوق بيني وبينه، فبادرت إلى الاستجابة غافلاً عن عوامل النقص المشار إليها بسبب عوامل أخرى كانت هي الغالبة، منها، أن المؤلف صديق عزيز وجدت منه السلوى عن أصدقاء أعزاء سبقوني في مغادرة الحياة فلم تسعني مخالفته. ومنها أيضاً أني كنت قد قرأت الكتاب من قبل فاستولى على مشاعري إذ وجدته شاملاً لأطراف التصوف جامعاً لزواياه، وموضوعاته الشائعة بين القوم بلغة رصينة عالية الأدب وعلمت من صديقي المؤلف أنه عصارة عمره الحافل بالبحث عن الحقيقة بعقل فلسفي ناقد، وبقلب صوفي دافق بالإيمان. ولا أكتم القارئ ما اختبأ في اللاشعور منذ أيام الصبا حيث فتحت عيني في حضن شيخي وأستاذي ومعلمي والدي المرحوم وهو مستغرق في صفاء الإيمان وسمو العبادة الخاشعة ذو ملكة راسخة في العلم وفي الخلق الصوفي فما رأيته غافلاً

أبداً عن ذكر الله سبحانه. حتى أنه كان يتوقف عند الإطالة في شرح أمور مهمة في الفقه، أو البلاغة أو الأصول والمنطق ليذكر الله سبحانه مستغفراً من الغفلة التي نتجت عن الخوض في المسائل الجدلية. وكان يرى أن التصوف ليس بعلم يدرس أو يؤلف فيه بل هو سلوك ملتزم بآداب الشريعة، وذوق خاص بأهله وأتذكر أنني كنت فتى يافعاً ولما أبلغ العشرين من العمر أقرأ عليه شرح تهذيب الكلام في علم الكلام وكنت أظن آنذاك كما هو ديدن كل شاب مغرور أنه لا يخفى عليَّ كل مكتوب بالعربية إذا تأملته فرآني الوالد رحمه الله أني أطالع تفسير الشيخ محي الدين العربي وهو تفسير صوفي فلسفي رمزي فنهاني عن مطالعته إشفاقاً منه عليَّ لاعتقاده بأني جاهل بلغة القوم وبرموزهم وإشاراتهم، فأبيت ذلك غروراً مني وقلت: ولكني يا والدي أفهمه جيداً فقال كيف؟ فقمت أشرح له بعض عبارات الكتاب معتمداً على فهمي المحدود لبعض المصطلحات الصوفية المستعارة من الأصل الفلسفي كالحقيقة الكلية، والنفس الكلية والأجناس والفصول فتبسم ولم يعر لفهمي بالا!! وبعد خمس وثلاثين سنة من هذا الحوار تتحرك الرغبة القديمة من جديد في ترجمة كتاب يبين حقيقة التصوف وموضوعاته.

ولا بد أن أضيف ما لا بد من إضافة ذلك أن نظري إلى الإسلام هو نظر الإسلام إلى الحياة فهو واسع لا يحده شيء، وهو شامل لا يضيقه شيء إنه الإسلام دين الله للبشرية وفي البشر كما خلق الله ميولاً ونزعات مختلفة، لا تحدها هيكلية جامدة، ولا تضبطها صيغة واحدة، ولكن لا يسمح بإطلاقها حفاظاً على نظام الحياة الإنسانية. والإسلام هو النظام الإلهي المختار للحياة، وهو ضبط للغرائز، وبيان للحدود، وكبح لجماح الهوى والنفس. والعبادات والواجبات من مظاهر الالتزام به وبحدوده.

ومن ثمة يجتمع التصوف الشرعي الذي لا تكلف فيه، والسلوك السلفي والانتماء المذهبي لفقه المجتهدين، ومذهب الاكتفاء بفقه السنة

المأثورة وغيرها من مدارس السلوك والفقه الإسلاميين في رحاب الإسلام العظيم لولا خصام المتحزبين، وتحزب المجادلين بالباطل وضيق البعض بالبعض لا لشيء سوى الهوى.

وإني ومثلي مثل أخي وصديقي المؤلف أحب صفاء التصوف، ورقة أدبه، وعذوبة حبه وإخلاصه بقدر ما أكره الانحراف فيه والمتاجرة به والتظاهر بكراماته. والمعيار الحقيقي هو كتاب الله وسنة نبيه، وميزان الفهم السليم هو ما استقر عليه العرف العربي من الأصول والقواعد المعتبرة.

وبمراعاة هذه العوامل والمشاعر والرؤى الخاصة خضت التجربة لأول مرة. وتوخيت الأمانة العلمية لنقل مضامين الكتاب الأصل من لغة كردية جميلة إلى لغة عربية فصيحة دون حذف أو تعديل أو إضافة مع إيجاز غير مخل إلا إذا اقتضى الأمر فيما يصلح لأهل هذه اللغة ولا يصلح لغيره إذ كان في الأصل موضوعات تفيد المجتمع الكردي منها أثر التصوف في الأدب الكردي، كما هو الحال في أدب الشيخ أحمد الجزيري، والسيد عبد الرحيم المولوي، وملا محمد محوي والشيخ عمر ضياء الدين النقشبندي الجد الأكبر للمؤلف، والمرشد الأعظم للطريقة النقشبندية.

ولا حاجة إلى التعريف بأهمية هذا الكتاب فهو بين أيديكم، والقارئ الكريم خير شاهد كما أن المؤلف الفاضل الشيخ أمين علاء الدين النقشبندي غني عن التعريف فهو بالإضافة إلى ما ذكرت عنه من أدب عال، وخلق رفيع ربيب المدرسة الصوفية والعلمية النقشبندية في بياره من كردستان العراق تلقى مواهب التصوف وأدب السلوك الصوفي من شيخه ووالده الشيخ علاء الدين النقشبندي رحمه الله. وهو صادق اللهجة نقي الوجدان..

د. محمد شريف أحمد

مقدمة المؤلف

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ﴾ «سورة الحديد ٢٨»

لما فتح الإنسان العاقل عينيه، بدأ يفكر مليًّا في ما يجري حوله ويتم من خير أو شر، ونفع أو ضرر، وحسن أو قبيح باحثاً بذهنه وعقله عما هو أنسب لبقاء نوعه وأسعد لحياته الشخصية.

ومما استوحاه من قانون الطبيعة مثلاً أن الحياة لا تصلح بدون الماء وأن الماء أنواع تختلف في اللون والطعم فمنه ما هو مر، ومنه ما هو مالح. ومنه ما هو حلو المذاق. ومنه ما هو صاف ومنه ما هو كدر فلم يكتشف ما هو أنفع وأنسب إلا بعد عناء تأمل وطول خبرة.

ومن المعلوم أن غريزة التطلع إلى آفاق المعرفة لا تقف عند حد ومن هنا واجهت الإنسان المتأمل مشكلة أعقد هي معرفة «مصدر الحقيقة» فيخطو خطوات أولية من أجلها: ففي مثال الماء: «وجعلنا من الماء كل شيء حي» يرى الإنسان مصادر عديدة: ماء البحر، وماء النهر، وماء المطر. ويرى أن ماء النهر مثلاً ينبع في عين جارية ولكنه لا يعرف مصدر العين. ويقع في حيرة إذ لا يعرف مثلاً سر ملوحة ماء البحر. وهكذا تثار تساؤلات داخل فكره تقع إجابات معظمها في دائرة هي أوسع

من عقل الإنسان وبصره وخبرته المحدودة. وكذلك الأمر حين يخلو مع نفسه التي بين جنبيه ويتساءل: من أين؟ وكيف؟ وإلى أين؟ وما هي العاقبة؟ وما هو الأساس؟

وحقًّا يكاد المرء يذهل حين يفكر في الطير الذي يضع البيضة الجامدة التي تنشق هي الأخرى ليخرج طائر آخر لا يلبث كثيراً فيطير في السماء فيتساءل:

البيضة من الطير أم الطير من البيضة؟

ثم أين كانت الروح في هيكل البيضة؟

ومن حق الإنسان أن يدهش إذ يجد أن حبة الحنطة المزروعة في الأرض تعود بعد أشهر غضة طرية مباركة كسالف عهدها وأن الجوزة تتحول بعد سنوات من بذرها في الأرض إلى شجرة كبيرة فيتساءل لماذا هذا؟

أكانت الجوزة من الشجرة؟ أم كانت الشجرة من الجوزة؟

وحتى إذا كشف عنا الحجاب وعرفنا الجواب

فمن أين الجوزة الأولى؟

أو من أين الشجرة الأولى؟

وهنا يجمد الإنسان في حيرته ويحق له أن يخر صعقاً كما هو الحال أمام كل سرٍّ عظيم في الكون.

ومن أهم ما يهز فكره، ويهيج مشاعره، ويقلق باله، ويسلب قراره هو الموت وأعني به موت كل شيء: موت الإنسان، وموت الطائر وجفاف الشجرة، وذبول النبتة. فيتساءل: ما هي الحياة؟ ما هي الروح؟ من أين تأتي الروح؟ كيف تذهب؟ وإلى أين؟

إن التطلع الغريزي لكشف ما في الطبيعة وما وراءها يحرك الإنسان دوما لارتياد المجهول، فيصبح أسير البحث عن السر والسبب لعله يجد

قبساً من النور يضيء له الطريق لمعرفة من أين أتى؟ وكيف أتى وإلى أين يذهب؟

هل إن السبب واحد؟

هل لكل ظاهرة سبب مستقل؟

وفي الميدان الوسيع المحيط بالإنسان يقف الكون كله مصدر عبرة: الشمس والقمر والنجوم والكواكب والأرض الجميلة مصادر إلهام. وفي الأرض كوارث وعواصف تخيف الإنسان وتجعله يهرب إلى ملجأ ويبحث عن السر والسبب.

ما هي القوة الجبارة المهيمنة على قوى الكون؟

ما هي القوة التي أتقنت صنع كل شيء؟

إن الجمال البديع الأخاذ في الطبيعة، يسوق الإنسان إلى الدهشة في حكمة صانعه المبدع. وقد يمر بخيال الإنسان تساؤل في مدى صدق ما يرى ويشاهد أهي حقيقة؟ أم خيال؟

وإذا لم يكن له حقيقة فما هي السبب لهذه الظواهر العجيبة الغريبة؟

إذن من هو خالق الحياة والروح؟

وما هو مبعث الخوف والأمن؟

هل توجد القوة العظيمة المهيمنة؟

وكيف أتقرب إلى هذه القوة الإلهية؟

ومن أين أجدها؟ وكيف أجد خالقي؟ وكيف أرضيه إن وجدته؟

وكيف يغفر لي ذنبي؟ كيف أتقرب منه؟ هل يمكن أن يبعد عني الموت؟ وإلى آخره.

نعم: إن العاقل الذكي يعشق التأمل في طريق معرفة البارئ الخالق، رب هذا الكون الفسيح الوسيع، محرك الأفلاك؛ ويعمل للتقرب من ذاته العلية ولتلبية ما يريده مدبر هذا الكون سبحانه.

إن هذا العشق الإلهي التأملي ساق كثيرين من بني آدم إلى العزلة في كهف، أو زاوية بعيدة أو صحراء مقفرة أو في قمة جبل ليتفكروا في الطبيعة، ويتأملوا في خلق الكون، مستكفين بما تفيض الطبيعة عليهم لسد رمق الحياة فيهم. وكان البعض منهم يحس بقبس من نور فتنجلي مرآة قلوبهم لتعكس ما وراء الطبيعة، وهذه ذروة المتعة الروحية. وكان البعض منهم يموت دون أن يحس بشيء من ذلك.

وهذه هي البذرة الأولى لنشوء التصوف في ضمير الإنسان المخلوق على ما أحسب، كبرت ونضجت، واستهدت بالرسالات وبالنبوات واكتملت واستقامت بالإسلام خاتم الأديان.

ولجأ بعض من بني آدم من غير هؤلاء إلى العقل المجرد دون الوجدان لتلمس الحقيقة ومعرفة المصدر والسبب أي معرفة الخالق. وعرف هؤلاء بالفلاسفة.

ومع عمق ما سبر هؤلاء الفلاسفة ما زالوا حائرين، مختلفين وما قدموا طريقاً لطمأنينة النفس ولأمن الروح.

فالتصوف ولد ونشأ مع نشوء الفكر، وغريزة التطلع إلى معرفة السبب الحقيقي للموجود وهدفه هو (الوصول إلى واحة اليقين).

ولكن ما هو التصوف الإسلامي؟ وما هي حقيقة التصوف؟ وما الفرق بين الفلسفة والتصوف؟ وما الفرق بين التصوف وبين الشريعة؟

راودتني رغبة منذ مدة للإجابة عن هذه المسائل ولم تفتني أية فرصة سنحت لتحقيق جزء من هذه الرغبة بالاستلهام من مدرسة السلوك الصوفي، ومن التربية الروحية التي تلقيتها من الشيخ الوالد المرحوم

الشيخ علاء الدين الشيخ عمر ضياء الدين، ومن السلسلة النقشبندية الكريمة لخانقاه بياره ومدرستها العلمية الروحية المعروفة أو بقراءة المكتبة الصوفية التراثية والمعاصرة معاً.

إن هذا الكتاب هو حصيلة هذه الرغبة، وعصارة هذه الجهود أسهم به في كشف جانب من الحقيقة عن علم الحقيقة قدر طاقتي المحدودة المتواضعة: لعله يكون لي زاداً وعوناً لنهضة روحية إسلامية طاهرة.

وطبقاً لطبيعة موضوعاته وزعته على أبواب خصصت كل باب منها لتوضيح جوانب معينة تختلج في الأذهان، وتشغل بال المعنيين بالدراسات الروحية والفلسفية، والله ولي التوفيق والرشاد.

المؤلف

الباب الأول

مصطلح التصوف

الفصل الأول

مصطلح التصوف

لقد اختلفوا في مصطلح التصوف ونشوئه كما اختلفوا في مسماه وهو أول مشكلة تثار في التصوف الإسلامي.

والحقيقة أن كلمة التصوف ظهرت في القرن الأول الهجري بدليل أن الحسن البصري الذي يعد من كبار أئمة التصوف وعاش في المدة (٢١-١١٠هـ) (٦٤٢-٧٢٨م) روي عنه أنه قال:

«**رأيت صوفيًّا في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال: «معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي**»[١] كما روي عن سفيان الثوري وهو إمام في الحديث والتفسير عاش في المدة (٩٧-١٦١هـ) أنه قال: «**لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء**»[٢] فهو ليس باسم محدث أحدثه البغداديون كما يقال.

ومن المعلوم أن إطلاق اسم معين على مفهوم معين أو حالة كالتصوف ليس كإطلاق اسم معين على مولود جديد من بني آدم بل يمر ذلك الإطلاق بتطورات تبعاً لتطور المفهوم أو الماصدق كما هو الحال في مصطلح (القراء والفقهاء والمحدثين). ذلك أن ناساً ظهروا فاختصوا

---

(١) اللمع لابي نصر السراج الطوسي ص٤٢.

(٢) المصدر السابق ص٤٢.

بقراءة القرآن الكريم من الرعيل الأول فسموا بالقراء وظهرت جماعة تعنى بالحديث فسميت بالمحدثين، وتكونت جماعة من القراء تعنى ببيان الرأي والفتوى في الأحكام الشرعية سميت بالفقهاء ثم اعترت هذه المصطلحات تطورات معروفة في الدلالة على معانيها كما هو الحال أيضاً في المستحدثات الجديدة كالميكانيكي والكهربائي:

وكذلك أطلق اسم الصوفي على المرء الذي اعتزل مباهج الحياة، وتوجه بقلب خاشع ولسان ذاكر وأدب جم إلى محراب العبادة قائم الليل، صائم النهار يبتغي رضوان الله وحده، جمع بين طهارة الجوارح وزكاة النفس وكان ممن وقفوا موقف الاستجابة للأمر الإلهي **«وذروا ظاهر الإثم وباطنه»** وقد يواظب على ذكر، الله الله، مع حضور القلب حتى يتعود لسانه عليه دون قصد وقد يستمر في حال الذكر حتى يتعود قلبه على الذكر ويمحو أثره في اللسان وهكذا إلى أن يبقى معنى الكلمة «الله» حاضراً في قلبه وحده فتزول صورة اللفظ وهيأته.

كما أطلق على هؤلاء:

الزهاد: لأنهم زهدوا فيما عند الناس وآثروا في مالهم ولو كان بهم خصاصة.

والفقراء: لحاجتهم إلى الله سبحانه.

والغرباء: لأنهم يسيحون في الأرض لعبادة الله سبحانه.

والشكفتية: لاعتزالهم في الكهوف.

والجوعية: لأنهم لا يأكلون إلا بقدر ما يسد رمقهم ويعينهم على الطاعة.

وحيث إن هؤلاء الطاهرين اتشحوا بلباس من صوف في الأغلب شاع اسم الصوفي وتغلب على الألقاب الأخرى. واستقر هذا الاسم علماً

لمن سار على دربهم سواء من لبس الصوف منهم أو من تخلق بأخلاقهم في الأدب والسلوك.

قال أبو موسى الأشعري في وصف الرسول الكريم (ﷺ) «**إنه كان يلبس الصوف ويركب الحمار**» وقال أيضاً[1]:

«**يا بني لو رأيتنا ونحن مع نبينا (ﷺ) إذا أصابتنا السماء وجدت منا ريح الضأن من لباسنا الصوف**».

قال الحسن البصري: «**أدركت سبعين بدريًا كان لباسهم الصوف**»[2]

وتذكر مصادر عديدة أن أهل الصفة كانوا جماعة من أصحاب الرسول (ﷺ) لباسهم الصوف، لزموا ركناً خاصًا من مسجد الرسول الكريم (ﷺ). وهو لقب كما قيل أعطي لبعض فقراء المسلمين في عهد الرسول والخلفاء الراشدين ممن لم تكن لهم بيوت يأوون إليها فكانوا يتكئون على مقعد خارج المسجد الذي أمر الرسول ببنائه في المدينة.

والصوف هو رمز التواضع والمسكنة. ولذلك يوصف العابدون بأنهم يلبسون الصوف تذللاً وتواضعاً. أما الذين يراؤون الناس بمظهرهم الصوفي ويقطعون سبل الخير فهم مذمومون مدحورون عند الله ثم عند الناس.

وقد ذهب بعض المستشرقين والمحققين إلى احتمالات أخرى منها:

١- إن أصل الكلمة من الصفاء.

٢- يعود في أصله إلى أصحاب الصفة.

(١) طبقات ابي سعد ج٤ ص٨٠.

(٢) الحلية ج٢ ص١٣٤.

٣- يعود إلى الكلمة اليونانية «**سوفيا**» أي الحكمة ولكننا توصلنا بعد تحقيق عميق إلى حقيقة أن الصوفي لم يطلق على هؤلاء الناس إلا لتمزيهم بلباس الصوف المعبِّر عن الأدب والتواضع، وهو مختار معظم الكتاب والمحققين من القدماء والمحدثين وهو مما يستقيم مع قواعد اللغة.

الفصل الثاني

التصوف والفلسفة

من المعلوم كما ذكرنا في المقدمة أن الإنسان تطلع في فجر خلقه إلى معرفة ما وراء الطبيعة، باحثاً عن طريق لها، وأن اليونانيين سبقوا غيرهم في نقل هذا التطلع والبحث إلى إطار المعرفة العلمية العقلية، واصطلحوا عليها بالفلسفة.

والفلسفة كلمة يونانية مركبة من كلمتين هما: فيلا وتعني المحبة. وسفيا: وتعني الحكمة. ومعناها في جملتها محبة الحكمة كما روي أن فيثاغورس ٦٠٠ق.م وهو أحد كبار فلاسفة اليونان الأقدمين، ذكر: إني لست حكيماً ولكني أحب الحكمة. وتتابع بعده قمم الفلسفة اليونانية وهم: سقراط ٤٦٨-٣٩٩ق.م وتلميذه أفلاطون ٤٣٠-٤٣٧ق.م ثم أرسطو ٣٨٤-٣٢٢ق.م ومئات من المفكرين والفلاسفة. ولا يزال الفلاسقة يتتابعون في كل أمة وقوم، ولا تزال الفلسفة قائمة، ولكل فلسفة طريقتها الخاصة لتسلّق ميادين ما وراء الطبيعة، أو لمعرفة خالق الكون ومدبره.

والحقيقة أن كثيرين منهم واصلوا عناء الرحلة الطويلة، متعشقين بلوغ الحقيقة حتى بلغوا (علم اليقين). فاستقر مقامهم هنا ولم يساعدهم زادهم على بلوغ (عين اليقين) أو (حق اليقين).

وسأحدد إجمالاً حدود هذه المراحل بالقدر الذي يفيدنا في تبين الفرق بين التصوف وبين الفلسفة ونميز به دائرة كل منهما.

كانت الفلسفة اليونانية تعني المعارف كلها نظرية كانت أم عملية. قال الفيلسوف أوغست كونت ١٧٩٨-١٨٥٧م:

إن الفلسفة هي النظرية العامة للمعرفة.

ونقل عن الفيلسوف الفرنسي نيلسين شاليه: **إن الفلسفة معرفة الحياة الذاتية وعلاقتها بالحياة العامة وبالكون كله.**

وقال ابن خلدون: **إن الفلسفة في الإلهيات هي تأمل في الوجود.**

وقال بعض العلماء: الفلسفة: **أولها محبة العلوم، وأوسطها معرفة حقاق الموجودات بحسب الطاقة الإنسانية، وآخرها القول والعمل بما يوافق العلم.**

وبهذا يتجلى لنا أن الفلسفة: علم بأصول نتعرف به إلى الوجود، ونستخلص من معرفتنا خطة نسير عليها نحو الهدف الأعلى.

وقال أفلاطون نقلاً عن سقراط: **إن الحكيم من خضعت عاطفته لعقله أما من خضع عقله لعاطفته فليس بحكيم.**

فالفلسفة ذروة المعرفة العقلية. وهي فكر يضيء طريق الحياة للإنسان. وتعتبر بصورة عامة فكراً ناقداً لأحوال الحياة باحثة عن طرق معالجة معضلاتها.

ومع تعدد تعريفات الفلسفة منذ عهد اليونان إلى عهود كانت، وديكارت، وهيجل؛ فإن الفلسفة أشمل وأعمق، لذلك نكتفي بما قدمناه للتعريف بالفلسفة.

أما لماذا لا تصل الفلسفة في ميدان الإلهيات إلى عين اليقين، أو حق اليقين كما يبلغهما التصوف فهذا ما نبينه:

تبين لنا أن الفلسفة والتصوف هما وليدا الفكر المتطلع إلى اليقين. ولليقين ثلاث درجات كما حددها العلماء.

١- علم اليقين:

ويعني التصديق الذي لا يرقى إلى درجة الاطمئنان التام.

ومثاله: إن يبحث الجائع عن مطعم في مدينة لا يعرف مسالكها فيصادف عنواناً لمطعم أو يرشده شخص إلى مكانه فيعلمه، ولكنه من المحتمل أن يكون المطعم قد تحول إلى شيء آخر، أو أن العنوان المكتوب الذي صادفه لم يكن سوى «لافتة قديمة ملغاة».

٢- عين اليقين:

ويتحقق فيما إذا وجد الجائع في المكان المذكور في المثال الأول ناسا يأكلون ويشربون وحينذاك يزداد اطمئناناً وتصل معرفته إلى عين اليقين ولكنه يبقى دون مستوى المعرفة الذوقية والشبع وفي درجة المشاهدة.

٣- حق اليقين:

وهنا يبلغ المرء ذروة اليقين والاطمئنان حين يتذوق الطعام فعلاً، ويحس بامتلاك غايته من الشبع.

وأستطيع القول بكل اطمئنان:

إن الفلسفة التي تعتمد مقدرة الإنسان الفكرية للمعرفة لا يمكنها الوصول إلى حق اليقين في الإلهيات. ذلك أن العقل البشري محدود متناه في طاقته كما هو حال الحواس كلها، وميدان حق اليقين في الاهليات لا حدود له «**والمحدود المتناهي لا يحيط بما لا حد له ولا نهاية**» فالعقل لا يدرك شيئاً إلا بعد الإحاطة بحده الذاتي، أي إلا عندما

يكون محيطاً بالمحدود إحاطة شاملة فلا يمكنه إدراك ما وراء الطبيعة مما هو خارج عن دائرة المادة.

ولتوضيح ذلك أقول:

إن العقل يعتمد أدوات ووسائل مادية يوظفها لمعرفة الأشياء، وهي الحواس الخمس: البصر، والسمع، الذوق، اللمس، الشم. وهذه الحواس لا تدرك ما يقع خارج قوتها الحسية. ولمحدودية وظائفها لا شأن لها بما وراء الطبيعة.

والخلاصة أن إدراك ما وراء الطبيعة هو إدراك معنوي، وهو شيء وجداني له علاقة بالإيمان وبالحس الوجداني. ولا يفيدنا في هذا المجال منهج الفلاسفة المعتمد على العقل والحواس الخمس.

أما طريق التصوف فهو موصلك بعون الله إلى حق اليقين. ذلك أنه يعني تجلية مرآة القلب، وتزكية النفس إلى الحد الذي يحس القلب فيه بوجود مدبر الكون، فيشرق فيه النور الإلهي الذي يشعره بالاطمئنان. ففي الوقت الذي يبدأ القلب يحس بدفء الفيض الإلهي فإنه يصل إلى (حق اليقين).

فيا سعادة أولئك الرجال الأبرار الذين أدركوا حق اليقين من الأنبياء والرسل والحواريين والأصحاب والصالحين الذين اتبعوهم بإحسان!!!

ولا يعني ذلك أن معرفة الله لا تتم إلا بالسلوك الصوفي أو بالإسلام وحده ذلك أن ناساً عديدين لم يدركوا الإسلام، أولم يبلغهم الإسلام وهم مؤمنون، وأن التفكير العقلي قاد معظم الفلاسفة من أفلاطون إلى كانت وإلى ما شاء الله إلى الإيمان.

والحقيقة أن العقل البشري قادر على التوصل بالاستدلال إلى أن لهذا الكون مدبراً وربًّا عظيماً، ولكنه لا يتجاوز علم اليقين، ذلك أن الإنسان يملك في ذاته غريزة حب المعرفة، ألا نرى إلحاح الطفل في

مساءلة والديه عن كل شيء حتى يملأ من الإجابة لأن كل شيء جديد له. وأن خزانة المعلومات من دماغه خالية الوفاض.

ومما يذكره الطفل في السؤال:

ما هذا القمر؟ لمن هذا القمر؟ من خلق القمر؟

ومع أننا نملك ثروة من المعلومات في هذا الموضوع الآن، فإن الأجيال القديمة كانت تقف مدهوشة حائرة في الإجابة، وهنا منطلق البحث!! ومنه تمخضت الفلسفة ومدارسها المختلفة.

ولغرض عون الإنسان في إزالة حيرته بعث الله الأنبياء والرسل.

وقد كانا طريقين لمعرفة الله: سادت الفلسفة في الجانب الغربي للشرق، وسادت الرسالات السماوية في الشرق الأوسط.

وفي الوقت الذي كانت المعجزات طريق الإيمان بالرسل وبالرسالات، عني الفلاسفة بالدليل العقلي.

ولكل فلسفة نمط خاص في التفكير العقلي؛ فأرسطو مثلاً اعتمد مبدأ العلة الفاعلية والعلة الغائية للتوصل إلى معرفة واجب الوجود. ومعنى ذلك أن لكل معلول علة أوجدته بموجب نظام. وما من شيء يحصل اتفاقاً وبالصدفة وبالخوارق. وكل ما في الكون خاضع لهذا الناموس الشامل غير أن هذه العلل تنتهي إلى علة موجودة بذاتها لم تنشأ عن علة خارجة عنها ويسمي أرسطو هذه العلة «السبب الأول».

وكذلك الحال عند الفلاسفة المسلمين إلا أنهم حاولوا تقريب الفلسفة إلى الدين، فالفارابي ركز نظرته العقلية على فكرة الواجب والممكن، واتضحت هذه الصورة عند ابن سينا إذ توصل بها إلى حقيقة واجب الوجود. وبمقتضى هذه الفلسفة يكون واجب الوجود هو الله مدبر الكون. أما المخلوقات فهي من الممكنات. أما الفيلسوف الكندي فقد نظر إلى فكرة الأثر والمؤثر والسبب والمسبب ورأى هذا الكون منظم

بديع. وحيث إن لكل أثر مؤثراً ولكل سبب مسبباً فإن للكون منظماً مبدعاً لا ريب فيه.

هذه لمحة من العقل في طريق الإيمان.

وقد استجمع السيد جون كلور مونس في كتابه القيم «الله يتجلى في عصر العلم»، آراء أربعين أستاذاً وخبيراً في المعرفة البشرية في عصرنا، آمنوا بالله سبحانه بتأملهم العقلي في عجائب الكون وقالوا جميعاً. **«إن هذا الكون العظيم البديع لا يمكن أن يتكون دون مهندس أزلي خالد»**.

وهنا أقول:

أمامنا طريقان لا ثالث لهما: هما نظرية الصدفة ونظرية الخلق فإما أن نقول: إن النظام الكوني وجد صدفة كذلك ولا إرادة في تكوينه وهذا رأي الماديين الذين يرون أن الأصل هو المادة، أو نقول: إنه مخلوق، وهو رأي المؤمنين.

ولإثبات حقيقة الخلق، ولدحض فرضية الصدفة أقول:

لا يعقل أن تكون الصدفة العمياء هي التي رتبت هذا النظام البديع لهذا الكون المادي، وجمعت مواده، ونسقت نواميسه، وأوجدت هذه الأنواع المختلفة من الموجودات حيواناً ونباتاً وجماداً.

أما كيفية خلقه كما يتساءل الملحدون فأقول:

إن العقل أعجز من الإحاطة بسر النظام الكوني، وأن الجهل بكنه الصانع، أو بكيفية الصنع لا يبرر إنكار الصانع... ولتقريب هذه الفكرة إلى الذهن أقول: إن العاقل لا يقتنع بأن التلفزيون مثلاً وهو جهاز مادي محسوس وجد بالصدفة دون صانع لمجرد عدم معرفته بالصانع أو بكيفية صنعه. وإذا وجد العاقل في دار خالية في صحراء مقفلة تمثالاً منحوتاً بأرقى فن، وقصيدة عصماء كتبت على لوحة معلقة فيها فإنه يذعن للإيمان بأن لهذا التمثال نحاتاً قديراً، ولهذه القصيدة شاعراً كبيراً. ومن

الغباء تصوّر أن التمثال تكون دون تدخل إرادة أحد بل بالصدفة أو أن هذه القصيدة دبجت بفعل تراكم ذرات الغبار دون إرادة عاقل. وتصور نفس الموقف فيما إذا اكتشفت قصراً في الصحراء لا تعرف صاحبه فإنك لا تنكر أن لهذا القصر صانعاً دون ريب.

وأي الخلقين أبدع؟

صنع تمثال وكتابة قصيدة أم خلق إنسان يصنع هذه الأمور؟ فإذا كانت الصدفة مرفوضة في صنع تمثال وقصيدة شعرية، وقصر في صحراء فكيف تكون مقبولة في خلق الإنسان الذي صنع التمثال، وكتب القصيدة، وبنى القصر، وفعل الأعاجيب؟

فلا يقبل عقلاً أن يكون نظام الحياة المنسق في ألوانه وأزهاره وأصنافه ومخلوقاته من الذباب إلى الفيل وإلى الغابات والجبال الراسيات، وليد صدفة عمياء.

من الذي خلق كل شيء بقدر؟

ألا يرى أن نظام الحياة في أرض يختل لو اختلت مقادير الأشعة الشمسية الثابتة!! فليس من المعقول أن ينكر المرء حقيقة أن لهذا الكون البديع مبدعاً لمجرد أنه لا يحيط به علماً ومعرفة. «ولماذا يؤمن الملحد بالمادة مع أنه لا يعرف كنهها». ولا يعرف من أين ومتى وكيف أتت!!!!.

وتتلخص هذه الحقيقة في علاقة المنظَّم بالمنظِّم، والأثر بالمؤثر فإذا وجدنا شيئاً مرتباً فلا نشك في أن وراءه عقلاً مدبراً وما دمنا نجد الأثر فلا نشك في أن له مؤثراً، فلا صدفة في وجود دار في صحراء ولا في موقع قدم أرنب في طين أو رمل.

ويخطر في بالي وعقلي ما يقرب هذه الحقيقة إلى الذهن ولعله لم

يسبقي إليه أحد والله أعلم، وهي فكرة «الزوجية» «الذكر والأنثى». وقد ذكرها القرآن الكريم في آيات عديدة.

نفترض أن الصدفة «الطبيعية» كونت قبل مليارات من السنين ذكراً على الأرض بكل مقتضياته وغرائزه، أو كونت الأنثى كذلك.

فهل يعقل أيها العقلاء:

إن تكوُّنَ الأنثى عاصر الذكر وبالعكس؟

وإن كانا توأمين ففي أي بطن تربيا؟

وإن كانا جنينين فكيف عاشا؟

وإن كانا طفلين فمن أرضعتهما؟

وهكذا تتوالى التساؤلات ولا يجد العقل الواعي أي إمكان لفكرة الصدفة في تكوّن عناصر الذكورة والأنوثة كالرحم والثدي والإرضاع والغريزة الجنسية في وقت واحد للجنسين. وفي هذا العدد الفخم من مقتضيات الزوجية لهذا العدد الضخم من الأجناس والأنواع من الحيوانات والنباتات في وقت واحد وفي زمان ومكان واحد وفي أماكن متفرقة من الأرض. فإذا كنا نرفض بوعينا أن باباً من خشب يمكن أن يتكون دون إرادة أحد، فإننا نستخف القول دون شك بأن هذه الزوجية الواسعة تكونت بالصدفة، (لمجرد أن القائل يجهل كيفية التكوين).

[ولا تثار فكرة التطور هنا، ذلك أن الحقيقة الماثلة هي أن الذكر يختلف عن الأنثى فالفرد وإن تحول إلى ملكة جمال فذكره ذكر وأنثاه أنثى والخالق مبدعهما].

والحقيقة التي يجهلها الملحدون والمتشككون هي أن العقل لم يمنح القدرة على إدراك كنه خالقه. فإنه قاصر عن درجة عين اليقين أو حق اليقين.

ألسنا قاصرين في إدراك كنه المادة والنفس والأرض والسماء فلماذا هذا التطاول إلى ما لا حدود له؟

والواقع أننا لو تأملنا ما في أعاجيب العينين، والقلب، والدماغ أو أي عضو في الحيوان لعلمنا أن مسألة الصدفة خرافة وأن الإيمان هو الحقيقة.

وهذا النوع من المعرفة هو علم اليقين. وهو طريق إيمان العلماء والفلاسفة والمفكرين قبل الإسلام وبعده أما طريق التصوف وهو ما أبحثه تفصيلاً في كتابنا هذا بعون الله فهو الذي يوصل السالك إلى عين اليقين أو حق اليقين. وهو الطريق الذي يجعل المؤمن يتذوف الإيمان الحقيقي ويطمئن له. ويصفي النفس لتكشف الحقيقة بعين البصيرة فلا يبقى مجال للريب في الضمير. وهو عين اليقين وحق اليقين.

ومن هنا يتبين أن طريق التصوف غير طريق الفلسفة أو علم الكلام وأن لكل منهما مجالاً يختلف عن الآخر في المصدر والسلوك. فإذا كانت الفلسفة أو علم الكلام معتمدة على العقل البشري في إثبات الواجب فإن التصوف هو إعداد النفس لتذوقه.

ولا تعتبر الفلسفة أو علم الكلام مصدراً للتصوف أو أساساً له لاختلاف الطريق والمنحى لكلٍّ منهما. وللمعنى ذاته لا يجوز اعتبار التصوف الهندي أو الصيني أساساً له أثر في التصوف الإسلامي. ذلك أن التصوف الإسلامي **(أصيل نابع من الكتاب والسنة)**، وأن حقائق الفلسفة اليونانية وأخبار حكماء الهند أو الصين أو فارس نقلت إلى العربية في القرنين الثاني والثالث الهجريين، فقد ترجمت كتب الفلسفة اليونانية إلى العربية في عهد هارون الرشيد ٧٦٦-٨٠٩م وفي عهد الخليفة المأمون ٧٨٦-٨٣٣م. فلا الفلسفة اليونانية القديمة ولا الفلسفة الجديدة لأفلوطين المشهورة (بفلسفة الاسكندراني) أو فلسفة أفلاطون الجديدة المنسوبة إلى أفلوطين ٢٠٣-٢٧٠م، بذات أثر في التصوف الإسلامي.

ويبدو أن الذي دفع بعض المستشرقين إلى هذا الوهم، هو وجود بعض التشابه في منطلقات بعض من رجال التصوف ورجال الفلسفة لا سيما في نطاق فلسفة أفلوطين، وهو في الحقيقة استقراء ناقص لا يحتج به. وأن الحكم بمقتضى التشابه يتطلب في الأقل مقارنة علمية بين عدد من الفلاسفة وعدد من كبار مشايخ الصوفية «يكون الحد الأدنى للرؤية المشتركة» يجري فيها التحليل الفكري بشكل موضوعي لآرائهم في الفلسفة والتصوف دون الركون إلى بعض المواقف أو الأقوال النادرة لبعض المشايخ ليس إلا.

إن التصوف الإسلامي ظهر قبل نقل الفلسفة اليونانية بمدة طويلة.

ولقد تشبث المستشرقون ببعض الأقوال المنسوبة إلى بعضهم لتوكيد التشابه المزعوم بين التصوف وبين الفلسفة؛ ومنها ما ينسب إلى رابعة العدوية ١٨٥هـ من أنها قالت: **يا ربي: إني أعبدك لحبك ورضاك لا خوفاً من نار جهنم**.

وقالوا زعماً: **إن رابعة العدوية جعلت المحبة عنواناً لتصوفها وهي بذلك تشبه الراهبة المتنسكة**.

وعضّد مزاعمهم ما رأوا من قدر من الشبه بين فكرة الإشراق وهي تجلي نور الله وبين المنحى الفلسفي في هذا المجال، ولاحظوا أفكاراً تؤدي معنى الحلول والاتحاد من بعض الأقوال المنسوبة إلى رجال متصوفين كبار.

والحقيقة هي أن التصوف منهج قرآني يستهدي في السلوك بسنة الرسول الأعظم (ﷺ) وبآداب أصحابه. وقد ظهر قبل نقل فلسفة اليونان وحكم الهنود بقرون.

ومما يؤكد هذه الحقيقة أن أهداف التصوف وغاياته لا تلتقي مع أهداف الفلسفة وغاياتها. ذلك أن الإسلام هو أساس التصوف وغايته وهو

الإيمان بوحدانية الله سبحانه والالتزام بشريعة القرآن في العقيدة والتعامل والسلوك الذاتي والاجتماعي في ضوء السنة النبوية المطهرة. وقد أجمع كبار علماء التصوف على أن التصوف هو الوقوف عند حدود الإسلام ولكنه وقوف لا يكتفي بالظاهر بل يتعدى إلى القلب حتى يحقق تعاليم القرآن الكريم في سلوكه ويبلغ حق اليقين.

ويستشهد لمعرفة مقام التصوف في الإسلام بالحديث الشريف **«الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**(*).

إن هذا المقام - مقام الإحسان - وهو مقام يرتكز فيه التصوف الإسلامي يختلف عن مقام فيلسوف قاده العقل إلى الإيمان.

وقد ذكرنا سابقاً حقيقة أن الإنسان لم ينفك في التأمل عما وراء الطبيعة والتساؤل عن حقيقته ولكن اختلف أفراده في هذه النزعة ومنهم من كرس كل حياته للبحث عن هذا السر واختار العزلة عن الناس من أجله. وأطلق على هؤلاء في المسيحية «الراهب». ووصف الإسلام المؤمنين بأنهم ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ سورة آل عمران.

لذلك نستطيع القول إن الإنسان كان دائم البحث لمعرفة الطبيعة وما وراءها وإن تشابه التصوف الإسلامي في هذه النزعة مع الاتجاه الصوفي في الإنسان قبل الإسلام لا يعني تأثره بنهج غير إسلامي في هذا المجال فهو تشابه في نزعة طبيعية، لا تشابه في نهج مقصود. وإن التصوف الإسلامي هو سلوك طريق محمد (ﷺ) في العبادة، والتأمل والحياة.

(*) ابن خلدون، انظر رسالته شفاء السائل بتحقيق: محمد بن تاويت الطنجي.

ولو تأملنا في الحياة لوجدنا تشابهاً غريباً في كثير من ميادينها مرده تجانس الغريزة، أو توارد الخاطر، أو تماثل الحاجات وطرق إشباعها، وتشابه الظروف وعواملها، ولم يتأثر اللاحق فيه بالسابق.

وعلى سبيل المثال نذكر قصة العشق الذي ربط قيساً بليلى وهي قصة عرفت بقصة «مجنون ليلى»، في الأدب العربي، وهي نفسها تتكرر في قصة «روميو وجوليت» في الأدب الإنكليزي وفي قصة «مم وزين» في الأدب الكردي و«شيرين وفرهاد» في الأدب الفارسي. وفي علم تاريخ القانون شواهد عديدة في تشابه الأعراف القانونية في بلاد تتشابه الظروف الاجتماعية والاقتصادية فيها.

فإذا كان للتصوف الاسلامي بعض الشبه مع اتجاه في السلوك الإنساني قد ظهر بشكل أو بآخر قبله؛ فإن هذا لا يعني علاقة امتداد في الوجود بل يعني علاقة تشابه في تطلع الإنسان ذاته.

ومما يعضد هذه الحقيقة أن التصوف الإسلامي يختلف في الهدف والسلوك عن المنهج المسمى بالتصوف غير الإسلامي مجازاً أي عن تصوف الأديان والمناهج الأخرى. وهو تصوف تحدد مقامه في الشريعة الإسلامية كتاباً وسنة، ووضح حقائقه كبار مشايخ الصوفية في مؤلفات قيمة قبل تسلل أفكار الفلاسفة وحكماء الشعوب إلى الفكر الإسلامي في ميادين الأخلاق والنفس والفلسفة.

الفصل الثالث

الإسلام والتصوف

لخصنا التصوف في كلمتين هما: الذوق وهو تلمس المعرفة الحقيقية. وتجلي النور الإلهي في قلب المؤمن العابد. وهما حالان لا سبيل للعقل إليهما. فمن اتخذ العقل وحده وسيلة لإدراكهما تعقدت أمامه السبل، وضاعت خطاه. ولا يعني ذلك أننا نهمل قدر العلم، ومكانة العقل بل نرى أن العقل محصور في إطار التجربة المادية. وأن التجربة الصوفية هي روحية صرفة. وساحة العلم هي المادة وكل حصيلة للحواس الخمس.

أما التصوف فيحلق بالإنسان في أجواء الروح والضمير والنور الإلهي ولكن دون أن يخرج عن حدود الشريعة الغراء. ذلك أنه لا يسترشد إلا بالكتاب والسنة ولا يستلهم قيمه إلا من سنة النبي وسير السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأئمة العلم والدين ولكن يتميز بإطار محدد منضبط صارم من السلوك ضمن الميدان الواسع للشريعة الغراء. فالشريعة الإسلامية قد تكتفي من المسلم بأداء الصلاة كما هي، دون أن تفرض عليه حبس أنفاسه كيلا يزيغ قلبه لحظة عن التفكر في ساعة القرب ولكن التصوف يقتضي عبء المراقبة بحيث يعيش المصلي كليًّا لحظات الوقوف والسجود بخشوع وخضوع دائمين ويحصل على بركات أنوار يحس بها هو وحده «**قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم**

خاشعون». ولذلك نقول: إن التصوف هو التزام بحدود الشريعة في إطار خاص وبانضباط متشدد، وبتمثل حقيقي جدي لمعانيها في نفسه وسلوكه فهو تقيد بجوهر الشريعة وحقيقتها يعيشه الصوفي بوجدانه وبروحه قبل جسده وبقلبه قبل جوارحه.

ومما يوضح العلاقة بين التصوف والشريعة ما يقال: من أن الشرع يحكم بالظاهر، فإذا نوى شخص فعل إثم فلا يعاقب على نيته الإجرامية ما لم يرتكب الجريمة فعلاً، ولكن التصوف ترويض للنفس على تجنب التفكير في الإثم، وتعويد لها على انشغال القلب كليًّا بما هو خير لكي يصبح وجدان الصوفي عشًّا للمحبة.

وإذا كان عليك شرعاً أن تنفذ تعاليم الإسلام في الصلاة والزكاة والحج بالحدود المبينة في كتب الفقه؛ فإن التصوف يجعلك في طريق هذه الطاعة؛ لا تغفل عن ذكر ربك وتشعر بلذة روحية في مداومة عبادتك، والاستغراق في تأملك.

إذا استشهدنا بالصور المضيئة لسير رجال التصوف لعرفنا أن هؤلاء هم الصفوة المختارة من عباد الله الصالحين؛ وقفوا بأدب عالٍ عند حدود الشريعة ولم يخرجوا عنها قيد شعرة. وفي القرآن الكريم آيات محكمات حددت بوضوح مقامات هذا الأدب العالي في العبادة والتأمل. وسنفصله في موضعه، وما نعنيه هنا هو بيان أن طريق التصوف هو طريق الإسلام ليس إلا.

قال ابن سينا في كتابه «الإشارات والتنبيهات».

«الزاهد هو من عزف عن مغريات الدنيا كليًّا. والعابد من قضى عمره في الصلاة لتنفيذ تعاليم ربه. والعارف من كان مستغرق التأمل في عظمة ربه سائلاً منه ﷻ أن يملأ قلبه بنور معرفته». وقد تجتمع هذه الصفات في واحد فيكون زاهداً، عابداً، عارفاً. وهذا هو «الصوفي».

فتوضح لدينا أن التصوف هو جهاد من أجل الوصول إلى معرفة الله في طريق الحس الوجداني. ومثل هذا الإحساس يتحقق بذوق في الضمير والقلب والوجدان لا بذوق في اللسان. ويتحقق بالمشاهدة بالبصيرة لا بالبصر. وستظهر هذه الحقيقة فيما نورده من أقوال سادة طريق التصوف في الفصل التالي.

الفصل الرابع

التصوف في أقوال كبار مشايخه

يتفق أعلام التصوف ونجوم سمائه على أن التصوف هو الحكمة. والحكمة معرفة الله وهي طريق سعادة الدارين. قال سبحانه: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ سورة البقرة ،الآية ٢٦٩. وقال تعالى في سورة الجمعة: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾.

فمن أراد أن يبلغ الحكمة أي معرفة الله؛ عليه أن يتحلى بأدب الشريعة ويزكي نفسه ويجنبها من كل سوء. فإذا جاء عمله موافقاً للشريعة، وامتلأ قلبه بنور العبادة استحق وجدانه أن يتجلى فيه نور الحق.

وإلى هذا يشير الحديث الذي يروى عن النبي (ﷺ) «**قلب المؤمن عرش الله**» وفي رواية عرش الرحمن..

قال سبحانه وتعالى في سورة النازعات:

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾. إن المعرفة الصوفية هي من أفضل المعارف ذلك أنها معرفة الله ولا ريب أن معرفة الله هي أساس كل فيض، وأشرف من كل معرفة. وصاحبها من أشرف بني آدم.

والصوفي هو ذلك المسلم الذي قطع مراحل اليقين في الطريق حتى اطمأن قلبه بحق اليقين، كما قال تعالى في سورة الفتح ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾ ولا يحصل هذا المقام إلا لمن جاهد وسعى بدليل قوله تعالى في سورة النجم. ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ وإن الإنسان الذي يسعى مخلصاً للتقرب من ذاته العلية يكون الله له وليًّا مرشداً بدليل قوله تعالى في سورة العنكبوت ﴿وَٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾.

إن الصوفي ينشد معرفتين متلازمتين هما معرفة نفسه ومعرفة ربه: **«ومن عرف نفسه عرف ربه»**.

ولا شك أن دائرة معرفة الله سحانه أوسع من كل كتاب أو عقل ولكن معرفة النفس تضيء طريق معرفته سبحانه. فعلى المرء أن يذعن لعبوديته لربه، ويحاسب نفسه ويراجع ذاته فيما قدم وأخّر من واجباته ومسؤولياته في صلته بربه وبخالقه، وفي تهذيب نفسه وفي صلته بأسرته وبمجتمعه.

وبهذه الروح التربوية المهذبة بإزاحة الرذيلة في نفس المسلم، وبتحريك الإحساس بالحق وبالخير في ضميره(*)؛ يستعد وجدانه لمعرفة الله حقًّا. وهذا مفاده «من عرف نفسه عرف ربه». ذلك أن من عرف نفسه فعلاً عالج خطرات الإثم فيه أما المغرور الذي لا يلتفت إلى نفسه فلا يمكنه سلوك هذا الطريق.

ويدل على المعنى نفسه قوله تعالى في سورة السجدة ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ وفي سورة الذاريات ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

قال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى «القلب الصوفي قد رأى الله. وكل شيء يرى الله لا يموت. فمن رأى الله فقد خلد».

(*) وهذا هو ما قصده بعض المشايخ من قولهم والتصوف تخلية وتحلية.

قال الدكتور عبد الحليم محمود في معرض تقديمه مع صاحبه لكتاب «التعرف لمذهب أهل التصوف» للعالم الصوفي أبو بكر محمد الكلاباذي المتوفى ٣٨٠هـ:

«كل كلمة خطها الصوفية كانت خالدة كالقلب الصوفي، خالدة لا تموت لأنها ارتبطت بالله، واستهدفت رضاه، واقتبست من هداه، وأشرقت بحبه، وأضاءت بنوره. ولهذا آمن الصوفية بأنهم أحباب الله وأصفياؤه وأولياؤه وصفوة عباده وحراس ينابيعه وآياته».

قيل لمعروف الكرخي أخبرنا عن المحبة. قال:

«يا أخي ليست المحبة من تعليم الناس. المحبة من تعليم المحبوب».

وبهذا الربط الوثيق المستقل بالوجد والحب، وملهمات الأنس والقرب، أصبح الصوفي أينما تولى فثم وجه الله لا يرى سواه ﴿**فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ**﴾ سورة البقرة. وكل شيء في الوجود بمثابة مرآة يرى فيها الصوفي وجه الله وآياته وقدرته ورحمته[1].

قال ذو النون المصري[2]:

«إلهي ما أصغيت إلى صوت حيوان، ولا إلى حفيف شجر، ولا خرير ماء، ولا ترنم طائر، ولا تنغم طلّ، ولا دوي ريح، ولا قعقعة رعد، إلا وجدتها شاهدة بوحدانيتك، دالة على أنه ليس كمثله شيء»[3].

إن طريق التصوف هو إفناء النفس **«إن النفس لأمارة بالسوء»**. وقد رضي الله سبحانه عن الذين كبحوا جماح نفوسهم فقال **«ونهى النفس عن الهوى»** فيفني الصوفي هوى النفس وشهواتها فيما يحبه الله ويريده ويأمر

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذي ص٥.

(٢) توفي ٢٤٥هـ. وهو من كبار عظماء التصوف.

(٣) حلية الأدب لأبي نعيم ج٩ ص٢٠.

به فيكون كما يروي الحديث القدسي «**عبدي كن ربانيًّا تقل للشيء كن فيكون**» كما قال الإمام الجنيد وهو شيخ المشايخ «**فتكون كل حركاته في موافقة الحق دون مخالفة، فيكون فانياً عن المخالفات باقياً في الموافقات**»[(١)].

إنه إذن استبدال خلق بشري بخلق رباني وهو منزلة لا تعرفها الدنيا لغير الصوفية الإسلامية. فالفناء الصوفي ليس فناء جسد في جسد، ولا فناء روح في روح إنه فناء إرادة في إرادة وفناء أخلاق في أخلاق وصفات في صفات كما يقول الصوفية «**فانيا عن أوصافه باقياً بأوصاف الحق**».

فالتصوف سمو كمالي يصعد حتى تخفق أجنحته من أفق القدس الأعلى ثم تخفق صاعدة حتى تنال شرف التخلق بأخلاق الصفات الإلهية. وقد عبر عنه الحديث القدسي «**كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به**».

قال الكلاباذي وهو أحد كبار مشايخ التصوف[(٢)]:

ومن فناء الحظوظ حديث عبدالله بن مسعود قال:

«**ما علمت أن في أصحاب رسول الله (ﷺ) من يريد الدنيا حتى قال الله تعالى** - ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ﴾ - **فكان عبدالله بن مسعود في هذا المقام فانياً عن إرادة الدنيا**».

لقد فني الصوفية في حب مولاهم، وتخلقوا بأخلاقه، وتأدبوا بآدابه، وتربوا في محاريبه وعاشوا في ذكره ومناجاته فعلمهم، وطهرهم وزكاهم واصطفاهم واجتباهم وأحبهم ورضي عنهم ففتح لقلوبهم ملكوت السماوات والأرض يريهم عجائب كونه، وبدائع قدرته، وأسرار خليقته

---

(١) التعرف لمذهب أهل التصوف ص١٢٥.

(٢) جاء ذلك في مقدمة كتابه «التصوف الإسلامي» ص١٦.

وأفاض عليهم هداياه وعطاياه علوماً وأذواقاً كما قال تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ سورة البقرة.

ومع أن الصوفي يعرف نعيم الجنة فإنه يسعى لنيل القرب من صاحب الجنة، قال أحد كبار مشايخ التصوف لأحد المريدين «**إن كنت تريد الجنة فاذهب إلى ابن مدين وهو أحد علماء الشريعة وإن كنت تريد صاحب الجنة تعال إليّ**».

جاء في كتاب نفح الطيب: **الشريعة طريق الجنة والتصوف طريق الله. ويعني الحقيقة.**

قالت رابعة العدوية وهي الطائر الجريح في طريق المحبة:

«**إلهي لا أعبدك خوفاً من نارك، أو طلباً لجنتك ولكني أحبك فأسجد لعظمتك**».

قال الدكتور زكي مبارك[1]: **التصوف يوجب نكران الذات. وقال: كنت أعرف التصوف موصولاً بإشارات ورسوم وتقاليد فعدت لا أعرفه إلا في القلب والروح.**

قال أبو نصر السراج المتوفي ٣٧٨هـ، صاحب كتاب اللمع[2]:

«قد أجيب عن معنى التصوف بأجوبة مختلفة، منهم إبراهيم بن المولد الرقي، قد ذكر مائة جواب، وفي كتاب نشر المحاسن الغالية لليافعي ذكر ألف جواب حول مصطلح التصوف». قال الشيخ أحمد الشرباصي[3]:

(١) جاء ذلك في مقدمة كتابه «التصوف الإسلامي» ص١٦.

(٢) اللمع لأبي نصر السراج الطوسي ص٤٧.

(٣) جاء ذلك في بحثه المنشور في سلسلة الثقافة الإسلامية ١٩٦١. المقام، مكتسب، قار ثابت، فيه معاناة وجهد، فهو من تقدير الساعي وجهده ومعاناته، أما الأحوال فمواهب لدنيّة، ومنح وعطايا.

«التصوف مذهب أخلاقي، اجتماعي، نفسي له منشؤه، وتاريخه وأسلوبه، وطريقته، وبرهانه، وأدلته، ورجاله، وأبطاله، وكتبه، ومصادره وفوائده ومآخذه».

والحقيقة كما ذكرت سابقاً: إن من أراد أن يفهم التصوف فعليه أن يسير في رحاب عالمه الواسع، جواباً في آفاقه، رحالة لاكتشاف مدارجه كما هو حال من أراد ارتياد عالم مجهول.

وإن عالم التصوف لا يدرك بسهولة فهو مشاهدة وتذوق وإشراق نور الله في القلب وله مقامات وأحوال. ومقاماته تشبه مقامات الدنيا كما يقال فلان مدير مثلاً. وهي مقامات يمنحها الله سبحانه للمتقين من عباده. والحال تختلف عنها لأنها زائلة تأتي وتزول أما المقام فثابت في صعوده إلا من حرم من نعمة ربه بذنب ارتكبه.

لذلك يصعب تعريف التصوف صعوبة التعريف بطعم ثمرة فاكهة لشخص لم يذقها في حياته كالكمثرى والتين فقال: إنه حلو المذاق ذلك أن السكر حلو المذاق أيضاً وكذلك العسل والتمر. ولكل طعمه الخاص. وهل تتشابه الحموضة في كل من الرمان والخل مثلاً؟

فإذا كان الشيء وجدانيًّا، أو إشراقاً إلهيًّا، ومقاماً معنويًّا، فكيف يعرِّف به لمن لم يذق شيئاً منه ولم يدخل هذا الميدان؟

جاء أحد المريدين إلى الشيخ محيي الدين بن عربي ١١٦٥-١٢٤٠م فقال له: إن الناس لا يصدقون طريقتنا.

فقال الشيخ: إذا طلب منك أحد حجة لمعرفة هذا الطريق فاسأله: كيف تعرف أن العسل حلو المذاق؟

فإذا قال: قد ذقته وبالذوق يعرف. فقل له: وكذلك التصوف لا تعرفه حتى تذوقه.

والحقيقة أن الذين سكروا بتذوق نعيم التصوف، وتعلقوا بثمار

حدائقه الغنّاء، وغرقوا في بحار لطفه وكرمه سبحانه متأملين عظمة الله سبحانه ورحمته بخلقه، لن يجدوا فرصة للتعريف بما يجدون في أنفسهم. ولو وصفوا لقالوا: إن هذا العالم طيب المذاق، إن ثماره طيبة، فمن كان منكم رشيداً فليأت ليكون له حظ في هذا النعيم المقيم والفرح الدائم، وما صنعوا غير ذلك.

ومما زاد من صعوبة استيعابه أن أصحاب التصوف يتحدثون بلغة خاصة يسود فيها المعنى المجازي والرمزي، وأن أيًّا منهم تحدث بلغة حاله ومقامه حين تحدث عما هو فيه. لذلك إن ما كان عليه أي من هؤلاء الأعلام وعبر عنه بلغته الخاصة لا يمثل إلا جانباً من التصوف.

وعلى هذا يكون للتصوف تعريفات بقدر حال كلٍّ ومقام كلٍّ. ولكنهم جميعاً يقصدون هدفاً واحداً.

وقد أسندت تعاريف عديدة إلى كبار رجال هذا الميدان قد وصلت إلى ألف. ونورد الآن بعضاً منها:

١- قال الشيخ معروف الكرخي المتوفي ٢٠٠هـ[(١)]:

«التصوف الأخذ بالحقائق واليأس مما في أيدي الخلائق».

٢- قال الشيخ أبو سليمان الداراني[(٢)]:

«يأتي على الصوفي أحيان لا يعلمها إلا الله ويكون مع الله في أحوال لا يعلمها إلا الله».

٣- قال أبو تراب النخشبي (ت٢٤٥)هـ[(٣)]:

«الصوفي لا يكدره شيء، ويصفو به كل شيء».

(١) عوارف المعارف للسهروردي ص٤١.

(٢) التذكرة ج١ ص٢٣٣. انظر نشأة التصوف الإسلامي للدكتور إبراهيم البسيوني ص٢١.

(٣) عوارف المعارف.

٤- قال بشر الحافي (١٥٠-٢٢٥هـ):

«الصوفي من صفا قلبه».

٥- قال الشيخ بايزيد البسطامي (١٨٨-٢٦٦هـ):

«الصوفية أطفال في حجر الحق».

٦- قال أبو يعقوب السوسي:

«الصوفي هو الذي لا يحزن ولو فقد كل شيء ولا يمل في طريق الوصول إلى المراد».

٧- قال الشيخ أبو الحسين النوري (ت٢٩٥هـ):

«الصوفية قوم صفت قلوبهم من كدورات البشرية وآفات النفس، وتحرروا من شهواتهم حتى صاروا في الصف الأول والدرجة العليا مع الحق، فلما تركوا كل ما سوى الله صاروا لا مالكين ولا مملوكين».

٨- قال الشيخ جنيد البغدادي «ت٢٩٧هـ»:

«التصوف هو أن يميتك الحق عنك ويحييك به»[١]

٩- قال أيضاً:

«أن تكون مع الله بلا علاقة»

«الصوفي كالأرض يطرح عليها كل قبيح ولا يخرج منها إلا كل مليح»[٢]

«الصوفية هم مع الله وحده ولا يعرفهم غيره».

«التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية ومفارقة الأخلاق الطبيعية وإخماد الصفات البشرية ومجانبة الدواعي النفسانية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على

(١) عوارف المعارف ص٤٣.

(٢) عوارف المعارف ص٤٣.

الأبدية، والنصح للأمة، والوفاء لله على الحقيقة، واتباع الرسول ﷺ في الشريعة»[1].

١٠- قال حسين الحلاج (ت٣٠٩هـ)

«الصوفي وحداني الذات لا يقبله أحد ولا يقبل أحداً»[2].

١١- قال الشيخ أبو بكر الشبلي (ت٩٤٥م)

«التصوف هو الجلوس مع الله بلا همّ»[3].

١٢- قال الشبلي أيضاً:

«الصوفي منقطع عن الخلق، متصل بالحق كقوله تعالى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾، قطعه عن كل غير ثم قال له: لن تراني».

١٣- قال أبو الحسن الحصري:

«الصوفي هو من لا يعود إلى ذنب تركه، ولا يطمئن قلبه إلا بربه متوكلاً على ربه الذي يعلم ما قدر له».

١٤- قال أبو سعيد أبو الخير «ت٤٤٠هـ»:

«الصوفي من دفع ما عليه، وأعطى ما في يديه».

١٥- قال الشيخ عبد القادر الجيلاني (٤٧٠-٥٦١هـ):

«اكسب مال الدنيا في طريق الحلال ولكن ضعه على كفك، لا في صميم قلبك».

١٦- سئل الشيخ محمد بن علي القصاب شيخ الجنيد: ما هو التصوف؟

---

(١) الكلاباذي ص٢٥.

(٢) الرسالة القشيرية ص١٢٩.

(٣) الرسالة القشيرية ص١٢٩.

أجاب: أخلاق كريمة. ظهرت في زمان كريم من رجل كريم. مع قوم كرام.

١٧- سئل سحنون من معاصري الجنيد ما هو التصوف؟ فقال: **«أن لا تملك شيئاً ولا يملكك شيء»**[١].

١٨- قال الشيخ عمرو بن عثمان المكي (ت٢٩٨)هـ:

«التصوف هو أن يكون العبد في كل وقت بما هو أولى به الوقت».

١٩- قال الشيخ أبو النصر السراج (ت٣٧٨هـ)[٢]:

«الصوفية هم العلماء بالله، وبأحكام الله، العاملون بما علمهم الله تعالى المتحققون بما استعملهم الله ﷻ، الواجدون بما تحققوا، الفانون بما وجدوا، لأن كل واحد قد فني بما وجد».

٢٠- قال ذو النون المصري «ت٢٤٥»هـ:

«آية معرفة الله ثلاث: أولها؛ لا يطفئ نور معرفة الله نور ورعه وثانيهما؛ لا يتكلم بباطن في علم ينقضه ظاهر الكتاب والسنة وثالثهما؛ لا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله».

٢١- قال سهل بن عبدالله التستري «ت٨٩٦م»[٣]:

«الصوفي من صفا من الكدر وامتلأ من الفكر، وانقطع إلى الله من البشر واستوى عنده الذهب والمدر».

٢٢- قال ذو النون المصري:

رأيت امرأة ببعض سواحل الشام، فقلت لها:

من أين أقبلت رحمك الله؟ قالت من عند أقوام تتجافى جنوبهم عن

(١) انظر في هذه التعريفات الرسالة القشيرية ص١٢٧ ومراجع التصوف الأخرى.

(٢) اللمع ص٢٦.

(٣) انظر عوارف المعارف ص٤٣، تذكرة الأولياء ص٢٦٤.

المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطعماً. قلت وأين تريدين؟ قالت إلى رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله. قلت صفيهم لي فأنشأت تقول:

قوم همومهم بالله قد علقت فمالهم همم تسمو إلى أحد
فمطلب القوم مولاهم وسيدهم يا حسن مطلبهم للواحد الصمد
ما إن تنازعهم دنيا ولا شرف من المطاعم واللّذّات والولد
ولا للبس ثياب فائق أنق ولا لروح سرور حل في بلد
إلا مسارعة في أثر منزلة قد قارب الخطو فيها باعد الأبد
فهم رهائن غدران وأودية وفي الشوامخ تلقاهم مع العدد

٢٣- قال يوسف بن الحسين:

«لكل أمة صفوة، وهم وديعة الله الذين أخفاهم عن خلقه فإن يكن منهم في هذه الأمة فهم الصوفية».

٢٤ قال أبو سعيد الخراز (ت٢٦٨هـ):

«الصوفي من صفا ربه قبله فامتلأ نوراً ومن حل في عين اللذة بذكره الله»[(١)].

٢٥- قال جعفر الخلدي (ت٣٤٨هـ):

«التصوف طرح النفس في العبودية والخروج من البشرية والنظر إلى الحق بالكلية».

٢٦- قال الشبلي:

«التصوف بدؤه معرفة الله ونهايته توحيده».

٢٧- قال أبو بكر الكتاني (ت٣٢٢هـ):

«التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء».

---

(١) نشأة التصوف الإسلامي ص٢٢.

٢٨- قال الشيخ محمد بهاء الدين النقشبندي (٧١٧-٧٩١هـ):

«طريقتنا هي الأدب».

٢٩- سئل أبو محمد الجريري: ما هو التصوف؟

فقال: الدخول في كل خلق سني والخروج من كل خلق دني.

٣٠- قال أبو الحسين النوري «ت٢٩٥هـ»[(١)]:

«ليس التصوف رسماً ولا علماً ولكنه خلق لأنه لو كان رسماً لحصل بالمجاهدة ولو كان علماً لحصل بالتعليم ولكنه تخلق بأخلاق الله ولن تستطيع أن تقبل على الأخلاق الالهية بعلم أو رسم».

٣١- قال النوري أيضاً:

التصوف الحرية والكرم وترك التكلف والسخاء.

٣٢- قال الشيخ محمد أمين الكردي الأربيلي (ت١٩١٣م)[(٢)]:

«الشريعة شجرة والطريقة أغصانها، والحقيقة أثمارها».

٣٣- قال أبو بكر الكتاني:

التصوف: صفاء ومشاهدة.

إن هذه العبارة الموجزة جمعت بين عنصري الوسيلة والغاية.

أما الوسيلة فهي الصفاء وأما الغاية فهي المشاهدة[(٣)].

* جمع العلامة نيكلسون ما يقرب من مائتي تعريف ورتبها زمنيًّا قاصداً الخروج من جهده بتعريف جامع للتصوف، فما استطاع، وقرر - ما قرره المشايخ من قبله: بأن التصوف لم يكن معرفة كنهه وحقيقته. انظر الفصل الخاص بتعريف التصوف: نشأة الفلسفة الصوفية للدكتور عرفان عبد الحميد.

---

(١) تذكرة الأولياء. / (٢) تنوير القلوب ص٤٠٩.

(٣) نشأة التصوف الإسلامي ص٢١.

الفصل الخامس

التصوف في تجربة الإمام الغزالي(*)

إن حجة الإسلام الغزالي خير من عرف التصوف وعرّفه، فقد سلم بأن الشريعة والطريقة واحدة ولكن الشريعة تعنى بظاهر الأمور، ويعنى التصوف بما في القلوب. ورأى أن التصوف لا يدرك بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات.

قال الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين:

«الطريق تقديم المجاهدة، ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها والاقبال بكنه الهمة على الله تعالى. ومهما حصل ذلك كان الله المتولي لقلب عبده، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم. وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة، وأشرق النور في القلب، وانشرح الصدر. وانكشف له سر الملكوت، وانقشع عن وجه القلب حجاب العزة بلطف الرحمة وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية».

وقد وردت هذه الحقيقة التي تؤكد أن التصوف هو اتباع للشريعة بالقلب وبالجوارح لا باللسان فقط في أمهات مراجع علم التصوف منها؛ إحياء علوم الدين للغزالي، والرسالة القشيرية للشيخ عبد الكريم بن هوازن، والتعرف لمذهب أهل التصوف للشيخ محمد الكلاباذي وقوت

(*) غني عن التعريف (١٠٥٩-١١١٤)م. (٤٥٠-٥٠٥)هـ.

القلوب للشيخ أبي طالب المكي (٣٨٦هـ) واللمع للشيخ أبي نصر السراج، ومكتوبات الإمام الرباني، وتذكرة الأولياء للعطار، والمواهب السرمدية وتنوير القلوب للشيخ محمد أمين الكردي.

لتوسيع آفاق المعرفة في رحاب التصوف ألقي الضوء على التجربة الصوفية للإمام الغزالي المحلق في سماء المعرفة والبصيرة كما كتبها بنفسه في كتابه «المنقذ من الضلال».

وفيه يقص الإمام حياته الفكرية المتنقلة من الدراسة المستفيضة إلى الشك ثم إلى اليقين وخلاصة هذه الرحلة كما قال:

«فقد سألتني أيها الأخ في الدين أن أبث إليك غاية العلوم وأسرارها، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق مع تباين المسالك، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد إلى يفاع الاستبصار. فابتدرت لإجابتك إلى مطلبك» ثم قال: «ولم أزل في عنفوان شبابي منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن. وقد أناف السن على الخمسين، أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور لأخوض الجبان الحذور، أتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنيًّا إلا وأحب أن أطلع على بطانته ولا ظاهريًّا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته، ولا فلسفيًّا إلا واقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ولا صوفيًّا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته، ولا متعبداً إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ولا زنديقاً معطلاً إلا وأتحسس وراءه للتنبيه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته.

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي، وديدني من أول

أمري وريعان عمري غريزة وفطرة من الله وضعتا في جبلتي لا باختياري وحيلتي حتى انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد سن الصبا.

وقال: فقلت في نفسي أولاً: إنما مطلوبي، العلم بحقائق الأمور فلا بد من طلب حقيقة العلم: ما هي؟

فظهر لي: إن العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم. ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى بإظهار بطلانه - مثلاً - من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً لم يورث ذلك شكًّا وإنكاراً فإني إذاً علمت: إن العشرة أكثر من الثلاثة. فلو قال لي قائل: لا بل الثلاثة أكثر بدليل أني أقلب هذه العصا ثعباناً، وقلبها، وشاهدت ذلك منه، لم أشك بسببه في معرفتي ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه. فأما الشك فيما علمته فلا. ثم علمت: إن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين فهو علم لا ثقة به، ولا أمان معه. وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني. ثم فتشت عن علومي فوجدت نفسي: عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات.

ثم قال: فلما خطرت لي هذه الخواطر [وهي الشك في كل معقول ومحسوس] وانقدحت في النفس حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر. إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل. ولم يمكن نصب ديل إلا من تركيب العلوم الأولية، فإذا لم تكن مسلمة لم يكن تركيب الدليل. فأعضل هذا الداء ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على السفسطة بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال رجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على أمر ويقين.

ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر.

ولما سئل رسول الله (ﷺ) عن الشرح ومعناه في قوله تعالى ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ قال: هو نور يقذفه الله تعالى في القلب.

وقال الغزالي: إن المقصود من هذه الحكايات: إن يعمل في كمال الجد في الطلب حتى ينتهي إلى طلب ما لا يطلب، واسترسل في بيانه الرائع فقال:

«ولما شفاني الله تعالى من هذا المرض بفضله، وسعة جوده انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق:

١- المتكلمون: وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر.

٢- الباطنية: وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم.

٣- الفلاسفة: هم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان.

٤- الصوفية: وهم يدعون أنهم: خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة.

فقلت في نفسي: الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة. فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق، فإن شذ الحق عنهم فلا يبقى في درك الحق مطمع. فابتدرت لسلوك هذه الطرق، واستقصاء ما عند هذه الفرق. ثم إني ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته وطالعت كتب المحققين منهم وصنفت فيه ما أردت أن أصنف فصادفته علماً وافياً بمقصوده غير واف بمقصودي. وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة فلم يكن الكلام في حقي كافياً ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافياً. ثم إني ابتدأت بعلم الفلسفة.

ثم قال «فشمرت عن ساق الجد من الكتب بمجرد المطالعة من غير استعانة بأستاذ وأقبلت على ذلك في أوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية وأنا. . . ممنو بالتدريس والإفادة لثلاثمائة نفس من الطلبة ببغداد فأطلعني الله سبحانه وتعالى بمجرد المطالعة في هذه الأوقات المختلسة على منتهى علومهم في أقل من سنتين.

وقال: رأيت أنهم على كثرة فرقهم واختلاف مذاهبهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: الدهريون، الطبيعيون، الإلٰهيون.

الصنف الأول الدهريون: هم طائفة من الأقدمين جحدوا الصانع المدبر العالم القدير وزعموا أن العالم: لم يزل موجوداً كذلك بنفسه، بلا صانع ولم يزل الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان كذلك كان وكذلك يكون أبداً وهؤلاء هم الزنادقة.

والصنف الثاني الطبيعيون: وهم قوم أكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة وعن عجائب الحيوان والنبات وأكثروا الخوض في علم تشريح أعضاء الحيوانات. فرأوا فيها من صنع عجائب الله تعالى، وبدائع حكمته ما اضطروا معه إلى الاعتراف بفاطر حكيم مطلع على غايات الأمور ومقاصدها. ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان لا سيما بنية الإنسان.

إلا أن هؤلاء لكثرة بحثهم عن الطبيعة ظهر عندهم لاعتدال المزاج تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه أيضاً وأنها تبطل ببطلان مزاجه فينعدم ثم إذا انعدم فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا فذهبوا إلى أن النفس تموت ولا تعود فجحدوا الآخرة وأنكروا الجنة والنار والحشر والنشر والقيامة والحساب فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ولا للمعصية عقاب. فانحل عنهم اللجام، وانهمكوا في الشهوات انهماك الأنعام.

وهؤلاء أيضاً زنادقة لأن أصل الإيمان هو الإيمان بالله واليوم الآخر وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر وإن آمنوا بالله وصفاته.

الصنف الثالث الإلٰهيون: وهم المتأخرون منهم مثل سقراط وهو أستاذ أفلاطون وأفلاطون أستاذ أرسطاطاليس وأرسطو هو الذي رتب لهم المنطق وهذب لهم العلوم. ثم صنف الغزالي علومهم فقال:

اعلم أن علومهم ستة أقسام:

«رياضية ومنطقية وطبيعية وإلهية وسياسية وخلقية».

وبعد مناقشتها قال: ثم إني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهيمه وتزييف ما يزيف منه علمت أن ذلك أيضاً غير واف بكمال الغرض وأن العقل ليس مستقلاً بالإحاطة بجميع المطالب ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات. وكانت قد نبغت نابغة التعليمية وشاع بين الخلق تحدثهم بمعرفة معنى الأمور من جهة الإمام المعصوم القائم بالحق، عنّ لي أن أبحث عن مقالاتهم، لأطلع على ما في كتبهم.

وقد فصل الغزالي آراءهم وانتهى إلى أنه ليس مع هؤلاء شيء من الشفاء المنجي من ظلمات الآراء.

ثم تناول تجربته مع التصوف فقال:

ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل. وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة، وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب من غير الله تعالى، وتحليته بذكر الله.

وكان العلم أيسر على من العمل فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل: «قوت القلوب» لأبي طالب المكي. وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي قدس الله أرواحهم وغير ذلك من كلام مشايخهم حتى اطلعت على كنه

مقاصدهم العملية وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع فظهر لي أن أخص خواصهم ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات. . .

وكم من الفرق بين أن يعلم حد الصحة وحد الشبع وأسبابهما وشروطهما وبين أن يكون صحيحاً وشبعان، وبين أن يعرف حد السكر وأنه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء أبخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر، وبين أن يكون سكران، بل السكران لا يعرف حد السكر وعلمه وهو سكران وما معه من علمه شيء. والصاحي يعرف حد السكر وأركانه وما معه من السكر شيء. والطبيب في حالة المرض يعرف حد الصحة وأسبابها وأدويتها وهو فاقد الصحة كذلك فرق بين أن تعرف حقيقة الزهد وشروطها وأسبابها وبين أن يكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا. فعلمت يقيناً: أنهم أرباب الأحوال لا أصحاب الأقوال. وأن ما يمكن تحصيله بطريق العلم فقد حصلته، ولم يبق إلا ما لا سبيل إليه بالسماع والتعلم بل بالذوق والسلوك. وكان قد ظهر عندي: أنه لا مطمع في سعادة الآخرة إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى. وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب من الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى وأن ذلك لا يتم إلا بالإعراض عن الجاه والمال والهرب من الشواغل والعلائق. ثم لاحظت أحوالي: فإذا أنا منغمس في العلائق، وقد أحدقت بي من الجوانب. ولاحظت أعمالي وأحسنها - التدريس والتعليم - فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة. ثم تفكرت في نيتي في التدريس فإذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى بل باعثها ومحركها: طلب الجاه، وانتشار الصيت. فتيقنت أني على شفا جرف هار وأني قد أشفيت على النار إن لم أشتغل بتلافي الأحوال. فلم أزل أتفكر فيه مدة وأنا بعد على مقام الاختيار أصمم العزم على الخروج من بغداد،

ومفارقة تلك الأحوال يوميًّا، وأحل العزم يوماً وأقدم فيه رجلاً، وأؤخر عنه أخرى. لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة، إلا وتحمل عليها جند الشهوة حملة فتفترها عشية، فصارت شهوات الدنيا تجاذبني سلاسلها إلى المقام ومنادي الإيمان ينادي: الرحيل الرحيل فلم يبق من العمر إلا قليل وبين يديك السفر الطويل وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخييل فإن لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد؟

ثم انتقل الغزالي في قصته إلى كيفية تدبير اختفائه وخروجه خشية معارضة الخليفة وكبار العلماء له ثم قال:

«ففارقت بغداد وفرقت ما كان معي من المال ولم أدخر إلا قدر الكفاف وقوت الأطفال.. ثم دخلت الشام وأقمت به قريباً من سنتين لا شغل لي إلا العزلة والخلوة، والرياضة، والمجاهدة اشتغالاً بتزكية النفس، وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى كما كنت حصلته من علم الصوفية فكنت أعتكف مدة في مسجد دمشق، أصعد منارة المسجد طول النهار وأغلق بابها على نفسي.

ثم رحلت منها إلى بيت المقدس أدخل كل يوم الصخرة وأغلق بابها على نفسي. ثم تحركت فيّ داعية فريضة الحج والاستمداد من بركات مكة والمدينة وزيارة رسول الله (ﷺ) بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله عليه فسرت إلى الحجاز. ثم جذبتني الهمم ودعوات الأطفال إلى الوطن فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع إليه. فآثرت العزلة به أيضاً، حرصاً على الخلوة وتصفية القلب للذكر ودمت على ذلك مقدار عشر سنين. وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها والقدر الذي أذكره ينتفع به.

إني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على

أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلاً. فإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.

وبالجملة فماذا يقول القائلون في طريقة: طهارتها - وهي أول شروطها - تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى. ومفتاحها - الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة - استغراق القلب بالكلية بذكر الله. وآخرها: الفناء بالكلية في الله.

ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى أنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق فلا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا أشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه.

وعلى الجملة ينتهي الأمر إلى قرب يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الوصول. وكل ذلك خطأ. وقد بينا وجه الخطأ في كتاب «المقصد الأسنى» بل الذي لابسته تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد على أن يقول:

وكان ما كان مما لست أذكره   فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر

وهنا استشهد بأبيات للشيخ محمد بهاء الدين النقشبند قدس سره توضيحاً لما قاله الغزالي قال النقشبند:

«في الوقت الذي أظل ساكناً أجد نفسي ناطقاً لي صوت ولي قول ومثلي في ذلك كالخط المكتوب ينطق وهو ساكت لا يقول وفي الوقت الذي لا أعمل ولا أجدي أفيد غيري، مثل علامات الحساب في الجمع والطرح يعرف بها الحساب وهي لا دخل لها في الحساب.

ثم قال:

لا أدري كيف أفهمك معنى القرب يا أيها الزاهد من أهل الظاهر سوى أني أشبهه بماء الورد في الورد». ويريد بذلك أن قربه منه كقرب ماء الورد في الورد.

وأعود إلى تجربة الغزالي الصوفية إذ قال بعد ذلك:

«وبالجملة فمن لم يرزق منه شيء بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم. وكرامات الأولياء على التحقيق هي بدايات الأنبياء». ثم تناول تطهير القلب فقال: «إن الذين يقول الله سبحانه فيهم ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ هم أولئك الذين لم يطهروا قلوبهم ويعني بالقلب حقيقة الروح التي هي محل معرفة الله دون اللحم والدم» وأن البدن كما قال الغزالي له صحة بها سعادته ومرض فيه هلاكه وأن القلب كذلك له صحة وسلامة، وختم المفكر الصوفي الغزالي تجربته بقوله:

وأما العلم الحقيقي فيزيد صاحبه خشية وخوفاً ورجاء وذلك بينه وبين المعاصي إلا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في الفترات وذلك لا يدل على ضعف الإيمان فالمؤمن مفتن تواب. وهو بعيد عن الإصرار والاكباب.

الباب الثاني

التصوف وقضاياه

التصوف وقضاياه

أولاً - متى نشأ التوصف الإسلامي؟

توضح فيما سبق أن التصوف الإسلامي هو الشريعة الإسلامية عينها، ويعني اتباع القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة. ولكن المتصوف يعنى بمجاهدة النفس، ويتوجه إلى محراب العبادة لا أداء لواجب ديني فحسب بل شوقاً بحبه. وقد يستعذب العذاب في سبيله مردداً قوله تعالى ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾.

وإذا كان العشق المجازي يدفع المحب للفداء في سبيل حبيبته فكيف الحال مع العشق الحقيقي؟

وتمثل هذه الحالة رابعة العدوية إذ تقول[1]:

«ما عبدته خوفاً من ناره، ولا حبًّا لجنته فأكون كالأجير السوء بل عبدته حبًّا له وشوقاً إليه».

فالتصوف نشأ مع بزوغ فجر الإسلام وإشراقه في قلب النبي الكريم محمد (ﷺ).

---

(١) قوت القلوب ص١١٣ ج٢، نشأة التصوف الإسلامي ص١٨٩.

وقع شع النور الحقيقي من معدن النبوة في قلوب خلفائه الراشدين وأصحابه الذين ﷺ ورضوا عنه.

وقد تميز البعض منهم في الإشراقة المحمدية مثل الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان العبسي وحارثة بن مالك الذي قال الرسول (ﷺ) في حقه: **من سَرَّهُ أن ينظر إلى من نوّر الله قلبه فلينظر إلى حارثة بن مالك.**

وذكر القشيري في رسالته أن أصحاب النبي الكريم حازوا كل مكرمة بشرف الصحبة وحيث إنه لا فضيلة أكرم منها قيل لهم «الأصحاب» وسمى من صحبهم «التابعين» وفي عصر التابعين تسللت شيئاً فشيئاً أغراض دنيوية وظهر ناس امتعضوا من هذه الظاهرة، وضاقت صدورهم بها فاختاروا العزلة فراراً بدينهم من الفتن واكتفاء بالنصيحة لإخوانهم فأطلقت على هؤلاء تسميات منها: الصوفي. الزاهد والحقيقية أن «الزاهد» كان معروفاً عند العرب قبل الإسلام وبعده ولكن «الصوفي» عرف في عهد التابعين وأطلق على الذي ابتعد عن مفاتن الدنيا من القصور والجواري والأموال، واستغرق في عبادة الله وذكره. وأذكر لذلك دليلين:

١- قال الإمام الحسن البصري (٢١-١١٠هـ):

رأيت صوفيًّا في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي».

٢- قال الإمام سفيان الثوري (٩٧-١٦١هـ):

لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء.

قال سيدنا عمر (رض) في وصف النبي الكريم:

بأبي أنت وأمي يا رسول الله... لبست الصوف وركبت الحمار.

وأستطيع القول: إن التصوف الإسلامي هو ما تمثل في سنة

الرسول (ﷺ) وأشرقت هذه الحقيقة في سلوك الأصحاب الأخيار الذين تميزوا بالبصيرة ثم يتجلى في سلوك رجال مثل الحسن البصري وداود الطائي، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد البغدادي، ثم ذاع وانتشر اسماً ووصفاً، وعنواناً ولقباً ومثاله «كلمة الحواري» التي كانت تعني «القميص الأبيض» ثم أطلقت على فئة مخلصة كحواري سيدنا عيسى عليه السلام.

ثانياً - كيف نثبت تطابق التصوف الإسلامي مع الشريعة الإسلامية؟

من المعلوم أن جملة من الشبهات تثار حول صحة هذا التطابق وأهمها:

١- يقال إن التصوف بدعة وأبرز دليل على ذلك ما ينسب إلى المتصوفين الكبار من أمثال الشيخ بايزيد البسطامي، ومحي الدين العربي، و«ذو النون المصري» والحلاج، والشيخ السهروردي المقتول في حلب [وهو غير السهروردي المدفون في بغداد وهو صاحب كتاب عوارف العارف، ورئيس الطريقة السهروردية].

٢- قد يبلغ اتباع المشايخ حد الشرك والكفر من تقديس مشايخهم لا سيما بعد وفاتهم.

٣- سلكت جماعات من المتصوفة سبل الضلال وأضلت الناس باسم التصوف لمصالحها الخاصة وهم قطاع الطرق ولبعضهم أفكار غريبة تصطدم مع حقائق الإسلام كوحدة الوجود، والحلول والاتحاد.

ولكني أقول في دحض هذه الشبهت:

إن الشطحات أقوال لا تتفق مع تعاليم الدين الإسلامي الحنيف. ولكن الصوفي قد يشعر بحالة غير طبيعية بسبب استغراقه في ذكر الله سبحانه فيصبح كالسكران الذي لا يسأل عما يهذي به أدبيًّا. والحقيقة أن

هذه الشطحات تعبير مجازي عما يحسون به من الكشف الذوقي ذلك أنهم يعودون إلى استقامتهم بعد زوال هذه الحال. ويروى أن كثيرين من الفقهاء أفتوا بشرعيتها ومنهم الشيخ (الشعراني) الذي صحح شطحات الشيخ محيي الدين العربي وفقاً لتعاليم الإسلام. ومن أمثله الشطح ما نسب إلى الشيخ بايزيد البسطامي «**ما تحت عباءتي إلا الله**» وهو قول ظاهره كفر ولكنهم يؤولونه بأنه حينما يبلغ الصوفي مقام «سلطان الأذكار» أو مقام «الفناء في الله» يستغرق قلبه وكل جوارحه في ذكر الله فلا يرى شيئاً غيره سبحانه فلا يكذب حين يقول ذلك، ولكنه يخالف ظاهر الشرع.

وأقول: إن أوضح دليل على أن التصوف الإسلامي هو الدين الإسلامي بعينه هو سلوك وأقوال رجال هذه الطريقة إذ تقيدوا بحدود الشريعة وامتازوا بورعهم وجعلوا تصفية النفس شعار حياتهم ولم نجد في التصوف أمراً مغايراً للإسلام فهو التوبة والقلب الزاكي، والذكر والمجاهدة وغيرها من المقامات والأوصاف التي نزلت بشأن كل منها آيات قرآنية محكمة.

إن الخطوة الأولى في التصوف هي التوبة وهي الإقلاع عن كل فعل سيئ والندم عنه، أما من ظل غاوياً فقد وصفهم القرآن الكريم ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

إن القرآن الكريم ذكر القلب في آيات عديدة سيأتي الاستشهاد بها في مواضع مختلفة ويكفي أن نشير إلى الآية الكريمة في معرض الذم ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ وفي معرض المدح «**وجاء بقلب منيب**».

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾.

وفي القرآن الكريم إشارة إلى القلب في أكثر من (١٥٠) مرة يفهم منها: إن القلب قد يكون محلًّا للإيمان والتقوى وقد يكون محلًّا للسوء.

وتكون التوبة بعد الإحساس بالندم ولكن كيف يتحقق الندم؟ أبالهداية الإلهية أم بالتأمل أم بصحبة الصادقين؟

إن النفس لأمارة بالسوء كما قال تعالى على لسان يوسف ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾. وعندما يحصل الإحساس بالندم تصبح النفس لوامة قال تعالى ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾.

وفي هذه الحال تتوجه النفس إلى التوبة والتوبة هي المرحلة الأولى في التصوف الإسلامي قال تعالى ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. فتبين أن التوبة وهي أول خطوة على عتبة التصوف مطابقة لدستور الشريعة وتعاليمها وسيأتي تفصيل أكثر لها في مبحثها في مقامات التصوف.

وكذلك المجاهدة فإن بعضاً من الناس يعارض هذه الفكرة ويظن أنها مخالفة للإسلام محتجاً بأن الدنيا خلقت للتمتع بها بدليل قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ ولكن هؤلاء لم يستوعبوا سياق الآيات التي لا تدعو إلى الانهماك في الملذات بل توبخ أولئك الذين يحرمون الطيبات كما حدث لبعض الصحابة الكرام. وحين أرادت نسوة الطواف حول الكعبة عاريات نزل قوله تعالى ﴿خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ والزينة اللباس.

وإذا كانت المجاهدة تعني تزكية النفس من الصفات الذميمة كالكبر وجمع المال، والظلم والحسد، والتفاخر، والغيبة وغيرها من الأخلاق المذمومة فإن محو هذه الصفات لا يتحقق بالأماني بل لا بد لها من مجاهدة وفطم لنزوات النفس الجامحة وشهواتها العارمة لتسهيل إحلال صفات الفضيلة محل الذميمة كالصدق محل الكذب والقناعة محل الطمع.

إن تزكية النفس تتحقق بتجنب الصفات الذميمة والتصوف لا يحرّم الحلال وما يضعه لنا من مراسم الرياضات الفكرية والجسدية هو من قبيل وصفة الطبيب لمريضه إلى أن يشفى: كما قال البوصيري المتوفى (٦٩٦هـ).

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

وهكذا يستمر طالب العلم في التمرن والسعي والمذاكرة إلى أن يصبح العلم ملكة فلا يحتاج عندها إلى مزيد من القراءات.

وتزكية النفس هي فرع مهم من شجرة التصوف والمجاهدة في سبيلها هي من تعاليم الإسلام الحنيف والنفس إن أهملت جمحت وشردت وأدت بصاحبها إلى المهلكة قال سبحانه وتعالى ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ مَلِكِ ٱلنَّاسِ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾.

ومن الواضح أن النفس مُهلكة إن لم تفطمها عن الشهوات ولم تعهدها بالتربية والرياضة وقد أمرنا القرآن الكريم بمجاهدة النفس وصفاتها الذميمة كما وضح لنا طرق الاستفادة المباحة من أموال الدنيا وطيباتها. والتصوف لم يخرج البتة عن حدود القرآن الكريم في ذلك. قال تعالى ﴿وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾.

فعليك أن تجاهد نفسك وتلازمها بالمقاومة والتوبيخ لكي تنال الثواب، فالله سبحانه قال ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ وقال أيضاً ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ وقال سبحانه ﴿وَمَا هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾. وباختصار:

إن التصوف لا ينحو إلا إلى ترسيخ قيم الإسلام ولا يحارب الكسب

الحلال وبناء الأسرة الطيبة ولكنه يقول «لا تبع دينك وآخرتك في سبيل دنياك» «ولا تبع حياءك من أجل جمع المال» و«لا تتخم بطنك بالأكل فيصبح عالة على جسمك» ولا يكن المال وردك الدائم في الليل والنهار ولكن لا تنس نصيبك من الدنيا. اعمل لدنياك قدر مكوثك فيها، لا قدر بقاء أحفاد وأحفاد لأحفاد لك. لا تخلط الحرام بالحلال.

أما التقوى وهي شعار صوفي فمصدرها القرآن الكريم ولم يأتِ التصوف ببدعة منها في الإسلام وهي كما يقال لها مراحل ثلاث:

١- أن يتقي نفسه من الكفر.

٢- أن يتقي نفسه من المعاصي.

٣- أن يتقي نفسه من الانهماك في كسب المال.

قال الشاعر الصوفي المولوي في تعريفه للولي:

لو وزن سلوكه وتقواه في مراحلها الثلاث لم يختلف قيد شعرة عن الشرع.

وقد عاب القرآن الكريم أولئك المنهمكين في الدنيا بقوله سبحانه ﴿وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ وقال أيضاً ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

أما الذكر فقد وردت في القرآن على عدة معان فتارة قصد بها القرآن الكريم كما في قوله تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ الحجر ٩ وتارة قصد بها الصلاة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ﴾ سورة الجمعة ٩. ولكن الغالب من معانيها التسبيح والتهليل والتكبير.

قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ الرعد الآية ٢٨.

وللدلالة على أهمية الذكر في تصفية النفس حذر القرآن الكريم الغافلين فقال تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾. وقال تعالى ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾.

فاتضح أن التصوف إذ يرشدنا إلى الذكر الدائم لصقل النفس إنما يسترشد بالقرآن الكريم وبتعاليم الإسلام الحنيف وسنفصل في مبحث الذكر في موضعه.

وقد تبين أيضاً أن التقوى التي تعتبر منهج التصوف لبلوغ الأمل مصدرها القرآن الكريم فقد وردت مائتي مرة تقريباً بصيغ مختلفة في القرآن الكريم قال تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ فالتقوى مجلبة لنور المعرفة ومعرفة الله هي الأساس كما قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ وقال سبحانه ﴿فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ ويفهم منها أن التقوى الظاهرية لا تكفي بل لا بد من التقوى في الباطن أيضاً بدليل قوله تعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ وقوله سبحانه ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾.

وبعد بيان هذه الحقيقة نتعرف على القلب الذي قد يكون مستقر رحمته سبحانه ومقاماً لنوره جل وعلا كما يمكن أن يزيغ بفعل الهوى فهو في رحاب التصوف محرك ماكنة الحياة ومصدر المشاعر الأحاسيس الخيرة والشريرة وهو البرهان على مقام العبد في عالم الروح وهو أول منزل ينحاز إليه الصوفي بالتزكية. والذي يجري على لسان الصوفية بشأن القلب ومنازله لا يخالف تعاليم الدين بل يؤكدها.

وللقلب كما هو معلوم معان عديدة منها اللحم الصنوبري في الجانب الأيسر من الصدر ويطلق على ما هو مركز الشعور الإنساني العاطفي ومنطلق التوجه نحو الخير أو الشر في الإنسان (والقلب عند المتصوفة يأتي بالمعنى المقصود في القرآن الكريم) منه ما هو مريض ومنه ما هو سليم قال الله سبحانه ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾

﴿لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ ووردت «في قلوبهم مرض» في سبعة مواضع من القرآن الكريم وكل هذه الأمراض معنوية وليست طبيعية بايولوجية قال سبحانه ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ وكذلك يصدأ القلب معنويًّا، فقال سبحانه ﴿فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ والقلب يعمى في الضلال ويبصر بالهداية كما قال تعالى ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ والمقصود هو ميدان المعنويات لا المحسوسات بدليل قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى﴾.

وهكذا يتضح بما ليس فيه شك أن ما ورد في أقوال علماء التصوف ورجاله بشأن القلب والصدر هو اقتباس من القرآن الكريم. وأن مقامات التصوف والأدب الصوفي مقتبسة من القرآن الكريم وأوصاف المؤمنين فيه من أمثال «الصادقين، الصادقات، القانتين، القانتات، التائبين التائبات، الخاشعات، السائحين السائحات الموقنين المخلصين المحسنين، المخبتين، العابدين، المتوكلين، المتقين، الأبرار، المقربين، المصطفين الأخيار» وهي ليست ببدعة، وورد في الحديث الشريف (كما يروى) «قلب المؤمن عرش الرحمن».

ثالثاً - ما هو منهج التصوف؟

سيكون الكلام بعد الآن مع المؤمنين بالإسلام ديناً وبالتصوف طريقة ومنهجاً، فنقول: ذكرنا الكثير عن التصوف وتعاريفه العديدة التي عبرت عن اختلاف الأحوال والمقامات لكبار رجال التصوف، وقيل إن أيّ تعريف يمثل مذاقاً خاصًّا لصاحبه وكلهم يرون أن التصوف مجاهدة مسلم بسلوك صوفي لتحقيق أوامره سبحانه تحقيقاً كاملاً، ولتطبيق القرآن الكريم والسنة

النبوية سرًّا وجهراً، روحاً وجسداً، ظاهراً وباطناً وهي طريقة الخواص. وأن هذا الجهد العظيم يهدف إلى غايتين أولاهما، رضوانه سبحانه وثانيهما، الوصول إلى حق اليقين، وعين اليقين. أي الإيمان الكامل بالرؤية أو بالذوق والحس الوجداني بتزكية القلب وتطهيره من الرغبات الفاسدة، وتزيين القلب بكل خلق حسن، حتى يصبح القلب مستودعاً لنور الله ويتنور قلب الصوفي بنور وجهه سبحانه، وحين يصبح القلب كذلك يصل اليقين ومن تنور قلبه بنور الله، ﷺ، ومن ﷺ فتح الله عليه أبواب رحمته، ومن صقل قلبه بمعرفة الله، لا يعبد أحداً غيره، ويصل إلى درجة الإحسان وهي إحدى درجات التصوف. قال الرسول (ﷺ) «والإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

ومن المعلوم (أن الصوفي الحقيقي لا يغفل عن ذكر ربه طرفة عين) وهو ما تعينه درجة الإحسان عند المتصوفين.

ونوضح حقيقة أننا لا نقصد بالصوفي الفئة المخصوصة من أتباع الطرق الصوفية بل نقصد معنى أوسع يشمل عباد الله جميعاً قادريين أو نقشبنديين أو غيرهم من عباد الله ممن توسطوا طرقاً صوفية أخرى أو لم يتوسطوها.

ومن المعلوم أيضاً أن التصوف عبارة عن تطبيق ظاهر الشرع وباطنه، وهو فن خاص له أساتذته وأدلته كما هو الحال في كل فن وعلم. فلا يجوز الخوض فيه دون معرفة طريقه وإذا كانت معرفة علوم الشرع الظاهرية تحتاج إلى درس لدى معلم ومذاكرة مع العلماء فإن المعرفة الصوفية وهي معرفة قلبية وعقلية تحتاج أيضاً إلى مرشد. فهل يصبح الشخص الذي تعلم الطب دون معونة أستاذ طبيباً حقًّا في ميدان العمل؟ وكذلك علم التصوف يحتاج إلى مرشد. ولا نعتقد أنك تصف مقصدك في مرحلة العمل دون الاستعانة بالمرشد المطلوب ولذلك يقال: إن التصوف الإسلامي هو تطبيق طريق وسلوك خاص وهو أيضاً التزام بمنهج

التصوف طريقة وسلوكاً. ولكن إذا لم تهتد إلى مرشد فهل تتخلى عن غايتك وهي رضوان الله سبحانه وعين اليقين؟ وهل تستعين بأدعياء الطريقة؟ وما أكثرهم!! وهل تجعل الأعمى دليلك في هذا الطريق الصعب والمخيف؟

الجواب كلا.

وهنا أشير إلى مبحثي الولي والمرشد فأقول:

إن أفضل السبل لتجربة المرشد تفحص مدى تطابق سلوكه الكلي مع الشريعة الإسلامية أولاً، ومدى معرفته بالشريعة وعلومها ثانياً. ذلك أن من لا يطبق الشريعة تماماً لا يجوز اتباعه والجاهل غير قادر على هداية غيره.

قال تعالى ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾.

فيجب على المريد تفحص أعمال هؤلاء المدعين مشايخ طرق، ومتزيين بزيهم وعاكفين في زواياهم تكايا أو خانقاهات فإن تطابق سلوكهم مع الشرع وكانوا علماء فمن الجائز أن يكونوا أئمة مرشدين، وإلا فلا خير فيهم «ما اتخذ الله وليًّا جاهلاً». ومن بلغ درجة الولاية علمه الله سبحانه ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾.

فإذا تصورنا أن مريداً لم يجد من يدله فما الذي يفعل؟

نلجأ إلى القرآن الكريم ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ﴾. فعليه أن يتقي الله في دينه، ويحافظ على ذكره سبحانه وهو كفيل برحمته وهو أرحم الراحمين، وأن العبد الذي يقول بملء قلبه: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ فإن الله هاديه لا محالة ويتحقق ذلك بجهاد النفس ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ﴾. وللعاملين في طريق معرفته وحبه بشرى عظيمة في القرآن الكريم إذ يقول سبحانه ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وفي الحديث القدسي «أنا جليس من ذكرني».

ولا شك أن مداومة العبادة تقرب العابد إلى الله سبحانه. ورد في الحديث القدسي «**لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها**». فالله سبحانه بيَّن لنا طريق القرب منه فقال لنبيه ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ والسجدة هي العبادة بأنواعها، وإن الله سبحانه يستجيب دعاء الداعين ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَـٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ ولكن على المرء أن يكون مستقيماً على طاعته، مراقباً لأعماله، يقظاً لوساوس الشيطان، وحذراً من الانزلاق في مهاوي الغرور والغفلة، مردداً مع عباد الله المهتدين ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾.

وهكذا يتضح أن التصوف يتحقق بإرشاد المرشدين، وبالتمسك بتعاليم القرآن الكريم والسنة المطهرة من التقوى والمجاهدة والذكر والنوافل ودعاء الهداية لعل الله سبحانه يهديه إلى طريق محبته وعبادته وتهجده ليلاً قال تعالى ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾.

وإن طريق التصوف تسليم للشخص الذي يعلم العبد طريق التصوف، ويقال له «المرشد» «الشيخ» «الدليل» وغيرها ويقال للراغب في السلوك «السالك» «المريد» «الصوفي» «درويش».

ولكن كيف نصل إلى الله سبحانه عن طريق المرشد؟

علينا أولاً أن نتحرى عن صفات المرشد فعليه:

١- أن يتطابق سلوكه مع ميزان الشرع.

٢- أن يكون عالماً بالشريعة الإسلامية، ذلك أن الطريقة جوهرها فمن لم يفهم الشريفة فكيف يفهم جوهرها؟

٣- أن يكون عارفاً بمسالك الطريق.

٤- أن يكون قد تخرج على يد مرشد كامل في حلقة متصلة بسيد الكون سيدنا محمد (ﷺ).

٥- أن يكون قد بلغ درجة البقاء بعد الفناء وتنوَّر قلبه بحق اليقين.

٦- أن يكون طبيب القلب خبيراً بمداواة الأمراض المعنوية ويحس به مريدوه جاء في كتاب نعت البدايات وتوصيف النهايات:

«الشيخ من عَلَّمك بقاله وأنهضك بحاله. الشيخ من أفاد الطالب وفتح المطالب. الشيخ من كمل في ذاته وكمل بصفاته. الشيخ من إذا حللت حماه، وجدت به الغنى عما سواه من الناس، الشيخ من يفيدك في الشهادة والغيب ويطهر سرك بسره من العيب».

وعليه يجب أن لا يسلّم المريد نفسه لكل متشيخ ومتصوف فلقد كرم الله الإنسان وأنعم عليه بالعقل وهداه بالرسالات السماوية ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾. «سورة الإسراء».

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ﴾ «سورة إبراهيم».

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ «سورة النحل».

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ «سورة الجاثية». فإذا كان هذا كرامة الإنسان عند ربه فكيف يعقل أن يقبل المذلة والاستكانة أمام شخص آخر مثله؟

فيجب التحري العميق عن المرشد الكامل كي لا يضيع العمر هباءً.

والمريد: من ينشد التصوف باحثاً عن مرشد كامل عارف، وحين يطمئن إليه قلبه ويحس بدفء الإيمان في صدره وبأثر المرشد في قلبه، عليه أن يسلّمه زمام إرادته ويخضع لتطبيق نصحائه ولكن عليه أن لا يغترّ بما يراه من كرامات للشيخ وكشوفات إذ لو خالف عمله الشرع ولو مقدار

شعرة فلا يصلح مرشداً بل يكون قاطع طريق ومن لم يلتزم بالسنة النبوية فهو ليس بمرشد، وكرامته من قبيل استدراج الشيطان وسحرة الهند أو الصُّدفة.

ورد في كتب التصوف أن بايزيد البسطامي ﷺ ذهب لزيارة شخص كان المعروف أنه ولي كامل وعند لقائه رأى أن المرشد يتفل متوجّهاً إلى القبلة فرجع دون السلام عليه قائلاً إن عمله مخالف للسنة فليس بمرشد، فعلى المرشد أن يتقي أكثر من أي إنسان آخر فلا يجوز له قبح الأقوال، والضحك العالي، وجمع المال والكبر والعمل الوضيع، والغيبة ومجاملة البعض على حساب الآخرين دون مراعاة العدل. والحقيقة أن:

١- المرشد الحقيقي هو من يريد الهداية للجميع ويسعى لذلك دون كلل ودون مصلحة ذاتية.

٢- المرشد غير الحقيقي. من يسعى لجمع السذج حوله لتقديم الهدايا والذبائح وهو نوعان:

أ- العالم الظاهري العارف بالتصوف عن طريق المطالعة. ومن الصّعب كشف هذا النوع لأنهم يخفون حقيقتهم، ولكن الميزان الصحيح هو عجزهم عن التصرّف بالقلوب.

ب فئة الجهال لا سيما الذين ورثوا المشيخة عن أجدادهم ولم يكسبوها بأنفسهم.

٣- الفئة المتوسطة التي تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ولكنها لا تبلغ بأحد إلى مرحلة اليقين، فالاستماع إلى نصائحهم مفيد إذا كانوا علماء ولكن لا يفيدون (طلاب اليقين).

ويبقى القرآن الكريم والسنة النبوية معيار تقدير المرشد وصدقه أو كذبه ويمكن أن نشير إلى معيار معقول لتقدير المرشدين في بعض تصرفاتهم، فإذا كان المرشد يطبق نصائحه على نفسه وأقرب الناس إليه

فهو صادق في ارشاده وإلا فلا. قال سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ﴾ «سورة الصف».

وإن ابن نوح وامرأة لوط مثالان يدلان على أن القرابة لا تنفع إذا كان العمل غير صالح.

ومن هذا المجال سمعتم بقصة تطبيق عمر ﷺ لحد الشرع في ولده حتى مات دون أن تأخذه به رأفة في دين الله وهذا هو حق اليقين.

«وإني هنا كاتب لا ناصح واني أحوج إلى من ينصحني ولكن أنقل آراء أهل الذكر جعلني الله منهم وهداني إلى الصراط المستقيم».

وبعد العثور على المرشد الحقيقي فما الذي نفعل؟

من أراد الوصول فعليه التماس الطريق من المرشد كما هو حال أي تلميذ أو طالب صنعة هادفاً إلى واحة اليقين يمشي خطوة فخطوة، مرحلة فمرحلة، يتخطى مخاوف الطريق بفضل مرشده إلى أن يحط رحاله في المنزل المقصود بادئاً بالتوبة، منتهياً بمرحلة البقاء بعد الفناء.

ولكن كيف نصل إلى الله عن طريق التصوف؟

وهل يجوز الإذعان للمرشد؟

وهل يعتبر المرشد واسطة أم سبباً، أم وسيلة؟

وما الذي يستطيع المرشد فعله؟.... إذاً:

على المريد أن يكون أمام مرشده كالميت بين يدي الغاسل.

يتوب على يديه ويُسمَّى «بالتمسك» أي الدخول في حلقة التصوف. وكل سلسلة ترتبط بمرشد كبير وتتصاعد الحلقات إلى أن تصل إلى النبي الكريم محمد (ﷺ) وتسمى «سلسلة الطريقة».

والدرس الأول في النصوص يسمى «تلقين الطريقة». وهو درس يلقيه المرشد بنفسه أو أحد خلفائه وموضوعه التوبة، ثم يُعلِّم الذكر،

وفي النقشبندية يُعلّم علاوة على الذكر «الرابطة» أيضاً أي كيفية العلاقة الروحية مع المرشد.

وبعد ذلك يصبح مريداً.

ومن البيّن أن المرشد الصحيح لا يلقن درسه هذا إلا بعد تأكده من التزام المريد بالواجبات الدينية، لا كما يجري الآن في زماننا.

ومَثَلُ المريد كطالب العلم يتلقى علومه مرحلة بعد مرحلة حتى يصبح طبيباً أو مهندساً أو معلماً.

وقد يختلف مريد عن آخر باختلاف جهاده، أو باختلاف منزلة مرشده وإمكانه في رفع درجات مريديه كما هو حال الفقهاء، فمنهم من يبلغ درجة الاجتهاد المطلق ومنهم من يبلغ درجة أقل.

وفي بعض الأحيان يأخذ المرشد بيد مريده ليوصله إلى أعلى درجة وصلها هو بنفسه وهنالك يعترف له بأن هذا حده وعلى المريد هناك أن يسير دون مرشد، أو ينتقل إلى مرشد أعلى منزلة كما هو الحال في حياة (النقشبند) ونشير إليها. وكذلك في علوم الشريعة قد ينتهي الطالب في مرحلة عند أستاذ معين ثم يرقى إلى مرحلة أخرى أعلى تحتاج إلى أستاذ أعلم والتوبة بمثابة عهدٍ أمامَ المرشد ويسمى «بالبيعة».

وتظهر البيعة الصوفية في أيام الشيخ عبد القادر الگيلاني الذي كان الناس يتوافدون عليه جماعات لمبايعته على التوبة وتشير آيات قرآنية إلى مبايعة الصحابة مع الرسول الأكرم (ﷺ) منها قوله تعالى ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ الفتح ١٩.

وقد ذكرنا أن المرشد هو من تخرج في مدرسة مرشد آخر ووصل إلى مرحلة البقاء بعد الفناء.

أنشد الشاعر الصوفي مولوي قصيدة بعثها إلى مرشده (الشيخ عثمان سراج الدين النقشبندي) قال فيها:

أيها الشيخ الغني في حظ عظيم مستمر في لب الحقيقة الأحمدية. تجاوزت مرحلة الفناء وأنت الآن في قمة جبل البقاء.

وحيث إن المرشد الكامل طبيب يعالج الأمراض المعنوية كالحسد والكبر... فقد وُصِفَ المرشدون «بالحكماء العارفين».

وإن التوجُّه (أي توجه الشيخ نحو مريده لمعالجة ما في قلبه) قد يحصل بين المريد وبين الشيخ من مكان بعيد أيضاً ولا يشترط أن يكون في مجلس واحد فقط. وصورة هذا التوجه:

أن الشيخ يجلس في حلقة الذكر تجاه المريد متوجهاً بقلبه نحو قلبه فيلتقي يساره بيساره غامضاً العينين. يترقب المريد البركة من الشيخ أو خليفته ويحس في هذه الجلسة الروحية، بدفء روحي. وهذا التصرف الروحي بمثابة عملية جراحية يتأثر بها المريد وقد لا يطيق الأثر فيصيح ثم يغمى عليه في بعض الأحوال وإذا كان توجه الشيخ هادفاً لإيصال مريده إلى مقام أعلى يسقط المريد كالسكران ولا يفيق إلا بعد ساعات أو يوم. وقد يضحك فرحاً بما وصل إليه، وقد يرقص أيضاً. ولكن هذه المظاهر قد تمارس تمثيلاً لا حقيقة من قبل أولئك الذين يخدعون البسطاء.

وهل للسبب والوسيلة أساس شرعي في الإسلام؟

نقول: إن لكل شيء سبباً، إنساناً كان أو مصنوع يد إنسان من الآلات والمكائن، فالإنسان يحتاج إلى وسيلة لتحقيق رغباته وهو محتاج إلى معلم وهذا لا يتنافى مع وجوب الاعتقاد بعون الله وإرادته كما أن المريض محتاج إلى طبيب ولا يجوز له أن ينكر هذه الحاجة، فعلينا أن نراجع الطبيب ونلتزم بإرشاداته شريطة أن نعتقد أن الشافي الحقيقي هو الله سبحانه. وما كان تحت قدرتنا البشرية المحدودة فعلناه، وما كان

تحت قدرته الإلهية اللامحدودة وحده دعوناه راجين ولذلك يوصَفُ سبحانه بأنه «مسبّبُ الأسباب».

قال سبحانه في سورة المائدة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾.

وواضح أن الوسيلة هي التقوى والعمل الصالح بدليل قوله تعالى ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ﴾ فعلى المسلم أن يبتغي الوسيلة للوصول إلى مرضاته سبحانه.

وما دمنا نحتاج إلى المعلم في مسائل الفقه فإننا نحتاج إليه في مسائل أعمق وهي دروس تصل بنا إلى عين اليقين ولكن الوسيلة لا تكون مقصودة بالذات وإنما المقصود هو الله سبحانه، ألسنا ساجدين لله سبحانه، ونحن نتوجه إلى الكعبة المشرفة؟ هل نقصد الكعبة ذاتها؟

قال الله سبحانه في قصة ذي القرنين ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِن كُلِّ شَيۡءٖ سَبَبٗا﴾ سورة الكهف، فالسبب والوسيلة لا يضادان منهج القرآن الكريم إن لم يعتقد بأنهما مؤثران حقيقة.

وقد أمر الله سبحانه أن يتقرب المسلم من الصالحين إذ قال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ التوبة.

إن سنة الله سبحانه أن يولَد الإنسان من أبوين فهل ينتظر طفل دون أبوين بحجة أن الله سبحانه هو الخالق؟ ولكن لولا إرادة الله سبحانه لما ولد الطفل، ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾.

وكذلك الموت قال سبحانه ﴿قُلۡ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلۡمَوۡتِ ٱلَّذِي وُكِّلَ بِكُمۡ﴾ السجدة ١١ ولكن لا يجوز القول (بأن الموت بيد ملك الموت).

ومثله طلب الرزق حيث يحتاج إلى سبب ووسيلة مع قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾ الذاريات ٥٨.

وقال سبحانه ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ السجدة (٢٤) فهي إشارة إلى المرشدين العلماء الفقهاء.

ونخلص مما مضى إلى القول بأنه كما أن اللجوء إلى الأسباب والوسائل الظاهرية لتصريف الشؤون الحياتية، وإلى الفقهاء والعلماء لتعلّم الدين والدنيا ضروريان فاللجوء إلى المرشد الكامل للوصول إلى الغاية المطلوبة في المعنويات ضروري كذلك، والمقصود في الحالات جميعها (هو الله سبحانه).

ولن يبلغ المريد مبتغاه ما لم يحقق أدب التوقير في سلوكه مع مرشده. وما يروى عن أبي يزيد البسطامي «**من لا شيخ له فشيخه الشيطان**» معناه أن من يسلك طريق معرفة الله في الشرع أو في التصوف فعليه أن يستعين بمرشد أو معلم وبدونه يكون عرضة لإضلال الشيطان.

ومن الدلائل على أن الصوفي الحقيقي هو الملتزم بتعاليم القرآن والسنة النبوية سرًّا وجهراً أن خلق الصوفي هو خلق القرآن الكريم وهو مسترشد بسيرة الرسول الأعظم سيدنا محمد (ﷺ).

وجاء في القرآن الكريم في الخلق العظيم آيات بينات منها: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾.

وقد أشاد القرآن الكريم بخلقه العظيم ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ الأعراف ١٩٨.

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾.

﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ القصص ٥٥.

قيل لذي النون المصري، وهو أحد كبار المتصوفين: من هو أكثر الناس همًّا فقال: من كان خُلقهُ سيّئاً.

وقال الشيخ محمد بهاء الدين النقشبندي «طريقنا هو الأدب كله»

فالصوفية هم أطهر الناس وأتقاهم، والصوفي من استغرق في محبة ربه ولم يفتر لحظة عن ذكر ربه، ولا يتصور منه إلا الفعل الحسن ذلك أنه تربى في مدرسة الأخلاق الإسلامية وكبح جماح نفسه. نعم إن الفضلاء كثيرون ولكن الصوفية في ذروة الفضل.

قال شاعر صوفي في المقارنة بين سيدنا موسى وسيدنا محمد (ﷺ): رأى محمد ربه، وسمع موسى صوت ربه.

فأين السماع من الرّؤية؟

إن إيمان الصوفي هو إيمان الشهود أما إيمان غيرهم فإيمان استدلالي وقد وصف كبار مشايخ التصوف عبر التاريخ الإسلامي بالفتوة والتواضع وإعانة الناس، والصفات الحميدة ولا يضيرهم ما ينسب إلى المتشيخين وذلك أن ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾.

وهل يصح القول بأن الإسلام غير نافع بحجة أن ناساً مسلمين انحرفوا عن جادته؟ فالمسلمون في واد والإسلام في واد آخر.

إن أرقى درجات التربية هي التربية الروحية القلبية، فإذا كان المنبع صافياً كان الماء صافياً وإذا كان كدراً لا يصفيه شيء. إن المنبع هو القلب والضمير فإذا صفا القلب صفت الأعمال، وهذا هو التصوف الذي يسعى لتطهير القلب من كل قبيح «**إلى الحد الذي يصبح فيه القلب قابلاً ليكون مستقرًّا لنور الله سبحانه**» ومثل هذا القلب المستضيء بنور معرفته سبحانه يكون قلباً رحيماً لا يؤذي أحداً قط.

فانظر إلى العالَم الذي يضمُّ صفوة من أمثال هؤلاء، هل يخاف أحد معهم من السرقة، أو الخيانة، أو الكذب، أو سوء الطوية؟ فالكل أخوة

في دين الله ومستعد لخدمة الإنسان والإنسانية فهذا هو عالَم التصوف. ومن لم يسلك هذا السلوك الحقيقي فليس بصوفي ومن ابتغى إخضاع الناس لإدراته بحجة المشيخة فهو ليس بصوفي أو شيخ أو قطب بل هو مدّع للتصوف ليس إلا، ويطلق المتصوف المدعي على المتزيين بزي المشايخ أو المريدين المقلدين لهم في مظاهرهم، والحقيقة أنهم متظاهرون وممثلون للأدوار.

إن الشريعة هي معيار المصداقية، فقد يظهر البعض مجذوباً ولكنه في الحقيقة متهرب عن العمل متكاسل، والبعض يرفع عن نفسه التكاليف الشرعية مع أنهم ليسوا مجانين يحبسون في المصحات العقلية، وليسوا أصحاء يذهبون إلى ميدان العمل، وليسوا عباداً لله في المساجد، ولكن البسطاء من الناس قد ينسجون لهم حكايات من الكرامات لا أساس لها، فالمتصوف والمتشيخ، هم الناس الذين يهملون تعاليم الشرع، ويخدعون الناس بمظاهرهم.

كيف يبلغ الصوفي مرحلة اليقين؟

لها طريق واحد هو تزكية النفس وتحصل بالإخلاص في عبادته سبحانه وفي ذكره باللسان وبالقلب تحت إرشاد أو بدونه تائباً توبة نصوحاً تجعله مستمرًّا في طاعته ذاكراً الله إلى أن يرضاه سبحانه ومن ﷺ شرح الله صدره بنوره ويصبح القلب بصيراً وحين يفتح الله عين البصيرة في قلب المسلم تزاح الأستار على الأسرار ويشهد الإيمان «عين اليقين».

وكيف يصبح خلق المسلم بعد بلوغه درجة اليقين؟

من اعتقد جازماً بعين اليقين أن الله يراه فلا تبقى ذرة من رياء في عبادته ويتجنب كليًّا كل عمل مخالف لشرع الله إذ لا يقدم عاقل على السرقة وهو يعلم أن صاحب المال يراه.

وحيث إنه لا يغفل عن ذكر الله ولانشراح صدره بهذه البركة

المعنوية فإن سلوكه يتحول إلى سلوك محمدي ملتزماً بشرع الله ولسنة نبيه (ﷺ) إنها درجة لا مقام فوقها سوى مقام النبوة من حازها انتقل من عالم الناسوت إلى عالم الملكوت. «عبدي كن ربانيًّا تقل للشيء كن فيكون». وحين يبلغ هذه الدرجة لا يعبده سبحانه خوفاً من النار أو طمعاً في الجنة ولكن حبًّا لله سبحانه.

ومن البين أن الشيخ عمر ضياء الدين النقشبندي ممن حازوا هذه الدرجات إذ يقول في قصيدة صوفية له:

إني اليوم فقيه مدرسة التوحيد

وفريد دائرة التفريد

سبقت غير في التنزيه

وإني اليوم مصباح قافلة طريق التمجيد

وإني قائد معسكر التجريد.

ويمكن أن يكون المرء صوفيًّا مريداً لمرشد، أو صوفيًّا لا مرشد له، أو صوفيًّا مرشداً دون أن يبلغ هذه الدرجات، فضلاً عن درجات «الغوثية» «القطبية» أو الأبدال والأوتاد، وهذه درجات تشبه ملاكات موظفي الدولة وكل له مسؤوليته في عالم المعنويات.

كيف نطبق تعاليم الشرع ظاهره وباطنه؟

نرى أن من ولد في أسرة مسلمة يسجل مسلماً ومن ولد في أسرة مسيحية سُجّل مسيحيًّا..

لكن من يبلغ (١٥) عاماً يكون أهلاً لتحمل المسؤولية الدينية فمن نفذها كان صالحاً ومن عصاها كان في ضلال مبين.

ومن طبق الشرع ظاهراً أصبح مسلماً ولا يصبح مؤمناً إلا بعد قناعته والقناعة لا تحصل بإكراه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾. ﴿قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ سورة الحجرات ١٤.

وقد يكون المرء مسلماً مؤمناً معاً ولكن تعتريه الوسوسة والرّياء والعُجب فيكون غافلاً عن عبادته.

فإن نوى شخص ارتكاب إثم فإنه لا يحاسَبُ على نيته إذ قد يندم عليه أو لا ينجح فيه ولكن العابد الصوفي (هو من لا ينوي ارتكاب الآثام لأنه طاهر في قلبه وضميره).

قال سبحانه ﴿وَذَرُواْ ظَاهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ﴾ الأنعام ١٢٠.

وقال جل جلاله ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ البقرة ٢٨٤ وقال سبحانه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾.

وقال تعالى ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الأعراف ٣٣

وقال سبحانه ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ الأنعام ١٥١

كلها تؤكد إخلاص القصد والنية وتزكية النفوس من الميول الأثيمة. فإن المرء لا يفيده العمل الشكلي الفارغ من إخلاص القصد وإن أحاسيس القلب والضمير مما يمكن إخفاؤها عن الناس فمن أراد تزكيتها فهو دليل إيمانه.

ومن أهم صفات التصوف، الإيثار. ونشير هنا إلى مجاهدة الشيخ محيي الدين العربي ضد الصليبيين المحتلين والشيخ نجم الدين الكبري مؤسس الطريقة الكبراوية ضدّ المغول.

قيل: إن جنگيز حاصر خوارزم وفاوض الشيخ نجم الدين رئيس الطريقة الكبروية على تركه المقاومة وخروجه من المدينة لقاء العفو عنه وعن آلاف يحددهم الشيخ، ولكن الشيخ الذي كان عمره آنذاك ثمانين

سنة رفض عروضه وقال إننا لسنا بأفضل من غيرنا وقاتل مع المقاتلين دفاعاً عن مدينتهم حتى قتل سنة ٦١٨.

إن علماء التصوف كانوا دوماً أهل إيثار وعلم وأدب، وإن الأدب العالمي شاهد على تفوقهم في الأدب، يحس المرء ببركة كلامهم في الشعر والنثر يطرب أصحاب القلوب الرقيقة عند سماع أدبهم.

[وفي صفحات التاريخ نماذج وأمثلة لما قاموا به من إصلاح بين الناس وكان لأجدادي رحمهم الله دور كبير في إصلاح ذات البين ولولا الظن بأني قد أقصد الافتخار لرويت قصصاً نادرة لخدماتهم في هذا الميدان]

إن سجل عظماء التصوف كنز ثمين في التراث الإسلامي وإن ضياعه خسارة لا تعوض.

«ومن المعلوم أن أئمة المذاهب المعتبرة هم من كبار علماء التصوف أيضاً».

الباب الثالث

مقامات التصوف

١ - التوبة
٢ - الإنابة
٣ - الزهد
٤ - الورع
٥ - القناعة
٦ - الصبر
٧ - الشكر
٨ - التوكل
٩ - التسليم
١٠- الرضا
١١- المحاسبة
١٢- الخوف والرجاء
١٣- الفقر
١٤- الصدق
١٥- المراقبة
١٦- الإحسان
١٧- القرب
١٨- الإخلاص
١٩- الفناء
٢٠- البقاء
٢١- التوحيد
٢٢- التجريد
٢٣- التفريد
٢٤- التنزيه
٢٥- العبودية

مقامات التصوف

ذكر المقام في القرآن الكريم عدة مرات منها قوله تعالى ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ سورة الإسراء ٧٩. وقوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ سورة القمر ٥٤، ٥٥. وفي نفس المعنى ذكرت «درجات» وتعتبر كالمقامات منها قوله تعالى ﴿نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ سورة يوسف ٧٦ وقوله تعالى ﴿لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ سورة الأنفال. وقوله تعالى ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ البقرة ٢٥٣.

ويُفهم من هذا أن درجات القرب منه تتفاوت حتى بين الأنبياء ولكن المقام يطلق في مصطلح التصوف على الدرجة، ينالها السالك في طريق التصوف.

ومنهم من جعل هذه الدرجات عشراً ولكن بعضهم جعل لكل درجة عشر مراحل فالمجموع مائة مقام ودرجة.

ولكل مقام منها معناه الخاص. لا يحس به إلاّ من ناله. ونسترشد في بيانه بالآيات القرآنية الكريمة، وبآراء كبار علماء التصوف فيه ونذكر هذه المقامات.

التوبة، الإنابة، الزهد، القناعة، الورع، الصبر، الشكر، التوكل،

التسليم، الرضا، المحاسبة، الخوف والرجاء، الفقر، الصدق، المراقبة، الإحسان، القرب، الإخلاص، الفناء، البقاء، التوحيد، التجريد، التفريد، التنزيه، العبودية.

وتعتبر التوبة أول مقام للمنقطعين إلى الله سبحانه فمن المناسب أن يكون البدء بها.

١) التوبة:

وهي واجبة على كل مسلم كما قال سبحانه ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ سورة النور. وقال سبحانه أيضاً: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾.

ومعنى النصوح هي التوبة التي تستقر في القلب، وتؤدي إلى تغيير في السلوك نحو الطاعات ومثل الخير. قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

والدليل على أن الأمر هنا للوجوب هو أن الله سبحانه يصف الذين لا يتوبون بأنهم ظالمون قال سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾.

ويصف التائبين بأن الله يحبهم قال تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ﴾.

يروى عن علماء التصوف: إن التوبة هي أصل كل حال ومقام في التصوف فلا يصل مقام أو حال إلا لمن سبقت توبته.

وللتوبة درجات ثلاث أولها التوبة قال سبحانه: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾. وثانيها الإنابة قال تعالى: ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ وثالثها الأوبة قال سبحانه: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

فكل من تاب خوفاً من العذاب وطمعاً في الثواب فهو صاحب توبة، ومن تاب حياءً من ربه فهو صاحب إنابة. ومن تاب إذعاناً وتسليماً لعظمته فهو أوّاب.

قال ذو النون المصري[1]: توبة العوام من الذنوب وتوبة الخواص من الغفلة. قال عبدالله التميمي: شتان بين تائب يتوب عن اللذات وتائب يتوب من الغفلات وتائب يتوب من رؤية الحسنات. «أي حسناته هو».

قال سهل بن عبدالله: التوبة أن لا تنسى ذنبك.

قال الشيخ جنيد البغدادي: التوبة أن ينسى ذنبه.

وكل واحد منهما يشير إلى حال، فسهل أشار إلى أحوال المريدين وأما جنيد البغدادي فأشار إلى توبة المحققين. لا يذكرون ذنوبهم بما غلب على قلوبهم دوام ذكره سبحانه.

ويروى عن الشيخ رويم بن أحمد أنه كان يقول:

«عليك التوبة من التوبة».

ويؤول هذا القول بأنه يفيد أن التائب عليه أن يستغرق في العبادة لا أن يشغل فكره وقلبه بتوبته وينسى ذكر ربه.

ونقول: إن التوبة حد فاصل وسد منيع بين سلوك التائب قبل توبته وبين سلوكه بعد توبته. وذكر البعض شروطاً لها وهي:

الندم على ما عمل من المخالفات وترك الزلة في الحال، والعزم على أن لا يعود إلى مثل ما عمل، وتطبيق تعاليم الشرع.

قال شيخ الإسلام عبدالله الأنصاري الهروي [٣٩٦ - ٤٨١هـ] في كتابه منازل السائرين «ولا يتم مقام التوبة إلا بالانتهاء إلى التوبة مما دون الحق ثم رؤية علة تلك التوبة، ثم التوبة من رؤية تلك العلة».

ومعنى ذلك أن مقام التوبة يتحقق لمن ينسى كل شيء إلا الله سبحانه فليست التوبة انقطاعاً عن السيئات، واتصالاً بالحسنات فحسب بل تكون في النهاية كما ذكرنا.

(١) الرسالة القشيرية.

قال ابن القيّم الجوزية (٦٩١ - ٧٥١هـ) تعليقاً على هذا المقام[1]:

«والذي ساقهم إلى ذلك سلوك وادي الفناء في الشهود فلا يشهد مع الحق سبباً ولا وسيلة ولا رسماً البتة». ثم قال «ونحن لا ننكر ذوق هذا المقام وأن السالك ينتهي إليه ويجد له حلاوة ووجداً ولذة لا يجدها لغيره البتة، وإنما يطالب أربابه والمشمرون إليه بأمر وراءه وهو أن هذا هو الكمال وهو أكمل من حال من شهد أفعاله ورآها ورأى تفاصيلها مشاهداً لها صادرة عنه بمشيئة الله وإرادته ومعونته فشهد عبوديته مع شهود معبوده ولم يغب في شهود العبودية عن المعبود ولا بشهود المعبود عن العبودية فكلاهما ناقص. والكمال أن تشهد العبودية حاصلة بمنة المعبود وفضله ومشيئته، فيجتمع لك الشهودان فإن غبت بأحدهما عن الآخر فالمقام مقام توبة وهل الغيبة عن العبودية إلا هضم لها...؟».

وهذا معنى فكرة التوبة عن التوبة، أي فناء العبد في ذات الحق والبقاء للحق وحده. وإن ما جعل الصوفية تسلك هذا الطريق أمل الوصول إلى الشهود ورؤية الحق بعين البصيرة والقلب وذلك يشهد مع الحق سبيلاً ولا يحتاج إلى دليل لأنه وصل إلى المدلول ولا يحتاج إلى الوسيلة لأنها محتاجة قبل الشهود وعين اليقين. ثم قال «إن السالكين لا يقفون عند هذا الحد ولا يهدأ بالهم عنده بل يستشرفون أفقاً أعلى وهو الكمال في معرفة الله سبحانه وهو أعلى منزلة. ويتحقق الكمال إذا شهد العبودية حاصلة بمنه وفضله سبحانه قال تعالى ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَـٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَـٰنِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ «الحجرات»، وقال سبحانه ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾.

وإذا وصل حُبّ العبد لربّه حدًّا أنساه نفسه ولا يذكر فيه إلا ربَّه فقد وصل مقام التوبة.

---

(١) مدارج السالكين شرح منازل السائرين ص٢٨٧.

٢) الإنابة:

ذكر الشيخ عبدالله الدهلوي في كتابه (إيضاح الطريق): إن الإنابة هي المقام الثاني بعد مقام التوبة. ولم يعتبرها من المقامات بعضهم.

والإنابة[١] هي الرجوع من الغفلة إلى الذكر. وقيل أيضاً هي الرجوع إلى الله من كل شيء. والمنيب هو من يكن له مرجع سواه فيرجع إليه.

وفي لغة الناس «فلان راجع» ومعناه أنه رجع من سيئاته إلى فعل الحسن، ومن المخلوق إلى الخالق، وهذا الرجوع في التصوف يتحقق فيما إذا نسي التائب الراجع نفسه واستغرق في ذكر ربه.

وتقسم إنابة العبد إلى ثلاثة أنواع:

إنابة النفس وهي أن يخصصها لطاعة الله وإنابة بالقلب وهي تخليته عما سواه، وإنابة بالروح وهي دوام الذكر حتى لا يذكر غيره ولا يتكفأ إلا به.

قال الشيخ عمر السهروردي (٥٣٩ - ٦٣٢هـ):

«المنيب الراجع عن كل شيء يشغله عن الله إلى الله.. والمنيب من لم يكن له مرجع سواه».

وقال أيضاً: «إن الإنابة لا تصح إلا لمن حقق مقام التوبة ولا تستقيم التوبة إلا بصدق المجاهدة ولا يصدق العبد في المجاهدة إلا بوجود الصبر».

أما الشيخ عبدالله الهروي فيستشهد بالآية الكريمة ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ الزمر ٥٤. ويقول الإنابة ثلاثة أشياء:

---

(١) انظر معجم مصطلحات الصوفية ص٢٥ - ٢٦.

- الرجوع إلى الله من أجل سلوك الخير والندم على ما بدر منه.
- الرجوع إلى الله وفاء لربوبيته والاستقامة على هذا الوفاء.
- رجوع قلبي إلى الله استجابةً لأمره تعالى «وأنيبوا».

٣) الزهد:

وردت هذه الكلمة مرة واحدة في القرآن الكريم وهي في سورة يوسف قال تعالى ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾. وهي غير الزهد المقصود من مقامات التصوف.

والزهد هو الرضا بالقليل والقناعة بالموجود ويعني العزوف عن مفاتن الدنيا من المال والجاه. وهو من صفات السالك الصوفي.

والزهد بهذا المعنى لا يختص بالإسلام فقد كان بين العرب زاهدون قبل الإسلام إذ نجد زهاداً من أمثال ورقة بن نوفل وسطيح وقس بن ساعدة ومن أتباع الديانات الأخرى ومن الأحناف من العرب الذين اتبعوا تعاليم إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

وعرف بعض أصحاب الرسول الكريم (ﷺ) بالزهد، منهم بلال، وأبو ذر وسلمان وأصحاب الصفة.

وحث عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ سورة فاطر الآية ٥.

﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت ٦٤).

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ سورة الكهف ٤٦.

وردت آيات عديدة وأحاديث صحيحة تحثّ على الزهد.

ولا يعني الزهد الكسل والبطالة بل يعني القناعة بالقليل والاكتفاء بالحلال والعزوف عن الحرام.

وعُرف بعض العلماء المسلمين بالزهد مثل «الشيخ الحسن البصري» «ت١١٠هـ» والشيخ إبراهيم الادهم ت١٦١ والشيخ داود الطائي (ت١٦٥) وفضيل بن عياض (ت١٨٧) وشقيق البلخي (ت١٩٤) وكثيرين من غيرهم.

قال النبي (ﷺ) اِزْهَدْ في الدنيا يحبك الله وازهد ما في أيدي الناس يحبوك. رواه ابن ماجة.

قال الإمام علي «الزهد أن لا تباليَ مَنْ أكل الدنيا من مؤمن أو كافر».

قال الجنيد البغدادي «الزهد استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب».

قال أبو سليمان الداراني: الزهد ترك ما يشغل عن الله.

قل السري السقطي: لا يطيب عيش الزاهد إذا اشتغل عن نفسه ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه.

قال يحيى بن معاذ: لا يبلغ أحد حقيقة الزهد حتى يكون فيه ثلاث خصال: عمل بلا علاقة، وقول بلا طمع، وعِزّ بلا رياسة.

قال بشر الحافي: الزهد مُلُك لا يسكن إلا في قلب مخلى.

قال السقطي: الزهد أن لا تأخذ من أحد شيئاً، ولا تسل أحداً شيئاً، ولا يكن معك وتعطي منه أحداً شيئاً.

قال جنيد البغدادي أيضاً: الزهد خلو الأيدي من الأملاك والقلوب من التتبّع. وفي الزهد أقوال لا يتسع لها إلا كتّاب مستقل.

وقال الإمام الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين:

إن المرء الذي يكره الدنيا فإنه يفكّر في هذه الكراهية. أما الذي يحب الدنيا فإن قلبه متعلق بهذا الحب. والزهد أن يكون فكرك فيه سبحانه. (وهذا من قبيل التوبة عن التوبة).

ويتوضح لنا مما سبق أن الزهد هو تطهير القلب عن التعلق بالدنيا ومفاتنها من المال والجاه لأن القلب عند الصوفية محل حب الله وحده. ومن أراد أن يستقر نوره في قلبه فعليه أن يبعد عنه ما سواه[1].

وليس معنى ذلك أن الكسب حرام، بل لك أن تكسب المال الحلال دون أن تربط قلبك به أو تشعر بالمذلة بسبب الفقر فالفقر أحد درجات الزهد والزهد أحد مقامات التصوف بعد التوبة.

قال ابن عجيبة وهو أحد كبار علماء التصوف:

زهد المسلمين هو الاكتفاء بما يسد الرمق أما زهد الصالحين عنهم فهو الابتعاد عن كل شيء يبعدك عن الله أما زهد العارفين فهو إخراج ما سوى الله من قلبك. وذكره سبحانه ليلاً ونهاراً دون غفلة. ومثل هذا الزهد يوصل العبد إلى مراده.

٤) الورع:

وهو التجنب عن كل معصية والتحقق في الحرام والحلال لا للتوقي من الحرام فقط بل للتوقي من كل أمر فيه شَبَه الحرام.

ولا يقتصر ميدانه على أمور المعيشة بل يشمل التدخل فيما لا يعنيه أو الإفتاء دون فقه أو علم.

---

(١) انظر عوارف المعارف للسهروردي. وقوت القلوب لأبي طالب المكي، والرسالة القشيرية في موضوع الزهد.

وفي الحديث النبوي الصحيح: من حُسْنِ إسلام المرء تركه ما لا يعنيه.

ملاك دينكم الورع[1].

كن ورعاً تكن أعبد الناس[2].

دع ما يريبك إلى ما لا يريبك.

قال أبو بكر الصديق: كنا ندع سبعين باباً من الحلال مخافة أن نقع في باب من الحرام[3].

جاء في التعريفات للجرجاني[4]:

الورع ترك الشبهات مخافة الوقوع في الحرام.

وقيل: الورع هو أن لا يتكلم العبد إلا بالحق غضب أو رضي، وأن يكون اهتمامه بما يرضي الله وإن أهل الورع على ثلاث طبقات: منهم من تورع عن الشبهات وهي ما بين الحلال البين والحرام البين. ومنهم من يتورع عما يقف عنه قلبه ويحيك في صدره عند تناولها، وهذا لا يعرفه إلا أرباب القلوب والمتحققون. وأما الطبقة الثالثة في الورع فهم: العارفون والواجدون.

قال إبراهيم الأدهم: الورع ترك الشبهات وكل ما لا يعنيك.

قال الشيخ معروف الكرخي: احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم[5].

وفي الحديث النبوي الصحيح «إن الحلال بين وإن الحرام بين

---

(١) اللمع ص٧٠.

(٢) القشيرية ص٥٣.

(٣) القشيرية ص٥٣.

(٤) انظر معجم مصطلحات الصوفية ص٢٦٦.

(٥) القشيرية ص٥٤.

وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه. ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه إلا أن لكل مَلِكٍ حمى إلا وأن حمى الله محارمه» صحيح البخاري.

قال سفيان الثوري: ليس شيء أسهل من الورع وهو أن تترك كل أمر تتردد فيه.

واتضح مما سبق: إن الورع الصوفي مستمد من السنة النبوية الصحيحة. يستقيم عليه رجال التصوف حتى يصبح خُلقاً راسخاً في سلوكهم ومقاماً من مقاماتهم. وقد يبلغ بهم الورع حدًّا يتسترون به على كراماتهم وكشوفاتهم الروحية مخافة تسلل الغرور الشيطاني إلى داخل ذواتهم. وهذا هو المقصود بقولهم «لا كرامة إلاّ لحكمة». أي لا يجوز إظهار الكرامة إلاّ لحكمة.

قال أبو طالب المكي:

قال بعض الصوفية: من أحبّ أن يعرف ورعه غير الله سبحانه فليس من الله في شيء.

٥) القناعة:

وهي الاكتفاء بالقوت الضروري، والاختصار على ما لا بد منه من الملبوس والمفروش والمأكول، وإيثار القليل على الكثير. قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ يوماً: يا أبا هريرة إذا اشتد بك الجوع فعليك برغيف وكوز من ماء وعلى الدنيا الدمار[١]. روي عن النبي ﷺ أنه قال: القناعة كنز لا يفنى.

قال أبو عبدالله بن خفيف: القناعة ترك التشوف إلى المفقود

---

(١) معجم مصطلحات الصوفية ص٢١٩.

والاستغناء بالموجود. وقال محمد بن علي الترمذي: القناعة رضا النفس بما قسم لها من الرزق[1] والقناعة ليست بمقام مستقل عند بعضهم بل هي مقدمة لمقام الرضا كما أن الورع مقدمة لمقام الزهد.

وقالوا: إن القناعة نقيض الحرص. والحرص هو التهالك على جمع المال من كل وعاء ليلاً ونهاراً والقناعة هي الاستغناء بما منح الله والعمل بما يَسَّر الله لاستقامة الحياة.

ومن لم يكن قانعاً بما لديه، لم يتبع سنة النبي (ﷺ) ومن لم يتبع السنة النبوية لا يبلغ مقام الولاية.

والقناعة إراحة للنفس: إذا ملكها المرء ارتاح في الدنيا من أول خطوة ولم ينظر إلى ما عند الناس مهما ملك وملكوا. وإن لم يملكها المرء أتعبته الهموم، حتى يموت ويترك كل شيء ولذلك قيل: «فقير كلّ ذي حرص، غني كلّ من يقنع».

٦) الصبر:

وهو الرضا بمكاره الدنيا ومصائبها وحبس النفس عن الشكوى منها. وليس من السّهل أن يرضى المرء بالبلوى في حال الابتلاء وأن يقول «ما جاء من الله فهو خير». ولكن رجال التصوف يتجاوزون هذا المعنى فلا يفرقون بين البلاء والنعمة وكلاهما من الله سبحانه فيستقبلونهما بنفس القدر من طيب النفس ويشكرون الله سبحانه على كل نعمة صغيرة أو كبيرة وقد مدح الله الصابرين وذكرهم في كتابه الكريم فقال: إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب.

أولئك يؤتون أجرهم مرَّتين بما صبروا.

واصبر إن الله مع الصابرين.

---

(١) القشيرية ص٧٥.

﴿وَٱلۡعَصۡرِ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾.

وكثيراً ما يأتي الصبر والتقوى معاً في القرآن الكريم».

﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾

﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾.

وعظمة مقام الصبر تعود إلى أنه لله وحده لا لغيره كما أنّه تحمّلٌ للمكاره. ومعظم رجال التصوف الكبار يرون أن مقام الصبر أعلى من مقام الشكر ذلك أن الصبر حال البلاء أما الشكر فهي حال النعمة ولا شك أن تحمّل المكاره أشد من تحقيق الشكر مقابل النعم، ولذا قال سبحانه وتعالى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡتَوۡنَ أَجۡرَهُم مَّرَّتَيۡنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾ ولم ترق درجة الشكر إلى حد (مرتين). وكذلك قال سبحانه ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾.

ونرى في الناحية الثانية أن الله سبحانه وتعالى يشرك عباده من الوالدين في الشكر فقال ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾ أما بالنسبة للصبر فقال ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾.

ومن دلائل عظمة مقام الصبر أنه مقام أولي العزم من الرسل قال سبحانه وتعالى ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾.

وفي أكثر من تسعين موضعاً في القرآن الكريم يأتي وصف الصابرين وخُلق الصبر تعليماً لعباده وسلوكاً لهم يروي عطاء عن ابن عباس أنه قال: مرَّ الرّسول ﷺ بجماعة من أصحابه كان من بينهم عمر ﷺ فقال لهم:

هل أنتم مؤمنون حقًّا؟

قال عمر: نعم يا رسول الله.

قال (ﷺ): ما هي علامة ذلك؟

قال عمر: نشكر الله على النِّعم، ونصبر على البلاء، ونرضى بقضاء الله وقدره.

قال رسول الله ﷺ:

والله إنكم مؤمنون حقًّا.

قال أبو طالب المكي في قوت القلوب «ص٤٠٧ ج١».

«وقد يكون الصبر والشكر حالين وقد يكونان مقامين: فمن كان مقامه الصبر كان حاله الشكر عليه فهو أفضل لأنه صاحب مقام ومن كان مقامه الشكر كان حاله الصبر عليه فحاله مزيد لمقامه، فقد صار الصبر مزيداً للشاكر في مقامه» ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وقال أبو طالب المكي أيضاً «الصابر العارف أفضل من الشاكر العارف لأن الصبر حال الفقر والشكر حال الغنى فمن فضل الشكر على الصبر في المعنى فكأنه قد فضل الغنى على الفقر وليس هذا مذهب أحد من القدماء.

ولا شك أن كبار رجال التصوف يجوزون هذا المقام الكبير فلا تهزهم نكبات الدنيا وإن صعبت، ولا تُضعف إرادتهم مغريات الحياة إذ أصبح الصبر خلقاً دائماً وملكةً لهم فلا يتغيرون بتغيرات أحوال الدنيا.

قال ذو النون المصري: الصبر هو التباعد عن المخالفات والسكون عند تجرع غصص البلية وإظهار الغنى عند حلول الفقر بساحة المعيشة. وقال الجرجاني في شرح رياض الصالحين «الصبر هو ترك الشكوى من ألم البلوى لغير الله».

٧) الشكر:

إظهار الرضا بِنِعَمِه سبحانه وجريان اللسان بالذكر والثناء عليه سبحانه والشكر مقام آخر من مقامات التصوف. وهذه المقامات هي

مستمدة من آيات الله سبحانه أو من السنة المطهرة وهي معالم لسلوك المؤمنين. ولكنها ترقى إلى منزلة خاصة في التصوف بحيث تصبح هذه الأوصاف والمقامات سجايا وأخلاقاً وملكات دائمة يتمتع بها قلب الصوفي المؤمن.

وقد جاءت آيات كريمة في حق الشكر ووصف الله سبحانه نفسه بالشاكر مقابل الأعمال الصالحة لعباده فقال تعالى ﴿وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة ١٥٨) وفي سورة النساء ١٤٧ قال تعالى ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ وطلب سبحانه من عباده شكره فقال ﴿ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ سبأ ١٣ وقال ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ وقد خص سبحانه وتعالى الشاكرين بجزاء وفير فقال ﴿وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ وقال سبحانه ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ سورة إبراهيم وقال سبحانه ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ القمر. ثم يخبرنا سبحانه بأن النعم كلها لطف من الله سبحانه لا سيما نعمة الإيمان والإسلام فيقول سبحانه ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ الحجرات٧. وهذه نعمة كبيرة قال سبحانه ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ ثم قال سبحانه.

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾.

قال سبحانه ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ النور ٢١ وقال أيضاً ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ سورة النحل ٥٣

وفي سورة والضحى ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾

فعليك الاعتراف بنعم الله عليك وشكره سبحانه عليها لا أن تولّي وجهك، وتخرس لسانك وقد أمر الله سبحانه بحمده وشكره على نِعَمه ومَدَحَ الشاكرين من عباده قال سبحانه في حق سيدنا إبراهيم في سورة

النحل ١٢٠ - ١٢١ ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ وقال في حق نوح ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

فما هو الشكر لغة؟ وما هو الشكر في مصطلح الصوفية؟

الشكر لغة: الثناء على الجميل «عرفان الجميل».

الشكر عند الصوفية له معنى أعمق وهو، شكر اللسان وشكر الأركان وشكر الجنان. ولكل نعمة شكر خاص عند المتصوفين وليس الشكر عندهم مجرد القول «أشكرك يا رب» فشكر اللسان، هو أن نذكر الله به وأن لا تقول إلا الخير، وشكر الأركان هو أن تستعملها لكسب الحلال ولعبادة الله سبحانه ولا تخطو بها خطوة إلى ما نهى الله عنه.

وشكر الجنان أن تذكر الله بقلبك وأن لا يكون فيه غيره سبحانه، وكذلك شكر المال هو صرفه في طريقه سبحانه.

يقول أهل التصوف: إن الكلمة الأولى في القرآن الكريم هي الحمد لله ليعلمنا كيف نحمده سبحانه ونثني عليه بصفاته ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ * مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾.

ومن أفضل النعم عند العلماء نعمة الإسلام ذلك أنه هداية من الله سبحانه ولطف منه.

وكذلك يرى أعلام التصوف أن الشكر نفسه يحتاج إلي شكر، ذلك أن الشكر يستوجب الخير والبركة ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ وفي هذا خير ونعمة تستحق الشكر.

وروي «أن أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله».

قال القشيري: شكر البدن هو استخدام الجوارح في سبيل رضوانه وحده سبحانه، واستغراق القلب في ذكر الله سبحانه وحده، واستخدام اللسان في الحمد والثناء له سبحانه وحده وصرف المال في سبيل الخير ومصالح المسلمين.

قال أبو طالب المكي: الشكر هو الاعتراف بأن النعم كلها من الله سبحانه ويقول أبو عثمان وهو من أعلام التصوف:

شكر العامة على المطعم والملبس، وشكر الخواص على ما يَرِدُ على قلوبهم من المعاني.

٨) التوكل

وهو مقام آخر من مقامات التصوف يحتل منزلة كبيرة خاصة عندهم. سُئل إبراهيم الخواص وهو أحد أعلام التصوف:

إلى أي شيء قادك التصوف؟

فقال: إلى التوكل.

والتوكل هو تفويض الأمر إلى شخص، والمقصود هنا هو أن يصل المرء بعبادته وحُبّه لربه ومعرفته له سبحانه إلى قناعة تجعله يُسلّم أمره في دينه ودنياه لربه فلا يعتمد إلا عليه. ومعلوم أن المرء لا يصل بسهولة إلى هذه القناعة التي تجعله أمام ربه كالميت بين يدي الغاسل أو كالمريض بين يدي طبيبه.

قال سبحانه ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ سورة الطلاق ٣ وقد بيّن الله سبحانه أن التوكل من صفات المؤمنين فقال في محكم كتابه العزيز ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ سورة المائدة ٢٣.

ومن ثمرة التوكل أن المرء المتوكل يكون حبيب الله سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ سورة آل عمران ١٥٩.

ولكن ما هو التوكل؟

هل يعني التوكل العزوف عن مباشرة الأسباب كأن يمتنع عن مراجعة الطبيب مثلاً اعتماداً على الله وحده في الشفاء؟

كلا، ليس في الإسلام كتاب أو سنة أو سيرة للسلف يقرّ ذلك المعنى للتوكل، فإذا مرض المسلم فعليه البحث عن الأسباب لشفائه وهي الطبيب والدواء، ولكنه يجب أن يؤمن بأن الشفاء بيد الله سبحانه لا بيد الطبيب، وكذلك يعمل المسلم في مزرعته ولكنه يؤمن بأن الرازق هو الله سبحانه. فإذا استقر في قلبك مثل هذا الإيمان سلَّمت أمرك بيده متوكلاً عليه سبحانه فلا تيأس لمعضلة نزلت ولا تغترَّ بمكاسب حصلت. كثيراً ما نقول: بسم الله، توكلت على الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله. فإن تأمَّلنا في معانيها، وصدقنا بما فيها فإنه يكفي لنكون عارفين مؤمنين ومن أهل التصوف. إن كلمة «بسم الله» تعني أني أبدأ عملي بسم الله ويتضمن اعترافاً بعبوديته وإقراراً بربوبيّة خالقه وكذلك «توكلت على الله» «ولا حول ولا قوة إلا بالله».

وقد عد بعض العارفين للتوكل ثلاث مراتب:

فالأولى وهي أدناها: إن تكون مع الله كالموكل مع الوكيل الشفيق الملاطف والثانية وهي أوسطها: إن تكون مع الله كالطفل مع أمه لا يرجع في جميع أموره إلا إليها.

والثالثة وهي أعلاها: إن تكون مع الله تعالى كالمريض بين يدي الطبيب.

فالتوكل عبارة عن الأخذ بالأسباب مع الاقتناع بأنها لا تضر ولا تنفع إلا بإذنه سبحانه.

وقال العارف بالله ابن عجيبة ﷺ «التوكل ثقة القلب بالله حتى لا يعتمد على شيء سواه، أو التعلق بالله والتعويل عليه في كل شيء علماً بأنه عالم بكل شيء وأن تكون في يد الله أوثق منك بما في يدك».

وقال القشيري رحمه الله «التوكل محله القلب والحركة بالظاهر لا تنافي

التوكل بالقلب بعد ما تحقق العبد إن التقدير من قبل الله تعالى وإن تعسَّر شيء فبتقديره وإن اتفق شيء فبتيسيره».

وقد روى الترمذي أنه جاء إلى رسول الله على ناقة له فقال: يا رسول الله أأرسل ناقتي وأتوكل؟ فقال ﷺ: «اعقلها وتوكل».

قال القشيري: التوكل هو الثقة بما عند الله واليأس عما في أيدي الناس.

وقال أبو علي الدقاق: التوكل ثلاث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض والتوكل صفة المؤمنين والتسليم صفة الأولياء، والتفويض صفة الموحّدين.

وقال سهل بن عبدالله: على المتوكل ثلاثة واجبات: إن لا يطلب شيئاً من أحد ولا يمتنع عن قبول شيء من أحد وأن لا يُبقي شيئاً لغده.

وباختصار أقول: إن ثمرة التوكل هي الطمأنينة والسعادة حيث يؤمن المتوكل بأن الله سبحانه مطلع على حاله وهو الرازق الشافي وهو أرحم الراحمين، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن لذا يلجأ إلى الأسباب دون أن يعتقد بأنها المؤثرة الحقيقية، فالله هو خالق الأسباب. فالتوكل مبعث السعادة والرضا والشجاعة والرجولة فلا يخضع لأحد خضوع المذلة والاستكانة ولا يستعين إلا بربّه. ومع أنه يأخذ بالأسباب في الظاهر إلا أن قلبه متعلق بربه وحده. ولا يطلب شيئاً لنفسه من ربه لأنه يؤمن بأن الله مطلع على حاله.

وأود أن استشهد ببيتين من قصيدة لي هما من قطوف هذه الثمرة لأختم بهما موضوع التوكل، وترجمتهما:

في لطفك أطمع لا في الكنز والدرر

سـيّـان فـي لـطـفـك أن أكـون فـي الـفـقـر أو الـخـيـر
مـا الـذي أطـلـب إن لـم أتـبـيّـنْ مـا هـو الأفـضـل؟

فليكن لي «ربي» ما هو الأحسن، وأكون كذلك ربّي.

٩) التسليم:

وهو الانقياد لأمر الله تعالى، وترك الاعتراض فيما لا يلائم، وقيل هو الثبات عند نزول البلاء من غير تغيير في الظاهر والباطن.

قال سبحانه وتعالى ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا﴾ سورة الأحزاب ٢٢.

فالتسليم يأتي بعد الإيمان ويعني أن تُسلّم نفسك لمن تؤمن به. ومَثَله كمن يقتنع بحذاقة طبيب فيسلم نفسه إليه حتى إذا أخذ مبضعه وشق بطنه بعد تخديره فلا ينطق بشكوى ضدّه في حالة مرضه بل يشكره على حسن صنيعه.

قال السري السقطي: ثلاثة يتبين بهن اليقين: القيام بالحق في مواطن المهلكة، والتسليم لأمر الله عند نزول البلاء، والرضا بالقضاء عند زوال النعمة.

وربط صاحب قوت القلوب[١] بين التوكل والتسليم وللتوكل عنده ثلاث درجات: أعلاها من توكل عليه للإجلال والتعظيم، وأوسطها من توكل عليه للمحبة والخوف، وأدناها من توكل عليه تسليماً له وتحبباً إليه. وقال: قد يكون الخيرة فيما لا يعلم العبد وقد يكون فيما يكره مما يعلم الله سبحانه حسن عاقبته، فعليه التسليم لحكم الحاكم والرضا بقسم القاسم. قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟

(١) قوت القلوب ج٢ ص٧٣.

شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ سورة البقرة.

وهو مقام أدخله أبو طالب المكي في مقام التوكل وكذلك الشيخ أبو نصر السراج. أما الشيخ أحمد الفاروقي المعروف بالمجدد للألف الثاني (٩٧١ - ١٠٣٤) في مكتوباته والشيخ عبدالله الدهلوي[1] مرشد مولانا خالد النقشبندي، فيذكرون عشر مقامات منها التسليم، وكذلك الملا حامد البيساراني (١٢٢٥ - ١٣١٠). وجاء في كتاب القدسية للشيخ محمد بهاء الدين البخاري الملقب بالنقشبند: إن التسليم هو أدب الصوفي مع مرشده قبل كل شيء بمعنى أن يسلم أمره بيد مرشده حتى يتعلم طريقه ثم يبلغ مقام التسليم لربه، وحينذاك ينال مقام العبادة والتسليم.

١٠) الرضا:

قال صاحب اللمع: إن الرضا مقام شريف.

قال القشيري في كتابه الرسالة القشيرية:

وقد اختلف العراقيون والخراسانيون في الرضا هل هو من الأحوال أو من المقامات فأهل خراسان قالوا الرضا من جملة المقامات وهو نهاية التوكل ومعناه أنه يؤول إلى أنه مما يتوصل إليه العبد باكتسابه وأما العراقيون فإنهم قالوا الرضا من جملة الأحوال وليس ذلك كسباً للعبد بل هو نازلة تحل بالقلب كسائر الأحوال. ويمكن الجمع بين اللسانين فيقال بداية الرضا مكتسبة للعبد وهي من المقامات ونهايته من جملة الأحوال وليست بمكتسبة.

وباختصار أقول: الرضا هو السرور ورضا القلب بما يحصل

(١) إيضاح الطريق.

ورضوان الله هو الرضا من عمل عبده فيحل النور في قلبه وتنزل البركات عليه، أما رضا العبد فهو السكون والاطمئنان بما يصيبه.

وليس في هذا ما يخالف الشرع، فإن الله سبحانه يجازي عباده بقوله ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ المائدة ١١٩ ومعنى ذلك أن هذا العابد المؤمن فاز بمقام الرضا وهو فوز عظيم.

ومع أن هذا الجزاء في الجنة إلا أنه من عمل الدنيا.

وقال سبحانه وتعالى ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ البقرة ٢٠٧ وكل ذلك لتحقيق رضوان الله سبحانه.

والرضا هو أن يكون قلب العبد ساكناً تحت حكم الله ﷻ[١]. سئل الجنيد رَحِمَهُ الله عن الرضا فقال: الرضا رفع الاختيار.

وقال القناد رَحِمَهُ الله: الرضا سكون القلب بمُرّ القضاء.

وجاء في الرسالة القشيرية أن الرضا إخراج الكراهية من القلب حتى لا يكون فيه إلاّ فرحٌ وسرور.

وقال ابن خفيف: الرضا سكون القلب إلى أحكامه وموافقة القلب بما رضي الله به واختاره.

وقال ابن عطاء رَحِمَهُ الله: الرضا نظر القلب إلى قديم اختيار الله تعالى للعبد؛ لأنه يعلم أنه اختار له الأفضل فيرضى به ويترك السخط.

وقال تعالى ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ وقال أيضاً ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾ النساء ١٩.

ولذلك نرى أن مقام الرضا من المقامات القلبية العالية فإذا ما

(١) اللمع ص٨٠.

ارتاض الجسد والروح بالعبادات وتطهر القلب من الكدورات النفسية والجسدية يتزين قلبه بالخصال الحميدة فيجلس في مقام الرضا راضياً مطمئنًّا.

وعند معظم أعلام التصوف كالسراج والقشيري والسهروردي البغدادي إن مقام الرضا آخر درجات المقامات لذا ينتهون عندها في مباحثهم وينتقلون بعدها إلى مباحث الأحوال. وهم يقولون: إن مقام الرضا أكبر من مقام الصبر ذلك أن المرء عندما يبلغ مقام الرضا يستقبل كل مكروه بالسرور ويعتبره خيراً أتاه من ربه، حتى الموت، ألا ترى أن بلالاً الحبشي ﵁ ضحك عند استقبال الموت وقال: سألقى حبيبي محمداً ﷺ وكل الأحباب في الجنة.

وقد نصح الرسول (ﷺ) أصحابه مرات بالرضا بقضاء الله.

قال أبو علي الدقاق: ليس الرضا أن لا تحس بالبلاء، إنما الرضا أن لا تعترض على حكم القضاء.

والحقيقة أن مَنْ مَلَكَ حب الله شغاف قلبه كيف لا يرضى بما قضاه الله وقدره.

وهذا لا يعني أن العبد لا يعمل أو لا يرجو ربه داعياً إبعاد البلاء عنه فالله سبحانه قال: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ سورة غافر ٦٠.

وقال: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾ الملك ١٥.

فلك الحق أن تدعو ربك لينزل رحمته عليك ويبعد المصيبة في طريقك، ولك الحق في أن تكسب وتكد وتعمل في حدود الشرع، ولك الحق في الدفاع عن كسبك وعن عرضك.

وإن حياة الرسول العظيم ﷺ هي المثال والأُسوة الحسنة لنا في كل عمل وكل سلوك فقد جاهد لنشر رسالة الإسلام حتى رُمي بالحجارة في الطائف وأُدميت رجله الشريفة وقد توفي أولاده القاسم وإبراهيم واستُشهد عمّه حمزة بيد المشركين، ومع ذلك كان يقول ﷺ في دعائه إن لم تكن ساخطاً عليَّ فلا أبالي.

وأقول إن الرضا من أكبر مقامات التصوف وهو مقام صاحب الولاية الكبرى وآخر درجات النفس المطهرة ومعلوم أن النفس تكون لوامة ثم مُلهَمَة ثم مطمئنّة ثم راضية وفي الأخيرة مرضية.

قال تعالى ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾ «سورة الفجر».

١١) المحاسبة:

المحاسبة، لوم النفس وعتابها، وموازنة التصرفات والأقوال بميزان الشريعة والتساؤل حين مراجعة الذات حول ما يعمل ليكون السالك على بينة. ذلك أن النفس أمارة بالسوء ولولا كبح جماحها لضل المرء وانتهى أمره.

ويدل على ذلك قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ سورة الحشر ١٨.

وواضح أن تربية النفس على مراجعة الذات، والتصرفات اليومية تعود المرء على السمو وللصوفية مدرسة سامية في هذا المجال. ولمجاهدتهم في محاربة الهوى أثر فيما احتلّوه من المنزلة الروحية عند ربهم.

١٢) الخوف والرجاء:

يتردد الخوف والرجاء بين الحال والمقام في علم التصوف. منهم من جعله من المقامات ومنهم من جعله من الأحوال. ومن الثابت في التصوف أن الحال قد تستقر مقاماً.

والخوف يتأصل في القرآن الكريم والسنة النبوية: قال سبحانه ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ الإسراء ٥٧. كما قال تعالى ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ السجدة ١٦ وقال تعالى ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ «الأنبياء ٩٠» فعلى المسلم أن يخشى ربه في الوقت الذي لا يجوز له اليأس من رحمته قال سبحانه وتعالى ﴿لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الزمر ٥٣.

ولكن الأمل لا يقطع الخوف بل لا بد من أن يكون أضعاف الرجاء. وإن خوف الصوفي أشد لأنه يعلم الدين عين اليقين قال تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾. ومعلوم أن الرسول (ﷺ) كان أخشاهم من ربه لأنه أعلمهم به جل وعلا، قال (ﷺ): شيبتني هود وأخواتها لأن في هذه السور كثيراً من الوعيد، «ألا بُعداً لثمود، ألا بُعداً لعاد قوم هود، ألا بُعداً لمدين كما بعدت ثمود». فالحالتان ضروريتان، الخوف والرجاء.

قال سهل بن عبدالله: إن الخوف والرجاء كالذكر والأنثى لا يثمران إلا بالتقائهما فإن التقيا كانت التقوى. والتقوى تثمر اليقين.

وفي القرآن الكريم آيات تحضّ على الخوف، قال تعالى ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ آل عمران ١٧٥ وقال تعالى ﴿وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ البقرة ٤٠. وقال سبحانه ﴿وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ الأعراف ١٥٤.

وروي عن الرسول (ﷺ) قال: أنا أخْوَفكم لله تعالى.

وقيل إن الخوف هو الحياء من المعاصي والمناهي والتألم منها.

ومن أقوال أعلام التصوف: إن المرء عليه أن يُحذّر من نفسه أكثر من عدوه. وعليه أن يخاف من ربه وحده قال تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ آل عمران ١٧٥.

وليس الخوف بالقول ولا بسكب الدموع بل هو كما قال أعلام من التصوف: امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه. ومن خاف ربه اتبع الشرع واتصف بالورع وكان من المتقين.

وهو من أخلاق الصوفية وسجاياهم.

قال أبو سليمان الداراني: ما فارق الخوف قلباً إلاّ خرب[١].

قال ابن عجيبة: للخوف ثلاث درجات: أولاها للمسلمين الذين يخافون عقابه سبحانه، والثانية للمسلمين الذين يخافون عتابه سبحانه والحرمان من قربه. والثالثة للخواص الذين يخافون من الحرمان من النظر إليه يوم القيامة ويخافون أن يعدوا ممن أساؤوا الأدب.

وإن هذا الخوف يمزجه الرجاء ولا يتذوق آثاره المعنوية إلا من سار على درب جهاد الأولياء الذين يرجون رحمته ويخافون عذابه.

وللتوسع في هذا المقام يراجع كتاب قوت القلوب والرسالة القشيرية وإحياء علوم الدين وغيرها من أمهات كتب التصوف.

أما الرجاء فقد ورد أيضاً في القرآن الكريم:

قال سبحانه ﴿ قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الزمر ٥٣.

---

(١) قوت القلوب ص٤٦٥.

وقال سبحانه أيضاً ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ البقرة ٢١٨.

والرجاء يختلف عن التمني، إذ الراجي هو الذي يأخذ بأسباب الطاعة طالباً من الله الرضا والقبول، بينما يترك المتمني الأسباب والمجاهدات ثم ينتظر من الله الأجر والمثوبة. وهذا مفهوم من قوله تعالى ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ الكهف ١١٠. ولهذا يقف رجال التصوف كثيراً عند الخوف والرجاء حتى يصبحا خُلُقين ثابتين(١).

ومن أقوالهم: من أراد أن يسلك طريقنا عليه أن يكون صاحب الخوف والرجاء بحيث لا يطغى خوفه على رجائه فييأس ولا يؤدي به الرجاء إلى أن تقوده نفسه إلى مزالق الهوى. بل عليه أن يحلق بجناح الخوف والرجاء حتى يصل إلى قمة جبل اليقين ويحوز رضوانه سبحانه(٢).

١٣) الفقر:

مقامٌ آخر من مقامات التصوف ولا يعني الفقر المادي فحسب، بل العبد هو فقير إلى الله سبحانه وإن كثر ماله، فكما أن المحتاج ينظر إلى الغني لمساعدته في عوزه كذلك الفقير إلى الله يرفع أكف الضراعة إليه طالباً رحمته وعونه. قال سبحانه وتعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ سورة فاطر ١٥. وقال تعالى ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ سورة محمد ٣٨.

فإن لم يعتبر المسلم نفسه فقيراً إليه فقد خالف تعاليم دينه وعلى

---

(١) الرسالة القشيرية ص٦٠.

(٢) انظر حقائق عن التصوف.

المسلم أن يفتخر بالفقر لا أن يشعر بالمهانة في فقره ويطلب الغنى من أجله، وعليه أن يسعى لتأمين حياته دون المغالاة في سعيه ويحظى هذا الخُلق بثناء المنطق والعقل وبترويج قوانين هذا العصر المتميز بسيادة الاتجاه الاجتماعي في توزيع الثروة بشكل عادل في ظل فُرصٍ متساوية للعاملين في المجتمع. وفي الحقيقة والواقع نحن جميعاً عباد الله لا يفضل أحد أحداً إلا بقدر تقواه كما قال سبحانه وتعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ وليس للغني أثر في مقياس الأكرمية والأفضلية فمن الممكن أن يكون أحدنا أغنى مالاً، وأكثر أولاداً، وأحسن صوتاً ولكن لا يجوز له أن يغتر أو يتكبر، بل عليه أن يشكر ربه على نعمه حتى يتجمل غناه بتقواه ويحبه الناس. لذا لا يسعى رجال التصوف للغِنى، وإن منحهم الله الثروة والأموال بقوا فقراء في أنفسهم يكسبون الحلال بيد وينفقونه باليد الأخرى على منافع المسلمين حتى إنهم يفضلون الفقر على المال كما روي عن الرسول (ﷺ): الفقر فخري. وقد سُمّي المتصوفة أصلاً بالفقراء، لأنهم لم يسعوا إلى المال فإن أتاهم خير أنفقوه ولم يمسكوا به.

جاء في كتاب معجم مصطلحات الصوفية:

الفقر مقام شريف، وسمي الصوفية فقراء لتخليهم عن الأملاك وحقيقته أن لا يستغني العبد إلا بالله ورسمه عدم الأسباب كلها، والفقير نعته السكون عند العدم، والبذل والإيثار عند الوجود.

وفي الرسالة القشيرية ص١٢٣: نعت الفقير ثلاثة أشياء، حفظ سرّه، وأداء فرضه، وصيانة فقره. وقال أبو بكر المصري، وقد سئل عن الفقير الصادق فقال: الذي يملك ولا يميل.

قال أبو عبدالله الحصري: مكث أبو جعفر الحداد عشرين سنة يعمل كل يوم بدينار وينفقه على الفقراء وهو صائم. والحقيقة أن تاريخ رجال التصوف حافل بنماذج مضيئة في هذا النوع من الإيثار وإنهم لم يكونوا

ضد الكسب الحلال ولكن ضد جمع المال وضمّه إلى بعضه. وكل من حظي بهذه الصفة كان له هذا المقام وهو مستمد من تعاليم القرآن والسنة المطهرة قال سبحانه وتعالى في سورة التوبة ٣٤، ٣٥ ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ كما قال تعالى ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ القصص ٨٣. وقال رسول الله (ﷺ) «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً» وقال (ﷺ) «حب الدنيا رأس كل خطيئة».

إن هذه النصائح هي مصدر السلوك الصوفي فالفقر عندهم أطيب وأشرف فإن أعطاهم الله سبحانه مالاً، أو أتاهم من ميراث أو عمل فلن يتعلق به قلبهم ولن يجعلوا جمع المال هدفهم بل ينفقونه في سبيل الله في صلاح الأهل والولد وفي عون الفقراء وإن حرموا من المال لا يسألون الناس.

ونختم حديثنا عن الفقر بنصيحة للنبي إلى أصحابه:

«طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس وأنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله».

١٤) الصدق:

هو استواء السِّر والعلانية وذلك بالاستقامة مع الله تعالى ظاهراً وباطناً وتلك الاستقامة بأن لا يخطر بباله إلاّ الله فمن اتصف بهذا الوصف، أي استوى عنده الجهر والسر وترك ملاحظة الخلق بدوام مشاهدة الحق يسمى «صدّيقاً»[١].

---

(١) معجم مصطلحات الصوفية ص١٥٠.

والصديقية درجة عالية تأتي بعد النبوة وهي للأولياء. وقد تأسس هذا المقام على ست درجات: الإسلام، الإيمان، الصّلاح، الإحسان، الشهادة، المعرفة، وهي خلاصة مقام «مَنْ عَرفَ نفسه عَرفَ ربَّه» فمن حاز هذا المقام فقد بلغ علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين، وزال أمامه حجب اليقين. والصدق نقيض الكذب.

ولا بد أن يتحقق الصدق في العمل وفي الضمير وفي القول، فإذا وعدت بشيء فعليك الوفاء بما وعدت وإلاّ لم تكن صادقاً بل كاذباً، وقد ذكر القرآن الصدق في مواضع كثيرة وذكر أيضاً «مدخل الصدق» «مخرج الصدق» «مقعد الصدق»، و«لسان الصدق» و«قدم الصدق». قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ وذكر تعالى على لسان إبراهيم «واجعل لي لسان صدق في الآخرين﴾ وقال تعالى ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وقال أيضاً ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾.

وجعل الله سبحانه الصدق من أوصاف عباده الصالحين فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ «البقرة ١٧٧» وقال سبحانه ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ ومدح سبحانه الصادقين في سورة الحجرات الآية ١٥ ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾.

في سورة الحشر ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ وقال سبحانه في سورة آل عمران الآية ١٧ في معرض أوصاف أحباب الله سبحانه ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾.

وإن سيدنا أبا بكر حاز مقام الصديقية فكان الصديق، والأنبياء حازوا هذا المقام فوق نبوتهم قال تعالى في سورة مريم الآية ٤١. ﴿وَٱذْكُرْ

فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ الآية ٥٦.

وفي سورة يوسف ٤٦ ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ وقال سبحانه ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ سورة ياسين.

وقال سبحانه في سورة المائدة بحق أم عيسى ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ وقال في سورة النساء ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾.

والمقصود هنا أن مقام الصدق مقام كبير وشريف يتحقق بالعبادة الصادقة، وبعد اجتياز امتحانات صعبة في الحياة ذلك أن مجرد الصدق في القول لا يكفي لذلك بل لا بد من صدق الضمير والقلب والإحساس. والتظاهر بالصدق لا يكفي إن لم يصدقه العمل ولم يستقر في القلب. قال سبحانه وتعالى ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾.

وهذه الصفة الحميدة من صفات الله سبحانه

قال سبحانه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾

وقال سبحانه ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾

وفي سورة الأحزاب يقول سبحانه ﴿قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾. وقال سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾. قال العلامة ابن أبي شريف في حواشي العقائد:

الصدق استعمله الصوفية بمعنى استواء السر والعلانية والظاهر والباطن، بأن لا تكذب أحوال العبد أعماله ولا أعماله أحواله. أي لا بد على المريد المتحلي بالصدق أن يستوي سره وعلنه في الطهر والصدق وبذلك يتسلق سريعاً درجات الإيمان فالصدق قوة محركة تدفع الصادق إلى عِلِيّين وهو صفة لازمة لكل مقام واصل إلى معرفته سبحانه.

فعلى المسلم أن يكون صادقاً في محاربة هواه، وصادقاً في جهاده لتصحيح سلوكه. وعليه أن يكون صادقاً في كل خطوة يمشيها وأن يكون صادقاً مع ربه. وحينذاك يُكتب مع الصديقين.

قال الشيخ معروف الكرخي: «ما أكثر الصالحين وأقل الصادقين في الصالحين» قال النبي ﷺ «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك فإن الصدق طمأنينة والكذب ريبة» وقال (ﷺ) «آية المنافق ثلاث: إذا حَدَّث كذب، وإذا وَعَد أخلف، وإذا ائتمن خان». فالصدق من أعظم خصال السالكين نهج الصوفية، فهم صادقون في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم.

وفي ختام موضوع الصدق أذكر قولاً لجنيد البغدادي «حقيقة الصدق أن تصدق في مواطن لا ينجيك منها إلا الكذب».

١٥) المراقبة:

المراقبة من المصطلحات الشائعة بين القوم وعدَّها بعضهم من الأحوال قال الشيخ السراج في كتابه اللُّمع.

المراقبة حال شريف.

افتتح أبو القاسم القشيري موضوع المراقبة في كتابه بهذه الآية الكريمة ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ رَّقِيبٗا﴾ الأحزاب ٥٢.

والمراقبة تعني: إن الصوفي يتذكر دوماً أن الله سبحانه يراقبه قال تعالى ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ التوبة ٧٨.

وَرَدَتْ المراقبة في مواضع عديدة من القرآن الكريم وهي وظيفة الملائكة الذين هم عن اليمين وعن الشمال قعيد. ولكننا لِتعَوُّدنا على تفسير كل شيء بمنطق العقل والمعرفة المادية يصعب علينا فهم معنى مراقبة الملائكة، أما إذا قيل لنا إن الأقمار الصناعية تراقب من أعالي

السماء أدق شيء في الأرض بادرنا إلى تصديقه مع أننا لا نعلمها، ذلك أنها أمور محسوسة مادية، وكذلك المراقبات الإلكترونية والتحقيقات التي يحفظها جهاز الكومبيوتر من أمور خيالية بالغة الدقة، ومع أنها من صنع الإنسان فإننا نصدقها، ولكن البعض يصعب عليه الاعتقاد بمراقبة الملائكة لأعمال العبد، وبأن الله حفيظ لكل شيء.

أما أهل التصوف فلا يغفلون عن حال المراقبة ويؤمنون بأنَّ الله رقيب عليهم ومن كان له مثل هذا الإيمان لا يخطئ في سيره أو سيرته. قال سبحانه في سورة الزخرف ٨٠ ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُمْ... بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ وقال سبحانه في سورة الملك ١٣ ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وقال سبحانه في سورة البقرة ٢٣٥ ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

وقال تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ العلق ١٤

وقال سبحانه وتعالى لهارون وموسى ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

وقال سبحانه ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

ومثل هذه الآيات كثيرة فعلينا أن نتدبر معانيها ونتمثل بإرشاداتها وأن الصوفية هم في حال المراقبة دوماً لا يحيدون قيد شعرة عن آدابها، خاضعين لأوامر ربهم خاشعين وبهذه الصفة ينالون حال القرب من الله سبحانه. ويرى بعض أعلام التصوف أن المراقبة تأتي بعد مقام «الرضا» ويرى بعضهم أنها تأتي بعد مقام الإحسان، وكل منهم عبر عن الحال التي مر بها في تجربته الروحية لا سيما إذا اعتبرنا المراقبة من الأحوال فالحال منحة إلهية تحصل مع كل مقام.

ولكن كيف تتم المراقبة؟ وما هي نتيجتها؟

المراقبة في الطريقة النقشبندية هي سلوك المريد لوصول غايته بتوجيه مرشده فَمَثَل مرشده كالطبيب الذي يشخص الدواء لعلاج مريضه أو كأستاذ يُعلِّم مدى استعداد تلميذه فيلقنه معرفة الطريق حسب قدرته لفهمه ويبعث في قلبه النشوة الروحية التي تستحثه على المزيد أو كمهندس يضع كل شيء في موضعه وبحجمه.

فإن لم يكن له مرشد فليسر في الطريق لعل الله يهديه إلى سواء السبيل. يعتكف التائب العابد في مكان طاهر خال متوضئاً متوجهاً إلى القبلة يتضرع إلير به في هذه الحال أن ينزل رحمته عليه ويملأ قلبه بنور الهداية ويُحسن أن يتلو القرآن في خلوته. وكثيرون وصلوا غاياتهم في طريق المراقبة.

تناول أعلام التصوف موضوع المراقبة في كتبهم وخلاصتها: إن من يرى أن الله مُطَّلع عليه رقيب لأفعاله لا يتوجه قط نحو عمل يخالف تعاليم ربه. فهل يعقل أن يقدم عاقل على عمل سيّئٍ كالسرقة مَثلاً أمام صاحب الدار؟

فإذا علمتُ أن الله يراقبني فكيف آتي عملاً يخالف أمر ربي؟

وإذا تحققت هذه المراقبة استوى لديه السر والعلن وطبق تعاليم الشرع وحينذاك تكون الثمرة وأيّة ثمرة؟

١٦) الإحسان:

الإحسان مقام آخر من مقامات التصوف، وللإحسان مضامين عديدة تتحدد حسب المقام والمناسبة فقد يقصد به التقرب إلى الله سبحانه وبالعبادة وقد يقصد به منح العطايا والصدقات أو غيرها. قال سبحانه وتعالى ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ الأنعام ١٦٠.

قال سبحانه ﴿وَأَحْسِنُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ البقرة ١٩٥

وقال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ العنكبوت ٦٩

﴿وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ﴾ القصص ٧٧

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ النحل ٩٠

﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ الرحمن ٦٠.

وتلتقي معاني الإحسان ومضامينه في أنها نقيض السيئة قال تعالى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٖۗ﴾ الفرقان ٧٠ قال تعالى ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ هود ١١٤.

ويتبين من هذه الآيات أن الإحسان قد يأتي بمعنى العبادة (الصلاة) وقد يأتي نقيض السيئة.

ولكن ما هو الإحسان في نظر التصوف؟

يعود الإحسان في نظر التصوف إلى الحديث النبوي الشريف الذي يروى فيه أن جبريل عليه السلام يأتي إلى النبي في صورة آدمي ويسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان لكي يُعلّم الناس دينهم وفي آخر سؤال له: قال يا رسول الله ما هو الإحسان؟ قال الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. قال جبرائيل صدقت. فتعجب منه الصحابة إذ لم يكن تبدو عليه علامات السفر وكان يسأل ثم يصدّق: فسألوه (ﷺ) من كان السائل؟ فقال رسول الله (ﷺ) إنه جبريل أتاكم يُعلّمكم دينكم.

فلنعد إلى الحديث المشهور «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» لنرى أن الإسلام هو الأعمال الظاهرة كالصلاة والصوم والحج والزكاة وغيرها وأن الإيمان هو عقيدة في القلب وأعمال تصدقها. ولكن الإحسان لُبّ الإيمان والإسلام ويعني أن تؤدي إسلامك وإيمانك بأفضل أداء بالجسد وبالروح. ويتحقق الإحسان فيما إذا اعتقد بأن الله مُطّلع على حركاته وسكناته. فإذا كان في الصلاة يرى كأنه واقف

فعلاً أمام ربه خاشعاً مطمئنًّا دون أن يتوزع باله بين هموم الحياة الدنيويّة أو يسرع في أداء الحركات الظاهرية. ولا شك أن الصلاة الحقيقية هي أن تكون بدرجة الإحسان «كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» وهو المقصود بالخشوع الوارد في القرآن الكريم وأن الله سبحانه وصف هؤلاء العابدين الخاشعين، بالمفلحين.

قال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾ المؤمنون ٢.

وقال تعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ الحديد ١٦ ويتحقق الخشوع في أن يعتقد المصلي بأن الله حاضر وناظر إليه وهو مقام الإحسان وهو مقام يفرض الخشوع في قلب المصلي المؤمن، فالإحسان في العبادات يتحقق بالخشوع، وبالخشوع يتحقق الفلاح ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ﴾.

ويبرز هذا المقام فيما إذا نظرنا إلى نقيضه حيث تصبح العبادة فارغة المضمون والجوهر، ممزوجة بالرّياء، وقريبة من الشرك «أعاذنا الله» إن لم تكن لله سبحانه خالصة قال سبحانه وتعالى ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ﴾ سورة الماعون. ومثل هذه الصلاة لا خشوع فيها وهي لا ترقى في الدرجة إلى الصلاة الخاشعة لأهل مقام الإحسان.

فمن أراد أن يقبل الله عبادته، ويحظى يوم القيامة برضوانه، عليه أن يعبد الله وحده قال سبحانه وتعالى ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ الكهف ١١٠.

وأقول إنه مقام يناله من اجتاز مقامات التوبة والإنابة والزهد والتوكل والإخلاص والشكر والرضا. وهو عند كبار أعلام التصوف مقدمة درجة المراقبة.

١٧) القرب:

وهو من الأحوال الخاصة للسالكين تتحقق لهم بعد أن يطهروا قلبهم ونفسهم من كل خلصة سيئة وتستعد نفوسهم لهذه المنزلة العالية.

يقول صاحب اللمع:

وحال القرب: لعبد شاهد بقلبه قرب الله منه فتقرب إلى الله تعالى بطاعته، وجميع همه بين يدي الله تعالى بدوام ذكره في علانيته وسره.

نحن نعلم جميعاً أن الله تعالى قريب منا. وفي القرآن الكريم آيات لبيان ذلك وهذا القرب نوعان: قرب العباد الذين يخشون الله في السر والعلن ويعبدونه مخلصين له الدين. وقرب العباد الذين أسرفوا على أنفسهم فما استقام سلوكهم وفي هذا المعنى العام جاء قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ وقال تعالى بشأن من حضرته الوفاة ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ الواقعة ٨٥.

والقرب «الصوفي» حالة قرب العبد من الله بما قدَّمه من جهاد النفس وعبادة الله بشكل ينسى نفسه ولا يذكر إلا ربه ويصل إلى درجة «فناء النفس» و«بقاء الله» وهذه الحال موضع التهمة حيث يوجه البعض إليهم تهمة الحلول، والاتحاد، أو وحدة الوجود. والموضوع لا يخرج عن أن الصوفي في هذه الحال «حال القرب» يخرج عن طوره لما يحس به في ذاته من بركة القرب، فتصدر منه أقوال لا يقبلها قاموس الشرع. والحقيقة أنه صاحب حالٍ لا يعي ما يقول ولا يقول ذلك في حال وعيه بل يعتبرها مخالفة للشريعة في حال تذكره.

وللشيخ النقشبند محمد بهاء الدين بيت من شعر في هذا المقصد معناه:

أيها العابد الزاهد الذي لا يرى غير الظاهر

ما الذي تسألني في حال القرب

أنا قريب منه وهو قريب كقرب ماء
الورد من رائحته الطيبة

لا شك أن الرائحة الطيبة شيء يختلف عن الماء والماء شيء آخر يختلف عن الرائحة فامتزجا معاً واقتربا وليس حلولاً ولا اتحاداً.

وهكذا عندما يتحدث القرآن عن قرب الله من عبده كقرب الوريد ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾.

وكيف هذا القرب؟

هل هو قرب الذات من الذات؟ كلاّ. ذلك إنه كفر بل هو قرب علم الله سبحانه. وهذا الإحساس بالقرب يدخل ضمن البصيرة لا الحواس الخمس. ومَثَله مَثَل قرب الطفل من قلب الوالدين فالطفل لا يدخل في قلب الوالدين ولكن إحساس الوالدين بالقرب منه كأنه جزء منهما لا ينفصل فإن شَعَرَ إصبع من الطفل بأذى يفقد الوالدان راحتهما وأمنهما.

ولنا من القرآن شواهد وبراهين. قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾ العلق ١٩.

وكذلك جاء في سورة مريم ٥٢ ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا﴾ وقال سبحانه ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

ولكن كيف نتقرب إليه سبحانه؟

استشهدنا سابقاً بالآية الكريمة ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب﴾.

وقال سبحانه ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ الإنسان ٢٦ وفي سورة سبأ ٣٧ ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾.

ومفاد تفسير هذه الآية أن الإيمان والعمل مما يقرب المسلم إلى ربه. ومعلوم أن أعلى مقام في الآخرة عند الله هو المقام المحمود الذي وعد الله به نبيه محمداً ﷺ وحين يبشره ربه بهذا المقام يأمره بالصلاة في

الليل تهجدا ليحظى بهذا المقام فقال تعالى ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ «الإسراء ٧٩».

وجاء في الحديث القدسي «ومن عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها...».

والمقصود هنا القرب الذي يحصل بكثرة الصلاة والعبادة وبذلك يصبح حبيب الله تعالى بحيث يكون سمعه وبصره ويده وكأن الله سبحانه يمنحه قوة جديدة تفعل الأعاجيب.

١٨) الإخلاص:

وهو مقام آخر من مقامات التصوف

والمطلوب في التصوف كما ذكرنا أن يصبح المقام والحال مَلَكات وسجايا راسخة بما يقدّمه العبد من الرياضة الروحية والجهاد النفسي وملازمة الطاعات وحينذاك تفيض عليه بركات معنوية لا يعلمها إلا الله ولا يفهمها إلاّ صاحبها.

وهنا نذكر مقام الإخلاص وهو عبادة لله خالصة لا رياء فيها ولا غرور ومن أجل رضوان الله سبحانه وحده كما قالتها رابعة العدوية «لا أعبدك خوفاً من نارك أو طمعاً في جنتك...» وليس معنى ذلك أن مشايخ التصوف لا يخافون النار ولا يطمعون في الجنة ولكن مقصودهم هو أنه حتى لو لم تكن النار أو الجنة فإننا نعبدك حُبًّا لذاتك.

قال أبو القاسم القشيري «والإخلاص إفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد وهو أن يريد بطاعته التقرب إليه سبحانه دون شيء آخر من تصنع

مخلوق أو اكتساب محمدة عند الناس أو محبة مدح من الخلق أو معنى من المعاني سوى التقرب به إلى الله تعالى»[1].

ويوصي سبحانه نبيه في سورة الزمر، بالإخلاص في عبادته ثلاث مرات إذ يقول ﴿قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ * أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ وجاء في سورة البيّنة ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾. وإن الرياء يُعتبر بمنزلة الشرك في القرآن الكريم، قال تعالى في سورة الكهف ١٠٠ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾.

روي مسلم عن النبي ﷺ أنه قال:

إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صُوَرِكم ولكن ينظر إلى قلوبكم»

وهذه إشارة إلى العبادات التي تؤدى بالجوارح، كالصلاة وكالحج ويؤكد الحديث النبوي الشريف أن إخلاص القلب هو معيار القبول والرضا من العبد.

قال ابن عجيبة رحمه الله تعالى: «الإخلاص على ثلاث درجات:

إخلاص العوام والخواص وخواص الخواص.

فإخلاص العوام: هو إخراج الخلق من معاملة الحق مع طلب الحظوظ الدنيوية والأخروية، كحفظ البدن والمال وسعة الرزق والقصور والحور. وإخلاص الخواص: طلب الحظوظ الأخروية دون الدنيوية. وإخلاص خواص الخواص: إخراج الحظوظ بالكلية فعبادتهم تحقيق العبودية والقيام بوظائف الربوبية محبة وشوقاً إلى رؤيته».

(١) الرسالة القشيرية ص٩٥.

إن آمال مشايخ التصوف هي بلوغ منتهى درجة العبودية في إخلاصهم للوصول إلى الحق وليس لهم مطمع آخر. فإن لم يسلكوا بهذه الروحية لن يبلغوا مقام الإخلاص.

وفي طريق السالكين المريدين آفات لا بد من تحذيرهم من مخاطرها لتكون أعمال السالك خالصة لوجهه تعالى، وهذه الآفات حُجبٌ تعرقل سيره إلى الله تعالى وأهمها: الحجاب الأول: رؤيته لعمله وإعجابه به وحجابه به عن المعمول له وبالعبادة عن المعبود.

فالذي يخلصه من رؤية عمله علمه بفضل الله تعالى عليه وتوفيقه له وأنه مخلوق هو وعمله لله تعالى فلا بد أن نشكره سبحانه على هدايته إذْ إنّ كل خير يصدر منه هو محض فضل من الله ومنة ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ سورة النور ٢١ فن التزم المريد بهذا وتَخلَّصَ من ربقة الرياء فقد نجا وفاز بمقام الإخلاص. الحجاب الثاني: طلبه العوض لعمله ولا سيما العوض الدنيوي كطلب السمعة والشهرة وحب الظهور وكذلك طلبه للأحوال والمقامات والمكاشفات والمعارف فلا تكون عبادته خالصة لوجه ربه.

ولهذا يقول العارف الكبير الشيخ إرسلان رحمة الله ناصحاً كل ملتفت إلى غير مطلوبه ومحبوبه ومقصوده «يا أسير الشهوات والعبادات ويا أسير المقامات والمكاشفات أنت مغرور».

وأقول: إن أسير العبادة هو من يستعظم عبادته وصلاته وقيامه ويتوقع لنفسه كشفاً وراءها».

وبعضهم يرون أن مخاطر توقع الكشف في أن بعضهم إن حصل على المقام، يغتر قلبه فكأنه ما عبد الله سبحانه إلا لنيل المقام لا لحب الله، فالمقام يصبح الغاية والمقصود، لذا يرى البعض ضرورة حضور المرشد الكامل ليأخذ بيد السالك خطوة خطوة حتى ينال المقامات دون أخطاء أو حسرات.

وعلى السالك سواء كان له مرشد أم لا مراعاة أمرين أولهما؛ مراقبة عيوبه في سلوكه حتى لا يتكرر خطؤه. وثانيهما؛ علمه بما يستحقه الرب جل جلاله من حقوق العبودية وآدابها الظاهرة والباطنة.

١٩) الفناء - ٢٠) البقاء:

هما بحر لا ساحل له، ولا حد لعمقه من درجات رجال التصوف الذين هم وحدهم عرفوهما وتحدثوا عنهما.

قال الإمام الرَّباني في مكتوباته: «الفناء مليء بالعثرات، ومعرض لطوارئ وتغيرات وهو أخيراً بحر لا نهاية له» لذا لم يقبل بعض ما قيل فيه وقال: صاحب هذه الأقوال لم يصل إلى منتهى هذا المنزل وتوهَّم أن الفناء كذلك.

وجاء في كتاب «القدسية» للشيخ محمد پارسا وفيه أقوال الشيخ النقشبند «إن الشيخ أبا سعيد أحمد بن عيسى الخراز (ت٢٧٧، أو ٢٧٩هـ) هو أول من تحدث في البقاء والفناء» ولم أجد في المصادر الأخرى إشارة إلى هذا. ولكن الباحث المعاصر الدكتور عرفان عبد الحميد يرى أن أبا يزيد البسطامي سَبَقَهُ في بحث الفناء. وأرى أن أبا يزيد عاش المقام بنفسه ولم يتحدث، أمّا الخراز فقد كتب فيه. قال ابن العربي «البقاء يقترب معناه من الأبدية» ولكنه ليس مقابلاً للأزلية وهو مقابل لكلمة «النفاد» قال تعالى ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾[1] وتبين لي أن الفناء نوعان: أولهما؛ يعود إلى سلوك العبد نفسه ويتجلى في مدى إصراره على كبح جماح نفسه وتزكيته بالطاعات وعلى تصفية الشوائب السِّيئة في سلوكه النفسي والبدني. كما أن عنصر البقاء يتجلى في مدى قدرته على إحلال الخصال الحميدة محل الصفات الذميمة.

(١) حقائق عن التصوف ص٣٢١.

ويظهر أيضاً في مدى قدرته على التطبع بالفضائل وتجنبه عن الرذائل، وعلى طرح الظلام من قلبه وإدخال النور في صدره وبالقدر الذي ابتعد عن الشيطان واقترب من الرحمن بالإضافة إلى ترك الدنيا وملذاتها والتوجه كليًّا نحو الحق إلى الحد الذي شغلته محبة ذات الحق عن نفسه فلا يرى إلا ربه.

فإذا بلغ المرء هذا الحد وتطهر من كل سوء فقد فاز بمقام الفناء وبما استقر في قلبه من الصلاح والتقوى فقد فاز بمقام البقاء. وبعبارة أخرى: بلغ البقاء في الحسنى وبلع الفناء في ترك الدينا، وبلغ القناعة التامة وهي بقاء القناعة وفناء الحرص، فإن حصلت له لقمة عيش لم يفكر بإدامها.

والنوع الثاني؛ هو مقام معنوي وهي عطية إلهية لا تكسب بعدد من الأذكار والرياضات الروحية في مدد طويلة بل يقضي البعض سنوات عمره في هذا الطريق دون أن ينال شيئاً منه. فمنهم - كما يقول رجال التصوف - من يبقى في حال الفناء ولا يتجاوزها إلى البقاء.

جاء في الرسالة القشيرية: «مَنْ زَهَد في دنياه بقلبه يقال فني عن رغبته فإذا فني عن رغبته فيها بقي بصدق إنابته» فأين مثل هذا الإنسان الذي لا يبقى في قلبه سوى ذكر ربه؟ يروى أن شخصاً جاء إلى أبي يزيد فقال له: ماذا تريد؟ قال: أريد أبا يزيد: فقال: أبا يزيد! من هو أبو يزيد؟ إنّي أبحث عنه. ومعنى ذلك أنه كان في حال الفناء.

وفي هذه الحال تظهر بعض الشطحات في الصوفي لا يفهمه أحد. وقد يكون مخالفاً للشرع. ومن هذه الثغرة يتهم الفكر الصوفي بأنه فكر حلولي أو يقرر وحدة الوجود أو الاتحاد. مع أن هؤلاء المشايخ يسارعون إلى التوبة حين يفيقون مما كانوا فيه من حال الفناء. ولذلك يرجون منه سبحانه أن يقصر مكوثهم في الفناء ويطول في البقاء. والحقيقة أن الفناء

مرحلة وليس بمنزل. وإلى هذا أشار الشاعر الصوفي الكردي مولوي في خطابه لشيخه سراج الدين:

«يا من تجاوزت محطة الفناء. وسرت إلى مستقرٍّ لك في أرض البقاء»

يقول النقشبند: قالوا، إن الفناء هو المرحلة الأخيرة في «السير إلى الله» أي السير للوصول إلى الحق، أما البقاء فهو المرحلة الاولى في «السير في الله» وهو نيل المراد وتذوق كمالات القرب ثم يقول: «ولا يتم السير إلى الله إلا إذا انتزع المريد حظوظ الآدمية من نفسه، واتجه كليًّا إلى ربه وقطع بيداء الحياة بمشية الحق والصدق حتى يبلغ الكعبة المقصودة. والمقصود انتزاع القيم المادية الجسدية في داخل نفسه. فلا يشعر بضرورة الكيان الطبيعي في حياته ومثله مثل السكران أو النائم وقد كتب الشاعر يقول:

«إليك يا مُنيتي حجّي ومعتمري إذ حج قوم إلى ترب وأحجار»

وقال: ومرحلة السير في الله وبعونٍ من نور الله تتحقق بعد الفناء المطلق الذي هو عبارة عن فناء الصفات والذات عندما ينعم الله عليه بالوجود الحقيقي الذي يرتقي به إلى عالم الأوصاف الإلهية بمعنى أنه يكون كما يحب الله أن يكون في سلوكه وصفاته وحينذاك يتحقق فيه ما يروى في الحديث القدسي: «بي يسمع وبي ينطق وبي يبصر وبي يمشي وبي يعقل» وهنا يكون فانياً عن أوصافه وذاته وفي هذه الحال يدخل في دائرة الجذب الصوفي فينجذب قلبه نحو ربه فيتلألأ نور الحق في صدره ومثله مثل الحديد في بوتقة النار فمع أنه لم يفقد صفة الحديد ولكنه اكتسب صفة النار وكذلك عود من خشب يلقى في النار فيتحول إلى نار وبعد إطفاء النار لا يبقى الخشب خشباً ولا النار ناراً. والسبب في ذلك هو قرب النار ولكن الفرق هو أن القرب هنا ليس بمادي أي اتصال الذات بالذات بل هو قرب معنوي ومثله كفناء الوالدين في حب أطفالهما.

وهنالك فرق آخر هو أن تحول الحديد إلى النار فعل طبيعي لا إرادي ولكن الإنسان يملك الإرادة والإحساس فيريد طاعة ربه والقرب منه بغية رضوانه قال تعالى ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾ وقال سبحانه ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾ ولا يتصور القرب المادي هنا لأنه سبحانه منزه عن الجسمية والمكانية «ليس كمثله شيء» وحين يذكرون الفناء والقرب لا يعنون الحالة المادية.

وإني أُشبّه هذه الحال بقصة النار والحديد وبفناء الحبيب في حبه وبمثل قرب القمر مع الشمس حيث تتحقق الثمرة إن لم يتوسط بينهما مانع كالأرض. وكذلك العلاقات المعنوية.

وكذلك كلما خالف العبد أوامر ربه دخل الرّين في قلبه وأبعده عن نور ربه فالفناء ليس فناء الذات في الذات وإن القرب ليس قرب الجسم من الجسم بل هو قرب معنوي ليس إلا.

ومما قاله بهاء الدين النقشبند: الجذب الصوفي يفرش أجنحته على بساط قلب العبد ويطهر قلب المريد من كل الوساوس فتفنى الأحاسيس المادية وتحترق فتحل الأوصاف الإلهية فيه فلا تبقى له القدرة على شؤون قلبه فلا يتصرف إلا في ضوء الأوصاف التي استقرت في منزل قلبه. وعلامة صدقه أنه يطبق تعاليم ربه فيحفظه تعالى. أما إذا خالفها فليس له فناء صادق. ويدل على ذلك قول أبي سعيد الخراز «كل باطن يخالفه ظاهره فهو باطل». ثم قال النقشبند: إن أصحاب البقاء والفناء يتنعمون براحة الوجدان وسرور اللقاء وهي منتهى المراد فلا يبقى لهم مراد ولا يريدون المقام والكرامات بل يعدّونها مما تحول دون العبد وربه، ويفقدون الرغبات الجسمية. ومعنى ذلك أن الفناء علامة حقيقة محبة الذات والفناء موهبة للعبد لا ترد، وقيل في هذا المعنى «الفاني، الذي لا يَرُدُّ إلى أوصافه».

معناه أن العبد الذي وهبه الله هذا المقام وملأ قلبه بهذه الأوصاف فإنه يظل سعيداً في دنياه وآخرته. وفي هذا قال ذو النون المصري: «ما رجع مَنْ رجع، إلا من الطريق، وما وصل إليه أحد فرجع عنه، فمن استطاع التغلب على مشاكل الطريق واجتاز القفار والوديان ووصل إلى المنزل فاستقر فإنه لا يعود» وتنطبق عليهم الآية الكريمة ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ فبذلك ينجون من مكائد الشيطان، وإلا فكلنا عباد الله إن شئنا وإن أبينا ومع ذلك يخدعنا الشيطان.

وإلى هذا يشير النقشبند بقوله «إذا فني وجوده فلا يعود إلى الوجود البشري ومع أن الفناء المطلق هبة إلهية فإنه يتحقق تدريجيًّا وفقاً لعوامله. ومنها أن يتوجه العبد بكل قواه إلى ربه توجهاً قلبيًّا يبعده عن الصفات الذميمة».

والمقصود بهذا الفناء إبعاد الجانب الآدمي في السالك، وبروز الجانب الروحي والحقيقي فيه ونشير مرة أخرى إلى الحديد الذي يحمى بالنار حيث يكتسب صفات ولا يفقد جوهره. كما قال أحدهم «إنك عبد ولن تكون مثله، ولكنك لو جاهدت أصبحت شيئاً لنفسك».

وقال أيضاً: إن العقل ينتهي حده على ضفاف بحر الفناء. وفي هذه الضفاف وما وراءها أسرار لا يدركها إلا سالكو هذا الميدان ممن أنعم الله عليهم. وقال: إن هذه الدرجة «الفناء في الله والبقاء بالله» لا تعفي المريد من المسؤولية الشرعية.

قال إبراهيم الشيباني: علم الفناء والبقاء يدور على إخلاص الوحدانية وصحة العبودية وما سوى ذلك مغاليط وزندقة.

وتحدث بعضهم عن فناء الفناء ويعني أن السالك يفني الرغبة المعنوية كما يفني الرغبة الجسمانية فلا يطمح في مقام معنوي، أو جزاء أخروي ويستغرق في جلال الله سبحانه فيفنى عقله ونفسه، فيفنى فناؤه.

سُئل النقشبند عن أنواع الفناء فقال: له نوعان فقط أحدهما، الفناء في الوجود الطبيعي المظلم وثانيهما، الفناء في الوجود النوراني الروحاني. وهذه إشارة إلى الحديث الذي يروى «إن لله سبعين ألف حجاب من نور وظلمة». أعني ولو أنها سبعين ألف مع ذلك تتحدد في نوعين فقط، نور وظلمة.

ويشير إلى هذين النوعين قول بعض كبار التصوف: (خطوتان وقد وصلت).

وقال النقشبند: إن الحجاب هو وجودك. دع نفسك وتعال. وقال: إن لقاء المحب بالمحبوب يتحقق بعد الفناء والبقاء. وحين يتم اللقاء بعد الفناء والبقاء يستقبل التجلي الإلهي بشوق.

وفي هذه المرحلة لا يؤثر فيه شيء لا شهود الحق يمنعه من الخلق ولا مخالطة الناس تحجبه عن الحق فهو باق في الفناء وفان في البقاء. ويكون السالك هنا في مقام «السير في الله».

وفي هذا المعنى لهذا المقام ذكر الشيخ فريد الدين العطار (ت٦٠٠هـ)

«عليك أن تتحلى بالأدب لاجتياز طريق الحق وجاهد في سبيله دون كلل أو ملل ودون حد تنتهي إليه حتى إذا شربت بحراً لم تظمأ وطلبت المزيد».

وللشيخ عبد الرحمن النقشبندي[1] قصيدة في هذا المقام ترجمَتُها:

إني أعجب من عاشق قال في مزاد العشق: أوله عذب آخره مرّ

---

(١) هو نجل الشيخ عثمان سراج الدين أحد كبار علماء التصوف.

صعبُ المراس، ومع أني أصبحت كصفاء الخمر، أنادي: ألا أيها الساقي أدر كأساً وناولها. جاء في كتاب التعرف لتاج الإسلام الكلاباذي:

الفناء أن يفنى العبد عن الحظوظ فلا يكون له في شيء من ذلك حظ ويسقط عنه التمييز. والبقاء الذي يعقبه هو أن يفنى عمّا له ويبقى بما لله. وقال: قال البعض: إن تكون كل حركاته موافقات الحق دون مخالفاته، فانياً عن المخالفات بالموافقات وفانياً عن أوصافه باقياً بأوصاف الحق. والفناء والبقاء عند الكلاباذي: فناء عن تعظيم ما سوى الله وبقاء في تعظيم الله. وقال أبو سعيد الخراز: علامة الفاني ذهاب حظه من الدنيا والآخرة إلا من الله تعالى. ثم يقول: ومنهم من جعل هذه الأحوال واحدة وإن اختلفت عباداتها فجعل الفناء بقاء والجمع تفرقة... وأما المحققون فلم يروا ذلك، منهم الجنيد والخراز والنوري والنقشبند. قال القشيري: الفناء سقوط الأوصاف المذمومة، والبقاء قيام الأوصاف المحمودة.

وخلاصة ما ذكره علماء التصوف[1] في موضع البقاء والفناء: إن الولي والعارف بالله يتحلى بالفرق والجمع والوحدة والكثرة وهي مصطلحات صوفية، فلا بد من الفرق بين ما يحبه الله فيأمر به وبين ما لا يحبه فينهى عنه، وهذا معنى الفرق. وأما معنى الوحدة فيعني وحدانية الله سبحانه وأما الكثرة فهي تعدد صفاته سبحانه. فالعارف يؤمن بالله الواحد الأحد وبصفاته وهذا معنى الكثرة في الوحدة. أما المقصود بالجمع فهو الإيمان بأن كل ما يجري فهو بقضاء الله وقدره.

وجاء في كتاب مدارج السالكين «إن أسمى درجات الحب هي اتحاد إرادة المحب مع إرادة المحبوب وفناء إرادة المحب في إرادة

---

(١) راجع مدارج السالكين ومنازل السائرين ومعجم ومصطلحات وألفاظ الصوفية في هذا الموضوع.

المحبوب، ولا يرقى إليها إلا الخواص الذين فنوا في طاعة الله سبحانه أحبوا الله وكرهوا له يرجون ربهم وحده، ولا يخافون غيره.

وحقيقة هذا الفناء هي فناء النفس في طريق رضوانه سبحانه، وثمرته هي تحقيق معنى لا إله إلا الله.

ويؤخذ معنى الفناء والبقاء في النفي والإثبات في «لا إله إلا الله» ذلك أن كلمة «لا اله» تفني عبادة أي شيء وكلمة «إلا الله» تعني بقاء العبادة لله وحده. وورد في كتاب الألفاظ الصوفية:

الفناء والبقاء متلازمان، يكمل أحدهما الآخر، فمن ترك حظوظ الدنيا فقد أفنى دنياه فيعيش بالصدق والحق. وهذا هو البقاء. ومن ملكته الحقيقة فظل اصدقاً مع ربه فهو فان في الخلق باق للحق.

وفي كتاب معجم مصطلحات الصوفية: ص٢٠٧

الفناء تبديل الصفات البشرية بالصفات الإلهية حتى يصبح المرء بحيث «يكون الحق سمعه وبصره» كما نطق به الحديث النبوي.

وعلامة صدق هذا الفناء هي التخلي عن الاعتماد على الناس من أجل الدنيا والتوكل على الله وحده.

والفناء كما ذكرت نوعان: أحدهما فضل من الله وموهبة يعطيها من يشاء وثانيهما، مجاهدة العبد لبلوغ هذا المقام ويتم بالتحلي بالأوصاف الحميدة التي ذكرناها، وبالتخلي عن كل الصفات الذميمة التي أشرنا إليها. وبهذا يحل العبد ضيفاً في محطة الفناء ثم ينزله ربه في مستقر البقاء، فيدخل في أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. ذلك فضل من الله يؤتيه من يشاء.

٢١) التوحيد:

وهو الإيمان بأن الله واحد أحد فرد صمد ليس كمثله شيء.

سُئل الرسول الكريم ﷺ عن صفات ربّه فنزلت: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

والتوحيد هو أن تقول: «لا إله إلا الله» مصدقاً بالقلب، ويقابله الشرك والكفر والإلحاد.

والكفر جاء لمعانٍ عديدة منها السّتر، وكفران النعمة، والشرك هو أن يشرك مع الله أحداً أو صنماً في العبادة وكذلك الاعتقاد بقدرة الوسيط بذاته على إسعاد المرء في الدنيا أو في الآخرة.

ومنه الرياء في العبادة كأن تكون عبادته للسمعة.

أما ما يتردد على لسان (السذج) من المتصوفة وأدعياء الطريقة من أدعية يطلب فيها العون من الصالحين منها؛ أيها الشيخ... يا مرقد الشيخ.. أعطني ولداً أو أنقذني.. فإن ظاهره كفر بَوّاح وإشراك بالله ولكنه يتبرأ منه إذا كان قد توجه إليه لأنه عبد من عباد الله الصالحين وإن دعاءه عند ربه مستجاب ولم يعتقد فيه التأثير. ولكنه منزلق خطير فعلى المسلم أن يكون حريصاً على إيمانه بكامل وعيه عند زيارة الصالحين من الأحياء والأموات، وأن يحذر من مظنة الشرك فلا تؤدي به عاطفة الحب لشيخه إلى دار الشرك والخسران.

أما الإلحاد فهو إنكار وجود الله الخالق سبحانه ولا يزال بعض من بني آدم يرى أن هذا الكون وجد صدفة دون إرادة عاقلة لا محرك لها بل تتحرك بذاتها. وفي الوقت الذي لا يعقل أن يوجد مسمار دون صانع فإنه يعقل أن يُخْلَقَ الإنسان العجيب الغريب صدفة دون مدبر صانع. إن الملايين من البشر حائرون تائهون يقولون: كيف يمكن أن يوجد التلفزيون أو الطائرة دون صانع أو مصنع ولكنهم يستنكرون أن يكون لصانع التلفزيون أو الطائرة خالق ويقولون إن الإنسان وُجِدَ صدفة دون خالق!!!

فالتوحيد هو إقرار باللسان وتصديق بالجنان على أن الله واحد (لا إله إلا الله) واعتقاد بأسمائه وله (٩٩) اسماً وكذلك اعتقاد بصفاته التي منها ما هي لله وحده كالخالق، والمحيي والمميت والمبدىء والمعيد وعالِمُ الغيب، ومنها صفات يتحقق معانيها في الإنسان ضمن المعنى البشري لها، ذلك أن هنالك فرقاً في هذه الناحية مثل «رب الشيء» إذ ربوبية الله لها معنى يختلف كليًّا في معنى كون الإنسان (ربًّا لداره) فالله باق حيّ لا يزال، أما الإنسان ففان يموت، وكذلك السخي والكريم.

فالتوحيد له معنى واسع يشمل الإقرار بوجود الخالق رب العالمين وبأنه واحد أحد ليس كمثله شيء في ذاته وصفاته.

وفي القرآن آيات عديدة في معنى التوحيد ذكرت منها ٣٦ آية كما جاء في كتاب المعجم الصوفي نقلاً عن الشيخ محيي الدين بن العربي وهذه الآيات الكريمة:

١- ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾

٢- ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾

٣- ﴿الم اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾

٤- ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

٥- ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ * وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾

٦- ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾

٧- ﴿اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾

٨- ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾

٩- ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

١٠- ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾

١١- ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾

١٢- ﴿فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾

١٣- ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾

١٤- ﴿أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾

١٥- ﴿فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى * ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾

١٦ ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾

١٧- ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾

١٨- ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾

١٩- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

٢٠- ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾

٢١- ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾

٢٢- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

٢٣- ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾.

٢٤- ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾.

٢٥- ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

٢٦- ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾.

٢٧- ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾.

٢٨- ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾.

٢٩- ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

٣٠- ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

٣١- ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

٣٢- ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾.

٣٣- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾.

٣٤- ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾.

٣٥- ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ﴾.

٣٦- ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

فالقرآن الكريم هو كتاب التوحيد الإلهي، والتوحيد هو شعار الدين الإسلامي الحنيف وقد سعى الفقهاء وأئمة المذاهب وعلماء الكلام إلى بيان أسماء الله وصفاته لتحقيق معنى الوحدانية ولإزالة كل الشبهات في هذا المنهج القرآني.

ودليل هذا الشعار هو «لا إله إلا الله» ولهذه الكلمة أثر روحي إيماني كبير في نفوس المسلمين، وفي ميدان التصوف ذوق خاص لهذه الكلمة العظيمة وكيف؟

ذكرنا أن أساس التصوف هو المداومة على ذكر الله سبحانه ونعني به «الله» أو «لا إله إلا الله» ذلك أن الذكر جاء بمعنى القرآن والصلاة والتذكر وغيرها ولكن المقصود هنا في دائرة التصوف هو «الله» أو «لا إله إلا الله» أي التوحيد. ويقال لذكر التوحيد «ذكر النفي والإثبات» بمعنى أنه حين يقال «لا اله» فهو نفي وحين يقال «الا الله» فهو إثبات.

وليس الأمر بهذه البساطة بل له أسلوب خاص سأتناوله في موضوع «الذكر». وباختصار حينما يقول العبد «لا إله» لا بد أن يستجمع فكره وعقله وإحساسه كله على أنه لا معبود بحق ولا أحد له وجود أزلي وأبدي «إلا الله». ويظل يذكر «الله» مرات تبلغ الملايين إلى أن يفنى السالك المريد ويسمى هذا الفناء «الفناء في النفي والإثبات» وفي هذه الحال يفنى كل شيء فيه «سوى الله» فيتجلى أمامه بعض أسرار من الغيب وتفيض عليه بركات من فضل الله. وقد يغيب البعض في هذه الحال فتصدر منه أمور خارجة عن إطار العقل والشرع ويتهم من أجلها بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود، وليس شيء من هذا القبيل في هذه الحال ولكنها تعبر عن حال الفناء، ولكنه ما يلبث أن يعود إلى وعيه وحضوره وإلى حالة البقاء بالله. وللإمام الرباني الشيخ أحمد الفاروقي الذي يأتي مقامه العالي في التصوف بعد الشيخ محمد بهاء الدين النقشبند في الطريقة النقشبندية والمعروف بالمُجدِّد للألف الثاني بحث صوفي في حالة الفناء في التوحيد يليق بمن يعيش هذه الحال أو يريد سلوكها كما جاء في مكتوباته. أما نحن فيعنينا أن نعلم ما هو التصوف. لا أن نتعلم كيف نكون متصوفين. ويكفينا هنا أن التوحيد هو أعلى مقامات التصوف وأن كل المقامات والبركات مستمدة من التوحيد.

وتحدث بعضهم عن توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية وتوحيد العبودية ويقصدون بتوحيد الألوهية وحدانية ذات الله سبحانه، وبتوحيد الربوبية الإيمان بأنه لا خالق ولا رزاق ولا محيي ولا مميت إلا الله، أما

توحيد العبودية فيعني عبادة الله وحده والتسليم إليه وحده والتوكل عليه وحده.

ولمشايخ التصوف أقوال عديدة في معنى التوحيد يحتاج جمعها إلى كتاب مستقل وقد عبر كل منهم عن الحال التي شعر بها وهو ميدان خاص بالراسخين في علم هذا الميدان.

٢٢) التجريد - ٢٣) التفريد:

التجريد: هو طرد الأعراض، والتفريد مأخوذ من الفرد ﴿لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ الأنبياء ٨٩.

وفي مصطلح التصوف كيفيات تمرُّ بالسالك السائر في طريق التصوف مثلها مثل التوحيد، والتنزيه، وهي مقامات الأولياء الذين اجتازوا مرحلة الفناء ورَسَت مسيرتهم في مرفأ البقاء فتنزل عليهم البركات بفضلٍ من الله سبحانه وجهاد لهم في محراب العبودية له.

وقد ذكر صاحب كتاب مدارج السالكين التجريد والتفريد ضمن قسم الفناء والبقاء وقال: إن الفناء والبقاء هذه هي حقيقة التوحيد والبراءة والولاء والمحو والإثبات، والتجريد والتفريد. وقال «فيتجرد عن عبادة ما سواه ويفرده وحده بالعبادة فالتجريد نفي والتفريد إثبات ومجموعهما التوحيد» ثم قال «إن أَوْلى الناس بالله ورسله وكتبه ودينه أصحاب الفرق في الجمع فيقومون بالفرق بين ما يحبه الله ويبغضه ويأمر به وينهى عنه ويواليه ويعاديه علماً وشهوداً وإرادة وعملاً مع شهودهم الجمع لذلك كله في قضائه وقدره ومشيئته الشاملة العامة، فيؤمنون بالحقيقة الدينية والكونية ويعطون كل حقيقة حظها من العبادة، فحظ الحقيقة الدينية القيام بأمره ونهيه، ومحبة ما يحبه وكراهة ما يكرهه وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه وأصل ذلك الحب فيه والبغض فيه. وحظ الحقيقة الكونية إفراده بالافتقار إليه والاستعانة به والتوكل عليه والالتجاء إليه

وإفراده بالسؤال والطلب والتذلل له والخضوع والتحقق بأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ولا يملك أحد سواه لهم ضرًّا ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشورا».

وفي المعجم الصوفي «التفريد مرحلة يصلها السالك بعد التجريد فإذا جرّد السالك عن قلبه وسره الكون والسوى أفراد الواحد».

وفي كتاب اللمع: التفريد إفراد المفرد برفع الحدث وإفراد القدم بوجود حقائق الفردانية وقال: قال بعضهم «الموحدون لله من المؤمنين كثير والمفرّدون من الموحدين قليل. وقال أيضاً: التجريد ما تجرد للقلوب من شواهد الألوهية إذا صفا من كدورة البشرية[1].

وعرفه بعضهم[2] بأن «التجريد خلو قلب العبد وسره عما سوى الله بمعنى أن يتجرد بظاهره عن الأعراض وباطنه عن الأعواض وهو أن لا يأخذ من عرض الدنيا شيئاً ولا يطلب عما ترك منها عوضاً من عاجل أو آجل بل يفعل ذلك لوجوب حق الله تعالى عليه لا لعلة غيره ولا لسبب سواه، ويتجرد بسره عن ملاحظة المقامات التي يحلها، والأحوال التي ينزلها بمعنى السكون لها والاعتناق لها. والتفريد هو أن تكون أفعاله لله وحده دون رياء أو سمعة ولا يخاف إلا من الله ولا يفرح إلا بقربه سبحانه ومن التعاريف المشهورة: «التفريد أن لا تُملَكْ والتّجريد أن لا تملِكْ».

وجاء في كتاب ألفاظ الصوفية: «التفريد أن يكون العبد مع ربه متوكلاً عليه وحده والتجريد هو الإعراض عن الدنيا كلها، والعمل الصالح لا من أجل ثواب أو جزاء لا في الحاضر ولا في المستقبل وهو عدم انشغال القلب بالأحوال والمقامات أو المطالبة بالمزيد منها بل تزكية النفس عن هذه الأمور وطمأنتها بما أراده الله له من أي حال أو

(١) اللمع ص٤٢٥.
(٢) معجم مصطلحات الصوفية ص٤١.

مقام» ثم قال: التفريد هو أحدية الله سبحانه والتجريد أن ينقطع الإنسان عن طلب شيء.

وورد فيه أيضاً: التجريد والتفريد والتوحيد مترادفات لها معنى واحد لا يعرف ما بينها من فرق دقيق لطيف إلا من ذاق الثمار الطيبة لهذه المقامات وأحس بالطعم الخاص لكل منها.

٢٤) التنزيه:

وله في التصوف معنى دقيق يختلف عن المعنى اللغوي المعروف، ويقابله التشبيه قال تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ الشورى ١١.

ومثله مثل التوحيد والتجريد والتفريد ليست له صورة واحدة فكما أن هنالك فرقاً بين توحيد عبد صالح وبين عبد غير صالح فإن التنزيه كذلك.

والمقصود بالتنزيه هنا هو الإيمان بأن الله سبحانه منزه عن الحوادث وهو قديم وواجب الوجود، أزلي أبدي لا أول له ولا آخر «هو الأول والآخر والظاهر والباطن» ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾. والله حي لا يموت. أما نحن ففانون فنأتي جماعات وفرادى ثم نذهب وقد لا يبقى أحد منا بعد قرن من الآن.

نزلت آيات كريمة في تنزيه الله سبحانه فقال تعالى ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ الصافات ١٨٠ وقال سبحانه ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾.

وقد بين القرآن الكريم أنه سبحانه عليم سميع بصير... ولكننا لا ندرك كنه هذه الصفات الإلهية. فعلينا أن نقر بهذه المعتقدات بمعناها اللائق بذاته سبحانه وهو معنى التنزيه ذلك أنه إقرار هذه المعتقدات في قلب السالك والاعتقاد بأن الله سبحانه منزه عن الصفات الآدمية. ومن

المحال أن ندرك معاني صفاته الإلهية في حدود التجربة البشرية لا في حقيقتها الإلهية.

٢٥) العبودية:

العبودية تشمل الصالح والطالح، والمؤمن والكافر بمعناها اللغوي. فالمؤمن هو من اتخذ سبيل الإيمان والمسلم من اعتنق الدين الحنيف أما العبد فتتحقق عبوديته بوجوده شاءَ أمْ أبى.

ولكن العبودية ترقى إلى مقام كبير في التصوف ذلك أنها تعني عندهم تحقيق معنى العبودية بتنفيذ أوامره سبحانه. وجاءت مادة «عبد» «عباد» «اعبد» في أكثر من مائتي موضع في القرآن الكريم.

والعبودية الصوفية تشمل جميع الأحوال والمقامات ذلك أنها تتحقق في إطار العبودية لله سبحانه كالزهد والتوكل والقناعة وغيرها.

ومن دلائل علو هذا المقام أن الله سبحانه يصف أنبياءه، ورسله به فيصفهم بِنِعْمَ العبد، وقال سبحانه بحق سيدنا محمد ﷺ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ وقال ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

وحينما هدد الشيطان الإنسان بالإغواء والإضلال قال له سبحانه ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ وقال سبحانه في وصف الصالحين «التائبون العابدون» وفي آيةٍ كريمة أخرى ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾.

ويتبين من هذا أن هنالك بونا شاسعاً بين عبودية وأخرى. نقل الإمام القشيري في رسالته[1] أقوال أعلام من التصوف بشأن العبودية، وقال سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق رحمه الله يقول:

---

(١) الرسالة القشيرية ص٩١.

العبودية أتم من العبادة، فأولا عبادة ثم عبودية ثم عبودة.

فالعبادة للعوام من المؤمنين والعبودية للخواص، والعبودة لخاص الخواص. وسمعته يقول: العبادة لمن له علم اليقين والعبودية لمن له عين اليقين والعبودة لمن له حق اليقين وقال: العبودة ترك الاختيار.

وقال ذو النون المصري: العبودية أن تكون عبده في كل حال كما أنه ربك في كل حال. وقال الجريري «عبيد النّعم كثيرٌ عددهم، وعبيد المنعم عزيز وجودهم». قال رسول الله (ﷺ): تعس عبد الدينار تعس عبد الخميصة.

قال عبدالله بن منازل: العبد عبد ما لم يطلب لنفسه خادماً فإذا طلب لنفسه خادماً فقد سقط عن حد العبودية وترك آدابها. وقيل العبودية شهود الربوبية.

وجاء في كتاب ألفاظ الصوفية: إن رجال التصوف يقصدون من كلمة العبد مقام العبودية ومن كلمة الرب «مقام الربوبية». والعبودية لعباد الله الصالحين. فإذا أراد الله سبحانه أن ينعم على عبده بنعمة العبودية رفعه إليه وحرره من إسار شهواته. وحينذاك يتنقل في نعم وطيبات روحية لا تخطر على قلب بشر، فينسى نفسه ولا يذكر إلا ربه، وهذا هو المقصود بقوله تعلى ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾.

فالعبد الحقيقي هو أن يكون قلبه حرًّا عن جميع ما سوى الله ﷻ ومثله يستحق أن يكون عبداً لله كما جاء في القرآن الكريم بشأن عيسى ﷺ ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ سورة مريم ٣٠... وما سمى الله تعالى المؤمنين باسم أحسن من العبد، إذ يقول ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ ثم سمى به أنبياءه ورسله عليهم السلام فقال: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ﴾ ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا﴾ ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾. وكان رسول الله قد ورمت قدماه من كثرة القيام ليلاً فقيل له يا رسول الله ﷺ أليس قد غفر الله لك ما تقدم

من ذنبك وما تأخر فقال ﷺ **(أفلا أكون عبدا شكورا)**. وقال: خُيِّرتُ بين أن أكون نبيًّا ملكاً ونبيًّا عبداً فاخترتُ أن أكون نبيًّا عبداً[1].

والعبودة عندهم كما جاء في معجم مصطلحات الصوفية: هي العبادة له تعالى إجلالاً وهيبة وحياء منه ومحبة له وهي أعلى من العبودية التي هي أعلى من العبادة فالعبادة محلها البدن وهي إقامة الأمر، والعبودية محلها الروح وهي الرضا بالحكم، والعبودة محلها العبادة بالسر.

وسأفصله عند بيان الطريقة النقشبندية، ولكني أقول هنا: إن السر من المدركات المعنوية وهي القلب والروح والسر والخفي والأخفى. وجاء في المعجم نفسه: إن سيدنا أبا بكر كان في هذا المقام. جاء في الحديث الشريف: «لم يفضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة وإنما فضلكم بشيء وقر في صدره وذلك الشيء عظمة الله وإجلاله» والعبودة والعبودية في اللغة العربية كما جاء في القاموس «منتهى العبودية».

(١) معجم مصطلحات الصوفية ١٨٢.

الباب الرابع

الأحـــوال

١ - القبض والبسط

٢ - المحو والإثبات، الصحو والسكر، الغيبة والشهود

٣ - الشوق

٤ - الأنس

٥ - الوجد

٦ - الجلال والجمال

٧ - الكمال - الكامل - المكمّل

٨ - المحبة

٩ - اللوائح والطوالع واللوامع

١٠- الجذب

١١- الوارد

الأحـــوال

١) القبض والبسط

هما حالان يمر بهما السالك ففي حال القبض يشعر الإنسان بالضيق وفي حال البسط يشعر بالراحة والفرح.

وجاء في كتاب ألفاظ الصوفية: إن القبض يحصل بسبب تسلط الخوف وأما البسط فيحصل بسبب تسلط الرجاء. ففي حالات التفكر في آيات العذاب والوعيد يحصل القبض وفي حالات التأمل في آيات الرجاء والغفران يتوجه البسط إلى قلب السالك ويرى البعض أنه عندما تتجلى صفة الجلال يحصل القبض وعندما تتجلى صفة الجمال يحصل البسط. وفي بعض الأحيان يحصل القبض خوفاً من زوال ما هو فيه من البركات القلبية التي لا يحسها إلا السالك ولا يعلمها إلا الله، وقد يحصل البسط أملاً في الوصول إلى المواهب القلبية. قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي «١١٩٦-١٢٥٨»:

القبض ظلمة تظهر تحت النور. والبسط نور إلهي يستر قلب السالك. وبعبارة أخرى: البسط نور على نور، أما القبض فظلمة تحت نور. قال الإمام القشيري[١]:

---

(١) الرسالة القشيرية ص٣٢.

«القبض والبسط حالتان بعد ترقي العبد عن حالة الخوف والرجاء فالقبض للعارف بمنزلة الرجاء للمستأنف: وقال إن حالتي الهيبة والأنس فوق القبض والبسط فكما أن القبض فوق رتبة الخوف، والبسط فوق منزلة الرجاء، فالهيبة أعلى من القبض والأنس أتم من البسط. وقال: فصاحب الخوف والرجاء تعلق قلبه في حالتيه بآجله، أي إما خائف أو آمل ولكن صاحب القبض والبسط أخيذ وقته بوارد غلب عليه في عاجله، أي إما فرح في حاله أو مقبوض كذلك.

قال الشيخ عمر السهروردي[١] ص٣٦٠:

القبض والبسط حالان شريفان. وقال: وقد تكلم فيهما الشيوخ وأشاروا بإشارات هي علامات القبض والبسط ولم أجد كشفاً عن حقيقتهما لأنهم اكتفوا بالإشارة والإشارة تقنع الأهل. وأحببت أن أشبع الكلام فيهما. وقال:

إن القبض والبسط لهما موسم معلوم ووقت محتوم لا يكونان قبله ولا يكونان بعده ووقتهما وموسمهما في أوائل حال المحبة الخاصة لا في نهايتها ولا قبل المحبة الخاصة فمن هو في مقام المحبة العامة الثابتة بحكم الإيمان لا يكون له قبض ولا بسط وإنما يكون له خوف ورجاء. وقد يجد شبه حال القبض وشبه حال البسط ويظن لك قبضاً وبسطاً وليس ذلك وإنما هو همٌّ يعتريه فيظنه قبضاً واهتزازاً. أو سرور نفساني ونشاط طبيعي يظنه بسطاً.

وقال صاحب الطريقة السهروردية بعد ذلك:

والهم والنشاط يصدران من محل النفس ومن جوهرها لبقاء صفاتها وما دامت صفة «الإمارة» فيها باقية على النفس يكون منها الاهتزاز

---

(١) عوارف المعارف ص٣٦٠.

والنشاط، والهم وهج ساجور النفس والنشاط ارتفاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع فإذا ارتقى من حال المحبة العامة إلى أوائل المحبة الخاصة يصير ذا حال وذا قلب وذا نفس لوّامة ويتناوب القبض والبسط فيه عند ذلك لانه ارتقى من رتبة الإيمان إلى رتبة اليقين، وحال المحبة الخاصة فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى. ثم قال: إن وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبتها وظهور البسط لظهور صفة القلب وغلبته. والنفس ما دامت لوامة فتارة مغلوبة وتارة غالبة وما القبض والبسط إلا لظهور الصفتين، وصاحب القلب تحت حجاب نوراني لوجود قلبه كما أن صاحب النفس تحت حجاب ظلماني لوجود نفسه فإذا ارتقى من القلب وخرج من حجابه لا يفيده الحال ولا يتصرف فيه، فيخرج من تصرف القبض والبسط حينئذ فلا يقبض ولا يبسط ما دام متخلصاً من الوجود النوراني الذي هو القلب ومتحققاً بالقرب من غير حجاب النفس والقلب، فإذا عاد إلى الوجود من الفناء والبقاء يعود إلى الوجود النوراني الذي هو القلب فيعود القبض والبسط إليه عند ذلك، ومهما تخلص إلى الفناء والبقاء فلا قبض ولا بسط.

وقال نقلاً عن أحدهم «أولا القبض ثم البسط ثم لا قبض ولا بسط، لأن القبض والبسط يقع في الوجود فأما مع الفناء والبقاء فلا». ومقصودنا هنا بيان أن القبض والبسط حالان للسالك الصوفي في أولهما يشعر بحال من الاكتئاب المطبق وفي ثانيهما يشعر بفرح السعادة الغامرة.

٢) المحو والإثبات، الصحو والسكر، الغيبة والشهود:

قال السهروردي في كتابه عوارق المعارف:

المحو بإزالة أوصاف النفوس والإثبات بما أدير عليهم من آثار الحب كؤوس، والمحو محو رسوم الأعمال بنظر الفناء إلى نفسه ومأمنه، والإثبات إثباتها بما أنشأ الحق له من الوجود به، فهو بالحق لا بنفسه،

بإثبات الحق إياه مستأنفاً بعد أن محاه عن أوصافه. . وقال بشأن الصحو والسكر:

السكر استيلاء سلطان الحال والصحو العود إلى ترتيب الأفعال وتهذيب الأقوال. قال محمد بن خفيف «السكر غليان القلب عند معارضات ذكر المحبوب. وفيه «إن مقامات الوجد أربعة: الذهول ثم الحيرة ثم السكر ثم الصحو.

وفيما يتعلق بالغيبة والشهود قال السهروردي:

الشهود هو الحضور وقتاً بنعت المراقبة ووقتاً بوصف المشاهدة فما دام العبد موصوفاً بالشهود والرعاية فهو حاضر فإذا فقد حال المشاهدة والمراقبة خرج من دائرة الحضور فهو غائب وقد يعنون بالغيبة عن الأشياء بالحق فيكون على هذا المعنى راجعاً إلى مقام الفناء.

وقال القشيري: المحو رفع أوصاف العادة والإثبات إقامة أحكام العبادة، فمن نفى عن أحواله الخصال الذميمة وأتى بدلها بالأفعال والأحوال الحميدة فهو صاحب محو وإثبات.

ثم قال: أما حقيقية المحو والإثبات فصادران عن القدرة فالمحو ما ستره الحق ونفاه والإثبات ما أظهره الحق وأبداه قال الله تعالى ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ﴾.

وقال بشأن الصحو والسكر:

الصحو رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة، والسكر غيبة بوارد قوي (من البركات). فالغيبة تحصل ببركة ونور أما السكر فهو أقوى من الغيبة في درجة البركة.

وقال بشأن الغيبة والحضور:

«الغيبة غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد عليه ثم قد يغيب عن إحساسه بنفسه وغيره بوارد مِنْ تَذَكُّر

ثواب أو تَفَكُّر عقاب» فيبلغ حدًّا ينسى فيه نفسه ولا يفكر في ثواب أو عقاب وقد يمس النار في هذه الحال دون أن يحس بالحرقة والحرارة. جاء الشبلي مرة إلى الجنيد وهما من أعلام التصوف، فأرادات امرأة الجنيد أن تستتر فقال لها الجنيد، لا خَبَر للشبلي عنكِ فاقعدي فلم يزل يكلمه الجنيد حتى بكى الشبلي فلما أخذ الشبلي في البكاء قال الجنيد لامرأته استتري فقد أفاق الشبلي من غيبته. وقل السهروردي: سمعت أبا نصر المؤذن بنيسابور وكان رجلاً صالحاً قال: كنت أقرأ القرآن في مجلس الأستاذ أبي علي الدقاق بنيسابور وقتَ كونه هناك، وكان يتكلم في الحج كثيراً فأثر في قلبي كلامه فخرجت إلى الحج تلك السنة وتركت الحانوت والحرفة وكان الأستاذ أبو علي ﷺ خرج إلى الحج أيضاً في تلك السنة وكنت مدة كونه في نيسابور أخدمه وأواظب على القراءة في مجلسه فرأيته يوماً في البادية تطهر ونسي قمقمة كانت بيده فحملتها فلما عاد إلى رحله وضعتها عنده، فقال جزاك الله تعالى خيراً حيث حملت هذا، ثم نظر إليّ طويلاً كأنه لم يرني قط وقال رأيتك مرة من أنت؟ فقلت المستغاث بالله صحبتُك مدة وخرجْتُ عن مسكني ومالي بسببك وتقطعت في المفازة بك والساعة تقول: رأيتك مرة!!!

وهذه حالة الغيبة، وأما الحضور فهو أنه إذا غاب عن الخلق حضر بالحق على معنى أنه يكون كأنّه حاضر لاستيلاء ذكر الحق على قلبه فهو حاضر بقلبه بين يدي ربه فعلى حسب غيبته على الخلق يكون قربه من الخالق، فإن غاب بالكلية كان الحضور على حسب الغيبة، فإذا قيل فلان حاضر فمعناه أنه حاضر بقلبه لربه غير غافل عنه، ثم يكون مكاشفاً في حضوره على حسب رتبته بمعان يخصه الحق سبحانه وتعالى بها. وقد تختلف أحوالهم في الغيبة فمنهم من لا تمتد غيبته ومنهم من تدوم غيبته.

وقد حُكي أن ذا النون المصري بعث إنساناً من أصحابه إلى أبي يزيد فلما جاء الرجل إلى بسطام سأل عن دار أبي يزيد فدخل عليه فقال

أبو يزيد: ما تريد؟ فقال: أريد أبا يزيد فقال: من أبو يزيد؟ وأين أبو يزيد أنا في طلب أبي يزيد، فخرج الرجل وقال: هذا مجنون فرجع الرجل إلى ذي النون فأخبره بما شهد فبكى ذو النون وقال: أخي أبو يزيد ذهب في الذاهبين إلى الله[1].

وفي كتاب معجم مصطلحات الصوفية ورد بشأن السكر والصحو، أنَّ السكر مقام شريف من مقامات الأولياء لا يعقبه الفناء، ولا يصله العلم، والصحو مقام فوق السكر مثله كمثل البسط وهو مقام لا يطلب ولا ينتظر وهو مقام مطهر من الكدورات، وجاء أيضاً أن الغيبة ثلاث درجات: غيبة المريد فهو يغيب عن ماله وولده ولا يتعلق قلبه بشيء من الدنيا ولا يخاف من شيء. وغيبة السالك فهو ينسى علم وفرص الحياة. وغيبة العارف هو أن يغيب عن الأحوال والدرجات ودخل «الجمع» فاقترب من لطفه سبحانه. وفي كتاب معجم مصطلحات الصوفية: المحو رفع أوصاف العادة بحيث يغيب العبد عندها عن عقله ويحصل منه أفعال وأقوال لا مدخل لعقله فيها كالسكر من الخمر. ومحو الجمع والمحو الحقيقي هو فناء الكثرة في الوحدة. والإثبات ضد المحو وهو إقامة أحكام العبادة. والصحو هو رجوع العارف إلى الإحساس بعد غيبته وزوال إحساسه وعكسه السكر ومعناه من معنى الحضور والغيبة والفرق بين الحضور والصحو أن الصحو حادث والحضور على الدوام، والصّحو والسُّكر أتمُّ وأقهر من الحضور والغيبة.

وفي نفس المصدر ورد أن الغيبة غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد إليه، وقيل أن يغيب عن حظوظ نفسه فلا يراها لأنه غائب عنها بشهود ما للحق، وورد في نفس المصدر أن الشهود أن يرى حُظوظ نفسه فهو يقابل الغيبة.

---

(١) انظر عوارف المعارف ص٣٨.

قال الشيخ محي الدين بن العربي: المحو والإثبات من ثنائيات التصوف كالفناء والبقاء. وعندما يفقده المحو الوعي بنفسه فهو في أشد حالات الحضور ومعنى ذلك أنه يغيب هنا ويحضر هناك.

أما السحق كما قال محي الدين بن العربي، فهو الشعور بفناء جسده بسبب تجلي نور الله سبحانه والمحق أقوى من السحق وهو أن لا يشعر السالك بوجود نفسه ولا يحس بشيء في الكون سوى قدرته سبحانه. ويؤمن بأن كل شيء يقع بإرادته وقدرته.

٣) الشوق:

وهو عند بعض أعلام التصوف حالة تعقب المحبة.

وفي معجم مصطلحات الصوفية:

الشوق هيجان القلب عند ذكر المحبوب. والفرق بين الشوق والاشتياق أن الشوق يسكن باللقاء والاشتياق لا يزول باللقاء بل يزيد ويتضاعف.

والمقصود بالشوق هنا ما يعرض لسالكي الطريق الصوفي وهو حالة خاصة لها عالم خاص ولا يمكننا الإحاطة بما قيل في الأحوال والمقامات التي تحصل لأرباب الطريق. وقد ذكر الشيخ السهروردي رأيه ورأي بعض أعلام التصوف في الشوق. يقول بعضهم «الشوق للغائب وما دام الله سبحانه حاضراً فلا يكون الشوق» فهو حالة تحصل قبل المشاهدة لذا يرى السهروردي أن الشوق من أحوال المحبة. ومن أحب الله سبحانه اشتاق إليه وإن حال الشوق والمحبة لا تنفك عنه.

ثم قال السهروردي: وهذه أحوال قوم من المحبين أقيموا مقام الشوق والشوق من المحبة كالزهد من التوبة إذا استقرت التوبة ظهر الزهد وإذا استقرت المحبة ظهر الشوق.

وسئل ابن العطاء عن الشوق فقال: احتراق الأحشاء وتلهب القلوب وتقطع الأكباد، وسئل عن الشوق فقيل له: الشوق أعلى أم المحبة فقال المحبة لأن الشوق يتولد.

وفي كتاب منازل السائرين: للشوق ثلاث درجات. شوق العابدين من أجل الجنة والخلاص من نار جهنم، وشوق الوصول إلى الله سبحانه، والدرجة الثالثة هي نار المحبة في القلب تتلظى لا يطفيها سوى لقاء ربه سبحانه بالبصيرة، وجاء في كتاب اللمع «والشوق يقتضي الأنس».

وقد افتتح القشيري بحثه في باب الشوق بقوله تعالى، من كان يرجو لقاء الله فإنَّ أجل الله لآت.

قال يحيى بن معاذ «٢٥٨هـ»:

علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات.

ومن الرسالة القشيرية أيضاً سمعتُ السري يقول:

الشوق أجلُّ مقام للعارف إذا تحقق فيه.

«نرى هنا، كل منهم يتكلم عما جربه بنفسه وشاهده ببصيرته وتذوقه في أحواله».

٤) الأُنس:

الأنس من حالات التصوف ومعناه هوان قلب السالك يتعلق بحب ربه ولا يأنس قلبه إلا بالله سبحانه. والصوفي في هذه الحال يود العزلة عن الناس ويتمنى أن لا يقرب منه أحد. وإذا التقى جماعة فإنه يكون معهم بجسده ويكون مع ربه بقلبه. فهو سعيد ومسرور بأُنسه بربه مهما صادفته المنغصات الحياتية فلا يريد أن ينغص عليه أحد ما هو فيه من سعادة وأن أحب شيء لديه في هذه الحال هو ذكر ربه، والأنس قد يبلغ

حد الكشف والشهود عند كبار المشايخ الصوفية. وإن هذه الدرجة هي من الحالات الوجدانية التي تعجز التعابير اللغوية عن الوفاء والإحاطة بمضمونها. وإن عجز اللغة عن استيعاب معاني هذه الأحوال والمقامات الصوفية هو السبب في أن كثيراً من مقاصد التصوف ظل في القلوب دون أن نجد ما يعبر عنها، فلا نجد لغة لها ولكلٍ عالم مستقل يختلف عن الآخر ومثل هذا مثل من يدعو الوفا من الناس لحضور وليمته ويعد لكل منهم قصراً خاصًّا فيه مطعم خاص به، فصاحب الدعوة واحد والكل مدعوون ولكن حال كل واحد يختلف عن حال الآخر في المنزل والمطعم ولا شك أن أي واحد منهم يروي قصة تختلف عن قصة الآخر في هذه الدعوة، وفي هذه الحال تعجز اللغة عن وصفها فهي أمور معنوية تدرك بعين البصيرة ولا نفهم منها إلا ما ظهر من الأقوال المروية عنهم. جاء في كتاب معجم مصطلحات الصوفية:

الأنس التذاذ الروح بكمال الجمال، وهو إثر مشاهدة الحضرة الإلهية في القلب وهو جمال الجلال وقيل الأنس ضد الهيبة وقيل مع الهيبة.

وقيل(١): وأهل الأنس في الأنس على ثلاثة أحوال:

فمنهم من أنس بالذكر واستوحش من الغفلة وأنس بالطاعة واستوحش من الذنب، والحال الثاني من الأنس فهو لعبد قد استأنس بالله واستوحش مما سواه من العوارض والخواطر المشغلة، والحال الثالث هو الذهاب عن رؤية الأنس بوجود الهيبة والقرب والتعظيم مع الأنس.

نقل عن داود الطائي المتوفي ١٦٥هـ أنه صادفه صوفي وسأله: يا أبا سليمان ما هذا الفرح البادي عليك؟ فقال له: لقد سُقيت فجر اليوم شراب الأنس.

---

(١) اللمع ص٩٦.

فالأنس هو حالة من السرور والسعادة تحصل عند الإحساس بالقرب منه سبحانه ويتجلى نوره سبحانه في قلب المؤمن فتملأ قلب الصوفي سعادة غامرة تجعله لا يود أن يقترب منه أحد فينغص عليه سعادته.

٥) الوجد:

وهو من الأحوال الصوفية.

جاء معنى الوجد[١]: ما صادف القلب من فرح أو غم أو خوف أو رؤية معنى من أحوال الآخرة أو كشف حالة بين العبد وبين الله ﷻ.

قال الشيخ السهروردي[٢]: الوجد: ما يرد على الباطن من الله يكسبه فرحاً أو حزناً ويغيره عن هيئته. والتواجد: استجلاب الوجد بالذكر والتفكر، والوجود: اتساع فرحة الوجد بالخروج إلى فضاء الوجدان، والوجد بعرضية الزوال والوجود ثابت بثبوت الجبال. وقال أيضاً الغلبة: وجد متلاحق فالوجد كالبرق يبدو والغلبة كتلاحق البرق وتواتره، ثم قال: مقامات الوجد أربعة الذهول ثم الحيرة ثم السكر ثم الصحو كمن سمع بالبحر ثم دنا منه ثم دخل فيه ثم أخذته الأمواج فعلى هذا من بقي عليه أثر من سريان الحال فيه فعليه أثر من السكر ومن عاد كل شيء منه إلى مستقره فهو صاح، فالسكر لأرباب القلوب، والصحو للمكاشفين بحقائق الغيوب.

وكما قلنا: الوجد من الأحوال التي يحس بها الصوفي وقد يحصل لأي مسلم عند قراءة القرآن الكريم أو سماع شيء مؤثر فقد يصيح أو يبكي وهذا هو الوجد وهو هيجان القلب ويدل على هذا قوله سبحانه

---

(١) التعرف لمذهب التصوف ص١١٢.

(٢) عوارف المعارف ٣٦٧.

﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ الأنفال ٢ ويرى أعلام من التصوف أن السالك ترقى درجته إذا ضبط نفسه في حالات الوجد ولم يصدر منه صياح أو صراخ، ويرى بعضهم أنها صحيحة ولكن الجولان أنسب لبعض من حالات الوجد ولكلٍ دليل. ولكن الرأي الغالب هو أن الإمساك أفضل في هذه الحالات.

وعلينا أن نعلم أن الوجد هو من حالات المبتدئين أي من حالات الذين هم لا زالوا في مقام التلوين ولا تحصل هذه الحالة لمن بلغ مقام التمكين.

والحقيقة أن القرآن الكريم أشار إلى تغيّر الأحوال ومدح القلوب الخاشعة وذم القلوب القاسية فلنتأمل هذه الآيات الكريمة ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ الأنفال ٢ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ الزمر ٢٣ ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا﴾ مريم ٥٨.

﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ﴾ المائدة ٨٣.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩﴾ الإسراء ١٠٩.

ويفهم بصورة واضحة من هذه الآيات الكريمة أن الله سبحانه يذكر أرباب القلوب الوجلة والعيون الدامعة، والجلود المقشعرة والجباه الساجدة «وجلت قلوبهم» «تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم» «خروا سجداً وبكيًّا» «ترى أعينهم تفيض من الدمع».

﴿وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩﴾

هي حالات أحس فيها العبد الصالح بالخوف من الله سبحانه فتهيج قلوبهم بالمحبة، وفاضت عيونهم بالدمع بذكر الله أو عند قراءة القرآن

الكريم. وفي آيات أخرى يذم القرآن أصحاب القلوب القاسية التي أصابها الرَّين، فقال تعالى في سورة البقرة بشأن بني إسرائيل ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ﴾.

وقال تعالى ﴿وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ «الحديد ١٦» وقال تعالى في «سورة الزمر ٢٢» ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾. ونقصد بما ذكرنا واستشهدنا: إن حالة الوجد والبكاء والقشعريرة عند قراءة القرآن الكريم وذكر الله سبحانه تحصل للمؤمنين العابدين وإن سالكي التصوف هم العباد المؤمنون حقًّا. وقسوة القلب عند ذكر الله وقراءة القرآن الكريم هي مظهر الرّين والظلمة، أعاذنا الله منها.

٦) الجلال والجمال:

كلمتان تردان معاً في كُتُب التصوف أولاهما تعني العظمة والثانية من الجميل الحسن.

وهما هنا من صفات الله سبحانه، وقد يحس بهما سالك الطريق الصوفي قال سبحانه ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ «الرحمن ٢٦، ٢٧». وقال سبحانه ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ «الرحمن ٧٨».

وقد يتذوق السالك من جلال العظيم أو من جماله في حال السلوك فإن منح الله سبحانه تجلياً لصفة جلاله في قلب عبده السالك فإن الدهشة تملأ قلبه، وإن منح الله سبحانه تجلياً لصفة جماله في قلب عبده فإن حالة من الرغبة تملأ قلبه. فالسالك يفنى في تجلي الجلال ويحيا في تجلي

الجمال. وهذا الفناء والحياة أمران معنويان لا يقاسان بالميزان المادي وحالان لا يدركهما إلا من أحس بهما. ويُفهم مما سبق أن كشف الجلال يؤدي إلى المحو والغيبة وقد ذكرناهما تفصيلاً أما كشف الجمال فيؤدي إلى الصحو والقرب من الله سبحانه، قال الشيخ محي الدين العربي: «العارفون بالله إذا كاشفهم بجلاله غابوا وأما المحبون إذا كاشفهم بجماله طابوا». ثم قال: «فمن غاب فهو مهيم ومن طاب فهو متيم»، وقال: «الجلال صفة الجبروت لله سبحانه والجمال من صفات اللطف والرحمة».

وفي كتاب معجم مصطلحات الصوفية: الجلال صفة القهر وهو عبارة عن صفة العظمة والكبرياء والمجد والسناء، وكل جمال له جلال فإن شدة ظهوره يسمى جلال كما أن كل جلال فهو في مبادئ ظهوره على الخلق يُسمَّى جمالاً، ومن هنا قيل إن لكل جمال جلالاً ولكل جلال جمال. وأما الجلال المطلق والجمال المطلق فإنه لا يكون شهوده إلا لله وحده لأن الجلال ذاته باعتبار ظهوره من أسمائه وصفاته كما هي عليه له في حقه. واسم «الله» فيه معنى الجلال والجمال.

وجاء في نفس المصدر أن الجمال يطلق على معنيَيْن أحدهما الجمال الذي يعرفه الجمهور مثل صفاء اللون ولين الملمس وحسن المنظر وثانيهما الجمال الحقيقي وهو صفة أزلية لله سبحانه، وعند الجرجاني: الجمال من الصفات ما يتعلق بالرضا واللطف، وعند الكاشاني: الجمال هو أوصاف لطف الله ورحمته، وقال ابن الدباغ: الجمال مطلق ومقيد وفيه مقال طويل لا علاقة له ببحثنا.

ثم قال صاحب معجم مصطلحات الصوفية: عند الإنسان الكامل جمال الله تعالى عبارة عن أوصافه العليا وأسمائه الحسنى هذا على العموم، وأما على الخصوص فصفة الرحمة وصفة العلم وصفة اللطف والمنعم وصفة الجود والرازقية والخلاقية وصفة النفع فكلها صفات

جمال، ثم صفات مشتركة لها وجه إلى الجمال ووجه إلى الجلال كاسم «الرب» فإنه باعتبار التربية والإنشاء اسم جمال وباعتبار الربوبية والقدرة اسم جلال.

وكذلك قال الشيخ محيي الدين العربي بشأن الهيبة والأنس: هما حالان للسالك من صفات الجلال والجمال وتحصل الهيبة من مشاهدة الجلال في القلب وقد تحصل من مشاهدة جمال حصل من الجلال أما الأنس فيحصل بمشاهدة جمال الله سبحانه. وفي موضوع الجلال والجمال جاء في كتاب القدسية للشيخ محمد بارسا (٧٤٩ - ٨٢٢) وهو كتاب يضم أقوال الشيخ بهاء الدين النقشبند مؤسس الطريقة النقشبندية، «حيث إن السالك يهذب بصفتي الجلال والجمال، فإن جلاله جمال وجماله جلال وعند استيلاء الخوف عليه يلجأ إلى الرجاء وعند غلبة الرجاء يعود إلى حال الخوف».

وفي الوقت الذي يكون مظهراً لصفة الجلال فإنه يستطيع التوجه لصفة الجمال. وقال النقشبند: قال المحققون: يَجِبُ أن يكون السالك قد وصل حقيقة المحبة الذاتية قبل أن يتلقى دروس التربية بصفتي الجلال والجمال وعلامة الوصول إلى حقيقة هذه المحبة هي أن تتوحد أمامه الصفات المتقابلة من المُعِزّ والمُذِلّ الضار والنافع. ومعناه أن تجعله هذه المحبة راضياً بكل ما يصيبه دون تفريق بين ما هو ضرر أو نفع. وفي هذا المقام يصبح ربانيًّا، وفي الحديث القدسي «كن ربانيًّا تقل للشيء كن فيكون».

فإن تخلص الإنسان من الصفات الحيوانية وتحلى بالأخلاق الإلهية فإن الله سبحانه يحقق له ما يطلب ولكن الأمر المهم هو أن السالك حينما يصل هذا المقام لا يطلبُ إلاّ رضوانه سبحانه فهم بشر جسداً وملائكة روحاً ولا يريدون سوى عبادته وليس في قلوبهم محل لشيء آخر، كما قال النقشبند في بيت ترجمته: لأولياء الله قدرة من الله على إعادة السهم إلى قوسه رغم انطلاقه».

وقال الشيخ النقشبند في موضوع الولاية في كتاب «القدسية».

إن الواصلين الكاملين هم قسمان أولهما أناس قربوا من الجلال، ووهبوا من تجلي صفته. وهم وصلوا إلى الكمال فغرقوا في بحر الجمع ومشوا إلى بيداء الفناء وهم في حال أنفسهم لم يكلفوا بتربية الآخرين وتكميلهم فحلوا في قباب الغيرة وقطنوا في ديار الحيرة. ومن كان في الحيرة، وفاقد الوعي بنفسه وبغيره فلا يمكنه العمل لإيصال غيره. وهؤلاء حرموا من تمثل عمل الأنبياء (في الدعوة والتبليغ) وثانيهما أناس لو فقدوا قلوبهم رجعت إليهم بقدرة الجمال الأزلي الذي ينقذهم من بيداء الفناء ويمنحهم القوة في الحكم بين الناس وبفضل العناية الأزلية يعود هؤلاء الغارقون في بحر التوحيد إلى ميدان البقاء ليؤدوا وظيفة الإرشاد والتربية. وليدعوا الناس إلى النجاة والنصر المعنوي.

وهؤلاء هم «الكاملون المكملون». وقد بلغوا هذه المرتبة العالية بفضل اتباع سنة النبي الكريم محمد ﷺ. وقد أذنوا بتبليغ دعوته ورسالته كما قال سبحانه ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ يوسف ١٠٨.

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ «فصلت ٣٣»

﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ «السجدة ٢٤»

وأقول: هؤلاء الرجال الكبار الذين يحسّون بضوء الجمال هم سعداء رحماء واسعوا الصدر لا يبالون بمن يؤذيهم أو بما يؤذيهم فهم مشغولون بسعادتهم ليس إلا. أما الذين أحاط بهم ضوء الدلال فلو مر بهم طائر دون رغبتهم لقطعوا جناحيه. ويبتعد عنهم من عرف أنهم في هذه الحال ولكن كيف نعرفهم؟ وطوبى لمن رزقه الله نصيباً من هذه المواهب العالية!!

٧) الكمال - الكامل - المكمّل:

الكمال ضد النقص: ومعاني هذه الكلمات معروفة.

وتأتي كلمة الكامل والمكمل في مصطلحات الصوفية كثيراً ويقال المرشد «الكامل والمكمِّل». وقد ذكرناهما في مبحث الجمال والجلال.

ولا بد من بيان «أن الكمال المطلق لله سبحانه وحده» فالإنسان لا يبلغ حد الكمال مطلقاً، ومهما يكن جميلاً أو عاقلاً أو قويًّا فإنه يهرم ويموت أخيراً: «كل نفس ذائقة الموت» فالكمال الإنساني هو كمال نسبي. وإن سيدنا محمداً ﷺ بلغ منتهى الكمال الإنساني، قال تعالى ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ومع عظمة وكمال الشخصية المحمدية، يقول سبحانه وتعالى لمحمد (ﷺ) في القرآن الكريم ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ «القصص ٥٦».

هذا في الوقت الذي كان الرسول ﷺ يتمنى هداية أبي طالب للإسلام. ويتبين أن الهداية بمعنى الوصول، بيد الله وحده وقال سبحانه ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

ونقصد هنا أن الإنسان وهو النبي الكريم محمد ﷺ أُمِر بتبليغ دعوة الإسلام والهداية والحق وكذلك الأنبياء من قبل والعلماء الصالحون من بعد «العلماء ورثة الأنبياء». ومع أن الطريق هو طريق الحق والرشاد، فإن الهداية بيد الله وحده.

وإن مسؤولية الإرشاد والتعليم قديمة قدم الإنسان إذ تبدأ من آدم عليه السلام إذ أنبأ الملائكة بأسمائهم وعلمهم إياها وتقديراً لوظيفة التعليم أمر الله سبحانه ملائكته بالسجود لآدم، وهو سجود احترام لا سجود عبادة، كسجدة إخوة يوسف ليوسف.

وقد أشار القرآن الكريم إلى الإنسان الكامل في سورة البقرة ٣٠ : ٣٤.

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ولأنهم لم يعلموا كل شيء حاروا و﴿قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ فأراد الله سبحانه أن يشعرهم بقيمة الإنسان الكامل ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ وليس المراد بالأسماء أسماء الملائكة بل المراد كثير من الأسرار التي لا علم للملائكة بها وبعد أن ملأ صدر آدم بالعلم بقوله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾.

وعندما تبينت للملائكة، الحقيقة الإنسانية في جوهر آدم الذي أحاطه الله بالأفضال والكمالات، قال سبحانه ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

وقال سبحانه وتعالى بشأن خلافة داود في سورة ص٢٦ ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾.

ومعنى ذلك أن الإنسان الكامل يمكن أن يرشد الناس بأمر ربه.

وهذا الكمال المعنوي هو كمال دائم ينتقل من درجة إلى أخرى وفي نظر التصوف يبدأ بالولاية الصغرى ثم الكبرى ثم يحصل مقام البقاء بعد الفناء وهذا المقام يتحقق بعد اجتياز المقامات التي ذكرناها مثل الزهد والتوبة وغيرهما. ومَنْ منحه الله هذا الكمال يصلح للإرشاد وهو كمال لا يرقى إلى كمال الأنبياء وأفضله الكمال الإنساني لمحمد ﷺ.

وقد ذكرنا في مبحث الجلال والجمال أن الكامل هو من بلغ أولى

درجات الكمال، وهو يستطيع المضي في أموره المعنوية دون مرشد، أما الكامل المكمل فهو من اجتاز أُولى درجات الكمال وله الحق بالإجازة المعنوية في إيصال الآخرين إلى مقاماته ومثله مثل المعلم الذي تعلم من غيره وله القدرة على تعليم غيره ما تعلم، ومثل الدليل الذي يقود من لا يعرف المدينة إلى دروبها. وكثيراً ما يتجاوز التلميذ في تعلم مقام أستاذه في العلم وكذلك رجال التصوف ونرى كثيراً من رؤساء الطرق الصوفية قد حصلوا مقامات أعلى من مقامات شيوخهم والله أعلم بهم وبشؤونهم. وهؤلاء يستحقون إرشاد الناس إلى معرفته سبحانه قال تعالى ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ﴾ ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وتنطبق هذه الآيات على هؤلاء الرجال المرشدين وبشأنهم يقول سبحانه ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾.

٨) المحبة:

المحبة، من الحب وهو ميل القلوب، وهي عند الصوفية تختلف عن الحب الجنسي كما تختلف عن الحب العاطفي كحب الأولاد والأموال وحب النفس وشهوات الدنيا، ذلك أن حبنا الدنيوي حب مجازي زائل، أما الحب الصوفي فهو حب حقيقي لأنه حب دائم وهو حب لله الذي لا يموت، ويأتي فضلاً من الله سبحانه وموهبة فيكون حالاً كما قال الشيخ عمر السهروردي ويأتي بمجاهدة النفس ومداومة الذكر والعبادة فيكون مقاماً وقد ذكره معظم مصادر التصوف، وكَتَبَ صاحب قوت القلوب (٣٠) صفحة عن المحبة وتتلخص في النقاط التالية:

١- المحبة عند الصوفية أن يكون الله سبحانه أحب إلى العبد من المال والولد وكل شيء في الدنيا.

٢- المحبة أن يكون سلوك العبد موافقاً لأوامر المحبوب جل

وعلا. ويذكر في هذا الباب بيتان لشهيدة العشق الإلهي، ورمز طريق المحبة رابعة العدوية وهي تقول:

تعصي الإله وأنت تُظهر حبه هذا لعَمري في القياس بديع
لو كان حبُّك صادقاً لأطعتَهُ إن المحب لمَن يُحِبُّ مطيع

٣- المحبة تقتضي مداومة الالتزام بطاعة المحبوب. وهي أهم الأنواع، ذلك أن العاصي المذنب قد يعبد ربه وقد يخالف أما العابد المحبِ فإنه لا يخالف أوامر الله سبحانه.

قال محمد بن علي الكتاني: المحبة الإيثار للمحبوب.

وكما أن المتسابق يود الفوز فيه فإن الصوفي في مقام المحبة يعمل ليحوز الدرجة العالية في هذا المقام. ولهذه المحبة فائدة لا تُقدَّر بعوض ذلك أن من أحب الله أحبه الله، ومن أحب الله أطاعه واتبع رسوله الكريم سيدنا محمداً ﷺ، قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ فعلامة حبه تعالى اتباع سنة نبيه وثمرتها أن الله سبحانه يحبه. ألا يرى أن من صفات المؤمنين أنهم يحبونه سبحانه، قال تعالى في سورة البقرة ﴿يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِۗ﴾.

وبهاتين الآيتين تتضح محبة الله للمسلمين، ومحبة المسلمين لله سبحانه، ومن أغراض التصوف الوصول إلى المحبة.

وقال النبي ﷺ «المرء مع من أحب» وهو بشرى عظيمة للذين يحبون الله سبحانه.

ومع أن الأساس هو حب الله وحده سبحانه فإن محبة الأنبياء والأولياء تعكس محبة الله سبحانه لأنها من أجل هذه المحبة.

وجاء في كتاب معجم مصطلحات الصوفية:

المحبة تنقسم إلى عشرة أقسام، خمسة منها مقامات المحبين

السالكين، فأولها الأُلفة ثم الهوى، ثم الخِلّة ثم الشَغَف ثم الوَجْد، أما مقامات العشاق فأولها الغرام ثم الافتتان ثم الوَلَهْ ثم الدّهش ثم الفناء.

أما الدكتور زكي مبارك فقال نقلاً عن محمد بن داود في كتابه التصوف الإسلامي حول مقامات العشق وأحوال الحب «تبدأ بالاستحسان ثم تقوى فتصبح مودة ثم تقوى فتصبح محبة، ثم تقوى، فتصبح خلة، ثم تصبح هوى والهوى يصبح عشقاً ثم تتيماً ثم ولهاً» ويقول: الشوق مع هذه الأحوال جميعها وكلما اشتد الحال اشتد الشوق وإن كبار مشايخ التصوف يرون أن الشوق حال يعقب المحبة.

وقال الشيخ عبد القادر عيسى في كتابه حقائق عن التصوف: ذكر العلماء للمحبة مراتب عشراً:

العلاقة، الإرادة. الصبابة. الغرام. الوداد. الشغف. التتيم. التعبد. الخلة.

والحقيقة أن أعلى درجات المحبة للصوفي هي أن يحب الله سبحانه ويحبه الله كما قال تعالى ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ المائدة ٥٤ كما أن الصوفي في مقام الرضا يتمنى الوصول إلى رضوان الله عليهم وهم قد رضوا عنه قال تعالى ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ﴾ البينة ٨. ومن أمنية الصوفي أن يذكره ربه كما يذكره هو دوماً قال تعالى ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ البقرة ١٥٢.

وقد وردت في المحبة آيات كريمة عديدة كما وردت أحاديث نبوية شريفة وأقوال للصالحين تدل على أن المحبة ليست دعوى اللسان بل هي سلوك عملي، وللحب علامات تدل عليه منها، اتباع أوامره سبحانه وإيثار حبه على كل محبوب بحيث يتساوى عنده ربحه وخسارته، ميلاد ولده ووفاته لأن الكل لله ولا بقاء إلا لله وحده. وما يوجد اليوم يذهب غداً ومن لم يمت اليوم يمت غداً. ويقال: مَرَّ بعضُ الصوفية على رجل يبكي على قبر، فسأله عن سبب بكائه فقال: إن لي حبيباً قد مات. فقال: لقد

ظلمت نفسك بحبك لحبيب يموت، فلو أحببت حبيباً لا يموت لما تعذبت بفراقه.

وأُضيف: إنه ليس المراد سلب العاطفة الإنسانية بحيث يستعذب المرء فقد الولد الحبيب. والمقصود هنا التعبير عن حال المحبة الصوفية التي تتمكن من قلبه بحيث تستغرق وجدان الصوفي فلا يجد متسعاً للتفكير في غيره فيؤمن بأن النعمة والألم من الله سبحانه والمحب الحقيقي لا يتبرم بالشكوى من فعل محبوبه الحقيقي. وكمثال على ذلك أذكر أننا نقبل من أولادنا الذين نحبهم ما لا نقبله إطلاقاً من غير أولادنا. وإننا نتحمل كثيراً من أعباء الحياة الشاقة في سبيل الحب المجازي والعشق الدنيوي، ونتحمل كثيراً من المنغصات في سبيل الدنيا ودرجاتها. ألا نقضي سنوات الشباب ونضارة العين من عمرنا لنيل شهادة؟ ولا يتنبه الواحد منا إلا بصفعة من الشيخوخة في الظهر أو الرأس فيطل الموت وشبحه الرهيب حيث لا تنفع الشهادة ولا ينفع الندم. فكيف لا نستعد بجهاد وفي أي حال: للحياة الأبدية والشهادة الأبدية والحب الأبدي. فأين هذا الحب من ذاك؟ هذا خالد وذاك ميت. وقد بيَّن القرآن أوصاف العباد الذين يُحبُّهم فهم «محسنون» «توّابون» «متطهرون» «متقين» «الصابرين» «المتوكلين» «المقسطين» «الذين يقاتلون في سبيله صفا» الذين يتبعون الرسول (ﷺ) ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾.

ومن أراد أن يحبه الله فعليه أن يتحلى بهذه الأوصاف، ويتخلى عن الصفات الذميمة ونستشهد بالآيات الكريمة التي تحدد أوصاف من يحبهم وأوصاف من لا يحبهم أي الصفات الحميدة والصفات الذميمة.

الأوصاف الحميدة: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ٢/ ١٩٥

﴿يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ ٢/ ٢٢٢

﴿يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ ٩/ ١٠٨ ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ٣/ ٧٦ ﴿يُحِبُّ

﴿ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ ٣/ ١٤٦ ﴿يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ٣/ ١٥٩ ﴿يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ ٥/ ٤٢ ﴿يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ ٤/ ٦١ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ ٣/ ٣١.

وهذه هي الآيات الكريمة التي نزلت بشأن الصفات الذميمة التي يتجنب عنها المسلم والصوفي منه بالأخص.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ ٥/ ٨٧ ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ﴾ ٢/ ٢٠٥ ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ ٢/ ٢٧٦ ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾ ٣/ ٣٢

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ ٣/ ٥٧ و١٤٠. ﴿لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ ٤/ ٣٦ ﴿لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ ٤/ ١٠٧ ﴿لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ ٥/ ٦٤

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ ٧/ ٣١ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ ٧/ ٥٥.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ ٨/ ٥٨ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ ١٦/ ٢٣ ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ ٤٢/ ٤٠.

واتضح الآن أن المحبة الحقيقية وهي من أحوال التصوف: عبارة عن حب يجعل السالك يؤثر ربه سبحانه على نفسه وماله وكل شيء في دنياه.

٩) اللوائح. الطوالع. اللوامع:

جاء في معجم مصطلحات الصوفية:

هذه الكلمات متقاربة المعنى وهي من صفات أصحاب البدايات الصاعدين في الترقي بالقلب، واللوائح كالبروق ما ظهرت حتى استترت واللوامع أظهر من اللوائح وليس زوالها بتلك السرعة والطوالع أبقى وقتاً وأقوى سلطاناً وأدوم مكثاً وأذهب للظلمة.

وهي أحوال البدايات الصوفية وقبل أن تشرق شمس المعرفة الإلهية في قلب السالك. قال الإمام الغزالي في كتابه المنقذ: قد يتجلى نورٌ في قلب السالك المبتدئ ثم ينطفئ ولا يلبث أن يستقر تدريجيًّا فيستضيء قلب السالك ويصفو كالنهار.

١٠) الجذب:

وهو عبارة عن جذب الله تعالى عبداً إلى حضرته، والجذبة: عبارة عن تقرب العبد بمقتضى عناية الله التي أعدت له كل شيء من جانب الله بلا تعب وسعي منه. ويقال لمن يصل من طريق الجذبة «المجذوب» وقد يحصل هذا دون مرشد أو بمرشد، ويقال «المجذوب» للسالك الذي يجذبه ربه إلى حضرته دون طلب أو عمل منه.

١١) الوارد:

وهو كل ما يرد على القلب من المعاني الغيبية من غير تعمد من العبد وقيل الفرق بين الوارد والبادي: إن الوارد ما يرد بعد البادي فيستغرق القلوب، فالوارد منحة إلهية وبركة يفيضها الباري سبحانه في قلب السالكين.

وهذا رأي صاحب اللمع؛ ويقول القشيري في رسالته:

الوارد ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة مما لا يكون بتعمد العبد، قد يكون وارداً من الحق ووارداً من العلم، والواردات تكون وارد سرور أو وارد حزن أو وارد قبض أو وارد بسط إلى غير ذلك من معان.

الباب الخامس

مصطلحات صوفية

١ - الرياضة والمجاهدة
٢ - الكشف والكرامات
٣ - النور
٤ - القلب
٥ - النفس
٦ - الذكر
٧ - الإشراق
٨ المشاهدة
٩ - اللاهوت والناسوت والجبروت والملكوت
١٠- العناصر الأربعة
١١- الولي
١٢- المريد والمراد
١٣- الخليفة

مصطلحات صوفية

١) الرياضة والمجاهدة:

هما كلمتان تعبران عن مقاومة هوى النفس ورغباتها الدنيوية المجردة وكبح جماح النفس وأهوائها.

وفي القرآن الكريم آيات كريمة تحض على هذه المقاومة منها قوله تعالى ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾. ومنها قوله تعالى في شأن المجاهدة: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ سورة العنكبوت ٦٩.

والرياضة تختص في مصطلح التصوف بمقاومة النفس وتربيتها وتزكيتها أما المجاهدة فلفطامها عن الرضع الذي تعلقت به، فمن المعلوم أن النفس إذا خليت وطبعها قادت صاحبها إلى الهاوية وأسقطته في هوة سحيقة لا خلاص منها، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾.

وسبيلنا لترويض النفس وقبلها إلى ملهمة أو مطمئنة أو مرضية هو التربية الحكيمة دون كلل وفطمها عن رغباتها كما يفطم الطفل عن حليب الأم خطوة فخطوة وكبح جماحها في كل حرام وكل صفة ذميمة ثم تزيينها وتهذيبها بالأخلاق الحميدة ولكن هذا التحول النفسي ليس بسهل المنال بل قد تتحول الرياضة الصوفية إلى أمر منكر في الشرع لا يحصل

السالك منها إلا الخسارة لو كان قد أرادها سمعة وتظاهر بأنه صاحب دين ورجل صالح، لا من أجل رضوانه سبحانه. فكيف يكون الحكم بحق قطاع الطرق والسيئين الذين لا يتورعون عن الكذب والخداع من أجل المال والجاه ولا عن جمع الثروة على حساب البسطاء المخدوعين؟ وهي أمور بعيدة عن الإنسان العادي الذي لا يتظاهر بدعاوى الدين فكيف الحال فيمن يريد قرب ربه وإرضاءه؟

والرياضة هي الكبح والفطام النفسي، والمجاهدة هي اتباع أوامره واجتناب نواهيه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومقاومة قوية لكل ذنب ومنكر وحرام وقد تصل في نظر التصوف إلى حد يحيل الإنسان كالملائكة فلا يعبد إلا ربه ولا يعمل إلا ما يرضيه ويتحلى بأخلاق القرآن.

ونذكر هنا أن الخلوة الأربعينية هي رياضة صوفية مجربة ومفيدة للذين يريدون بلوغ المرام بالسلوك الصوفي وتهدف إلى قهر النفس حتى يتمكن الإنسان من الهيمنة عليها وتوجيهها كما يشاء لا كما تشاء كما يخضع الخيل الجموح لصاحبه بعد التدريب وكما يخضع الأطفال لتلقي الدروس بعد التعليم والتوجيه. ألا يرى أن الذين يتسلقون الجبال يعانون العذاب المضني وعندما تستقر أقدامهم على قممها ينتهي عذابهم ويفرحون فلا معاناة ولا عذاب بعد الوصول.

وقد يقال إن الرياضة بدعة إذ لم يمارسها النبي الكريم ﷺ كما لم يمارسها أصحابه ولكنه مردود بعدة وجوه منها أن النبي ﷺ كان يعتكف في غار حراء للتفكير في الخلق وهو نوع من الرياضة ومنها أن الله سبحانه شرح صدر محمد وطهره قال تعالى ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ﴾ فقد تحققت له الغاية دون الرياضة لذلك لُقِّب بالأمين عند قريش ومنها أنه كان موصوفاً بعناية الله سبحانه ورعايته، وكفى الأصحاب في المقام شرف صحبة النبي وقد حفلت حياتهم بالجهاد والعبادة والتهجد وبالخلق الإسلامي الرفيع وبمثل القرآن الكريم في السلوك الرضي.

وفي القرآن الكريم آيات تستنهض عزائم القلوب المؤمنة لقيام الليل عبادة لله سبحانه وللتقوى والمجاهدة والذكر بالأسلوب الأخاذ المعجز منها قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ ومنها قوله تعالى ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ وقوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ وقوله تعالى ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ السجدة ١٦ وقوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ آل عمران ١٩١ ولو تأملنا هذه الآيات الكريمة لفهمنا بوضوح معنى الرياضة من قيام الليل وقلة النوم والدعاء والرجاء والتفكر في خلق السماوات والأرض والذكر ليلاً ونهاراً وفي التقوى.

ومع أن القرآن الكريم يحث على الانتفاع بطيبات الدنيا في آيات عديدة فإنه يبين للإنسان أيضاً حقيقة أن الدنيا فانية وأن ما عند الله خير وأبقى.

وقد علمنا من تجربة الإمام الغزالي الصوفية أن الرياضة والتهجد لمدة طويلة ضرورية لتذوق العلم وقد جرب مشايخ التصوف الخلوة الأربعينية وفيها يستغرق الصوفي في العبادة بشوق ويتنور قلبه بما يحركه للاستدامة على هذا الطريق.

وفي القرآن الكريم أمثلة لها من قصص الأنبياء، منها قصة زكريا في سورة آل عمران حينما دعا ربه ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾ وتقبل الله دعاءه ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ فدعا ربه أن يأمره بشيء يعمله شكراً على لطفه ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً﴾ فاستجاب له ربه ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾. وكذلك عندما أمر الله سبحانه موسى بالسير إلى جبل الطور

ليكلمه قال سبحانه ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ وفي سورة الأعراف ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾.

ويستدل بهذه الإشارات على أن القرآن الكريم فيه ما يدل على العزلة في أربعين يوماً بالتحديد.

وقد عرف السالكون بالتجربة أن هذه العزلة نافعة في ترويض النفس وكبح جماحها وفي التعود على العبادات بخشوع وتأمل.

٢) الكشف والكرامات:

هما من ثمرات السلوك في درب التصوف ومن قبيل خرق العادة الذي يَعْني عملاً خارج حدود الإمكان البشري عقلاً.

فإن صدر مثل هذا العمل من رسول كريم تحدياً فهو معجزة كإحياء الميت لسيدنا عيسى وقلب العصا حية لسيدنا موسى وكالقرآن الكريم الذي جعله الله المعجزة الدائمة لسيدنا خاتم الأنبياء محمد رسول الله ﷺ.

وإن صدر من رجل صالح دون دعوى النبوة والتحدي فهو من قبيل الكشف والكرامات أما إذا ظهر من غير مسلم أو من مسلم فاسق فهو من قبيل الاستدراج من الشيطان والفرق بين المعجزة والكرامة هو أن المعجزة علامة صدق النبي في دعوى نبوته فهو مأمور بإعلانها حتى يكون حجة على الناس أما صاحب الكرامة فإنه يسعى لإخفائها إلا إذا اضطُرَّ لإقناع الضالين.

ورد في كتب التصوف أن كبار مشايخ التصوف تمنوا حرمانهم من الكشف والكرامة «الحاسة الروحية» إمّا لخوفهم من الغرور أو ليتجنبوا الاطلاع على أسرار الناس وقد تمنى بعضهم عند سكرة الموت أنه لم يكن يعرف شيئاً من هذا الباب مخافة أنه قد اتكل على منزلته فلم يؤد ما عليه من الخشية والخشوع.

ومن المعروف في التصوف أن الكشف ليس دليل علو المقام فقد يحصل لمجنون ويحتجب عن ولي صالح ومثله كالذي يحوز القوة العضلية بالرياضة والتدريب وهو أقل منزلة من رجل ضعيف والأمر الأساس في الميزان هو تقوى الله واتباع شرعه.

وقد يحصل الخارق إرهاصاً للنبوة ومثاله تصدع إيوان كسرى في ليلة مولد الرسول الكريم ﷺ أما المعونة فقد تحصل لرجل صالح وهي أن يقبل دعاؤه مثلاً.

أما الفرق بين الغيب والكشف فهو أن العلم بالغيب هو معرفة المحجوب والسر المخفي في الماضي أو الحاضر أو المستقبل متى وكيف شاء والكشف هو أن الله سبحانه إذا أراد يرفع الحجاب عن عين البصيرة فتظهر الأشياء، وهو لا يعني العلم بالغيب.

وإذا كان الرسل والأنبياء لا يعلمون الغيب فالأولياء لا يعلمون الغيب بالطريق الأولى. قال سبحانه وتعالى ﴿قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ﴾ الأنعام ٥٠.

وقال سبحانه ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ الأعراف ١٨٨.

والكشف: إزالة الحجاب عن بصيرة القلب للاطلاع على أسرار يريد الله سبحانه كشفها كما قال الغزالي في كتابه المنقذ «وانكشف لي في هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها» وقال «ومن أول الطريق تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد» فالكشف هو الاطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية، والكرامة عبارة عن تحقيق العمل الخارق كقبول دعاء الأولياء عند الله.. لشفاء

مريض أو لكشف غم أو بركة في الرزق وغيرها وهناك خوارق كجلب عرش بلقيس من بلد في طرفة عين بإذن الله.

ويرى مشايخ التصوف أن كرامات الأولياء هي امتداد لمعجزات الرسول (ﷺ) وما حصلت هذه الكرامات إلا بسبب اتباع سنته ﷺ.

وقد تحصل أمور خارقة للعادة ظاهراً بسبب رياضة النفس وتدريبات ذهنية ونفسية وجسدية كما هو الحال في اليوغا الهندية وتعتبر كما قلنا آنفاً من قبيل الاستدراج.

قال أبو يزيد رحمه الله: لو أن رجلاً بسط مصلاه على الماء وتربع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدونه في الأمر والنهي. فالمسلم من طبق تعاليم الشرع لا من حصل له أمر كهذا وهؤلاء لا تكشف لهم الأسرار ويلتقون مع أرواح الأنبياء والملائكة بخلاف أولياء الله ومن الواضح أن صاحب الاستدراج يسعى للاستفادة من عمله ماديًّا أو سمعة كما يرى من مظاهر الاحتفاء به ودفع الأجور لمشاهدة أعماله وأما صاحب الكرامة فيسعى لهداية الناس لا لجلب الأموال وهو لا يظهرها إلا إذا اقتضت الضرورة.

وقد يحصل الكشف والكرامة معاً لرجل صالح كأن يُكْشَف له أن أحد المريدين قد ابتلي بآفة فيدعو له بالشفاء فيستجاب له.

واحتفظ بوثيقة في هذا النوع حصل لشيخي ووالدي وهي: إننا كنا نعيش في سوريا إبان الحرب العالمية الثانية ١٩٤٤ وصلتني رسالة من الوالد قدس سره وهو في بياره في العراق وكتب في هامشها بخطه الشريف هذه العبارة «قبل أيام سمعت صوتاً قال: ابن عبد الخالق مريض. ما أدري أصحيح أم منادٍ غير صادق أخبروني!!» والواقع أنه في نفس الوقت مرض ابن عبد الخالق (وهو من مريدي الشيخ معنا) بالتيفوئيد فعُرض على الأطباء الفرنسيين فعزلوه واستصعبوا شفاءه إلا بعد

مدة طويلة ولكنه سرعان ما شفي تماماً فتعجب الأطباء من ذلك، فهنا كشفٌ وكرامة. الكشف هو معرفة حال المريض مع بعد مئات الكيلومترات، وقبول دعاء شفائه من جانب الحق كرامة.

أما الرأي الفقهي والكلامي في جواز وإمكان الكرامات فقد بسط فيه الكلام في علم الكلام.

٣) النور:

النور يُطلق على معان عديدة ومعناها الظاهر نقيض الظلمة وهو الضياء وفي نظر التصوف هو الضوء الذي يحيط بقلب المرء فيحس بضوء جميل أخاذ وبرائحة جميلة وطعم لذيذ إحساساً قلبيًّا معنويًّا لا يخضع للوصف والتعريف.

وقد جاء في القرآن الكريم بمعان عديدة:

١- إنه اسم من أسماء الله الحسنى ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ سورة النور ٣٥.

٢- اسم من أسماء القرآن الكريم والكتب السماوية ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ التغابن ٨ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا﴾ النساء ﴿قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ﴾ الأنعام ٩١.

٣- جاء بمعنى الإيمان وهو مقابل الكفر «كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد» سورة إبراهيم وقال تعالى ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ المائدة ١٦ وفي هاتين الآيتين الكريمتين وعشرات آيات أخرى يتضح أن الإيمان نور وأن الكفر ظلمة.

٤- جاء النور بمعنى رؤية العين ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ وَٱلۡبَصِيرُ أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُۗ﴾ الرعد ١٦.

٥- جاء بمعنى العلم ذلك أن المرء لا يميز بين الحسن.

والقبيح إلا بالعلم وقد قيل (**العلم نور والجهل ظلام**).

٦- جاء بمعنى العقل إذ لولاه لتعطل الإنسان في أمور حياته ولم يتميز عن غيره من الحيوانات.

وفي الفلسفة الإشراقية يذكر السهروردي (حلب) عالمُ النور وعالمُ الظلمة ويقول: نور الأنوار هو الله سبحانه وهو مصدر كل نور. وله دعاء في مقدمته: «يا قيوم أيّدنا بالنور وثبّتنا على النور واحشرنا إلى النور» وقال الشيخ محيي الدين العربي في كتابه «هياكل النور»: النور موهبة إلهية تحل في القلب تخرج ظلمة الدنيا الفانية فيه فلا يتسع لغيره. وقال الإمام الغزالي في كتابه المنقذ: «المعرفة الصوفية والمعنوية نور يقذفه الله في قلب المسلم» فالنور الذي يذكره أصحاب التصوف كالغزالي ومحيي الدين العربي يعني البركة والضياء ومعرفة خاصة والمكاشفة والمشاهدة وهي رؤية معنوية يحظى بها سالكو الطريق وأن الكشف والكرامات والمقامات تحصل للمرء المسلم بهذا النور الذي هو عين البصيرة وبه يفوق في علمه وينقلب إلى شخص آخر وقد حصل للأنبياء هذا النور فلنتأمل قوله تعالى لنبيه الكريم محمد (ﷺ) ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ وهذا نور قذفه الله في قلب النبي. وفي قصة موسى مع العبد الصالح الذي كان يعرف كثيراً من الأسرار بنور الله سبحانه. جاء في القرآن الكريم ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ وهذا العلم الذي يقذفه الله سبحانه في قلب العبد يسمى نورا. وقد تكررت نفس الجملة القرآنية ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ بشأن يوسف ولوط وموسى عليهم السلام وفي القرآن الكريم أمثلة للرحمة الإلهية وتلتقي عند كلمة النور وتعني الكرم والعطاء والعلم والحكمة والمقام، والنور له هذه المعاني في الاعتبار الصوفي.

٤) القلب

القلب كلمة لو حذفت من أدب التصوف ومجالس المتصوفين لم يبق شيء. وله معنيان:

١- اللحم الصنوبري المودع في صدر كل إنسان وذي روح وهو محرك الجسد إن توقف عن الحركة توقفت الحياة.

٢- معنى معنوي ومجازي وهذا المعنى في الاعتبار الصوفي مركز دائرة العلم الصوفي ولبّ السلوك وهو في الاعتبار الأدبي والعاطفي والوجداني ملهم الأحاسيس الأدبية والأذواق العشقية. والذي يذكر في كتب التصوف هو المعنى المجازي الذي هو مركز الإحساس العاطفي والوجداني والإنساني، وكثيراً ما نقول في أحاديثنا العامة يميل قلبي إلى لون معين مثلاً أولاً يشعر قلبي بالارتياح له وقلبي متضايق، ولا تنطبق هذه الأوصاف على القلب بمعناه الأول، والمقصود هنا الحالات الخاصة التي تمر بالقلب بالمعنى الثاني فالقلب عند الصوفية ليس اللحم الصنوبري بل هو جوهر لطيف وهو مركز إرادة الخير والشر ويجاهد الصوفي لتطهيره ليكون خاصًّا بالإرادة الخيرة ويسمى هذا «بتزكية القلب» ويصبح القلب بعد ذلك مستقرًّا لحب الله سبحانه وعرشاً لنوره فلن ينسى ذكره سبحانه طرفة عين.

وتكررت كلمة القلب في القرآن الكريم في أكثر من مائة موضع وله صفات عديدة بالمعنى المجازي وكلها تعني أن القلب مركز الأحاسيس الوجدانية. والحقيقة أن القلب كذلك بالمعنى الحقيقي وفي الاعتبار المادي أيضاً فالقلب للجسد كالمحرك للسيارات ولولاه لما كان الجسد شيئاً كما هو الحال في الاعتبار المعنوي وتتجلى أهميته في قوله ﷺ «قلب المؤمن عرش الرحمن» والمقصود به الجانب المعنوي. وجاء في الحديث القدسي «ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن» وأن عمل السالك الصوفي هو أن يطهر قلبه وهو مركز الحقيقة الإنسانية من كل شائبة بحيث لا يسع إلاّ نور ربه سبحانه، وأعلى هذا المرام هو أن يصبح القلب ذاكراً.

وكما ذكرنا في مبحث الذكر والنفس أن القلب الذي اعتاد الذكر

الخفي مدة يكون هو الذاكرة وقد يسمع صوت ذكره وقد يسمعه غيره إن أصغى إلى صوت صدره وكان عمّي الشيخ كامل رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو نجل الشيخ عمر ضياء الدين النقشبندي يقول إذا حلف: قسماً بمن سمعت بأذني صوت «الله» من صدره. وأذكر أنني سمعت منه وهو في الثمانين من عمره يقول كنت شابًّا بعد وفاة والدي لم أكن أفهم كيف يبدأ القلب «وهو قطعة لحم» بالذكر من نفسه، فطلبني أخي الشيخ نجم الدين وقال لي: ألا تصدق بذكر القلب كما سمعت؟

قلت بأدب: إني أصدقه ولكن لا أفهمه ولا يطمئن قلبي إليه. وقال: كان الشيخ واقفاً مرة ودعاني إليه فضمني إلى صدره حتى التصقت أذني بصدره فكنت أسمع «والله» يقول «الله الله» فأبعدت رأسي ثم قربته إلى صدره مرة أخرى فسمعت ذكر قلبه، فبكيت وألقيت نفسي عليه، فقال: لا هذا ولا ذاك. وكان عمي يقول: كان رأسي ينجذب إلى صدره كالمغناطيس. وهو أمر واضح ومعروف عند السالكين ومنهم من يبدأ قلبه بالذكر بعد سبعة أيام من الذكر الخفي ومنهم من يبدأ بالذكر بعد أربعين يوماً ويعتمد على كيفية العزلة والانقطاع عن غيره سبحانه.

وذَكرنا أنه: عند النقشبندية خمس لطائف في الباطن: القلب، الروح، السر، الخفي، الأخفى، والنفس تعتبر لطيفة عالم الخلق والمادة.

ويمارس النقشبنديون الذكر بصورة خاصة وبعد التعود يبدأ القلب بالذكر ثم اللطائف الأخرى وثم لطيفة النفس التي تُعتبر مركزاً للإحساس الحيواني للإنسان وهي أمارة بالسوء. وأشير هنا إلى أربعة أبيات من قصيدة صوفية للشيخ عمر ضياء الدين النقشبندي وهو المرشد الكامل وصاحب الطريقة، قال هذه الأبيات أثناء سلوك الطريقة ويظهر أنه وُهِبَ مقاماً عالياً في التصوف قالها بهذه المناسبة إشارة إلى هذه اللطائف وذكرها.

بـفـيـض عـشـقـي لـفـخـر الـعـالـم قـد صـفـا قـلـبـي
فـزال الـريـن بـالـغـسـل تـجـلـى الـنـور فـي صـدري
مـن إبـلـيـس الـلـعـيـن تـخـلـصـت وزور نـفـسـي
بـلـغـت مـقـام الـعـارفـيـن دون كـد مـنـي
تـبـرّى الـنـاس مـنـي لأنـي مـن زمـرة الـعـاشـقـيـن
أيـنـمـا أتـوجـه تـتـجـلـى لـي أسـراره كـالـشـمـس
لـطـائـفـي كـلـهـا غـارقـة فـي ذكـر الله سـبـحـانـه

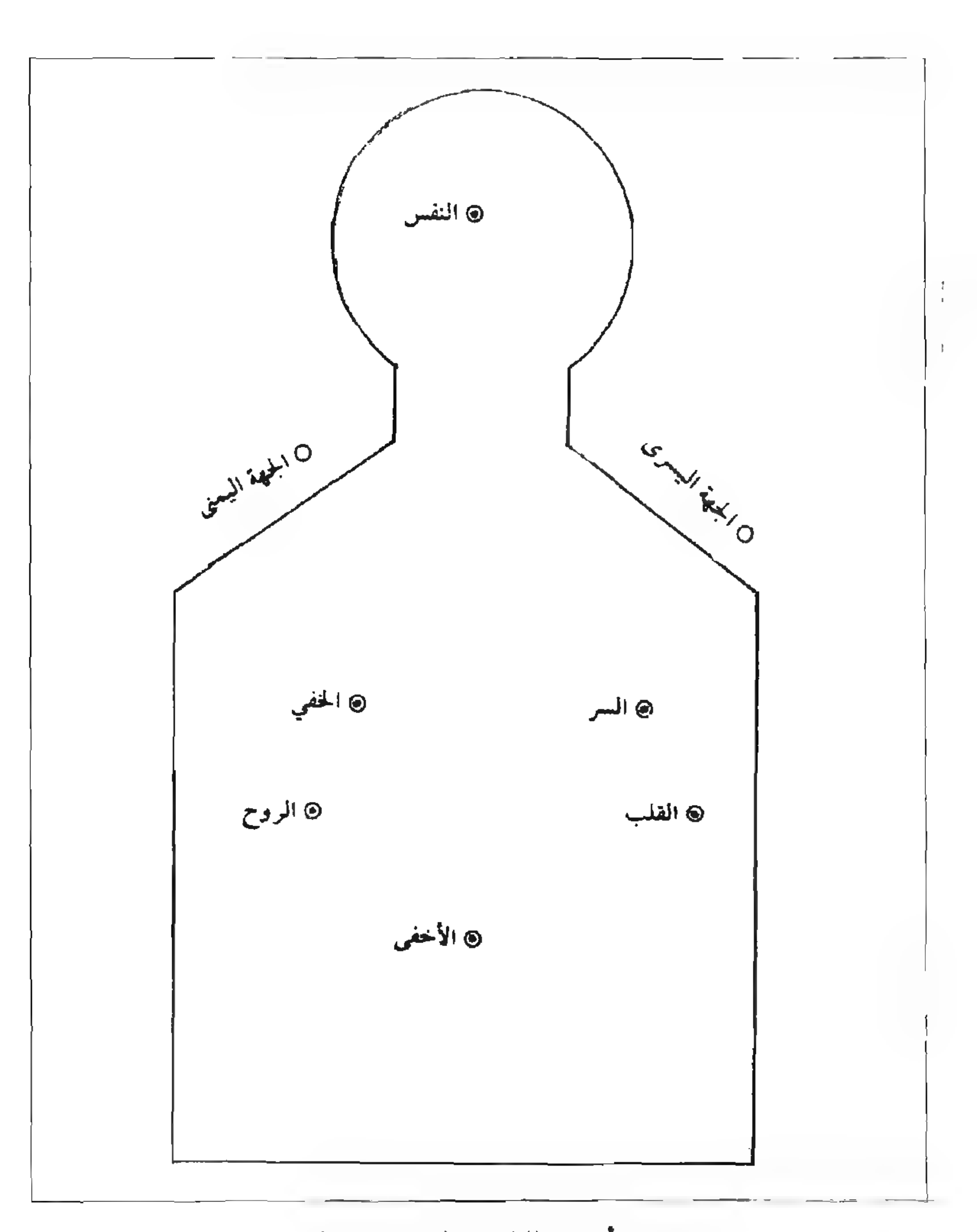
ومن هنا يتأكد ما ذكرنا من أن المُراد من العارفين تتحقق لهم الكمالات بدون الرياضة والمعاناة.

قرأت مؤخراً كتاباً لعبد الرحمن الدمشقي ينقد التصوف. ومما قاله كيف يذكر القلب؟

ويبدو أنه يرى أن القلب هو هذه القطعة اللحمية فقط وليس كذلك. ألا يرى أن الكلام الآن يتم دون لسان، كأشرطة التسجيل والراديو والتلفزيون؟

هذه من الناحية المادية، ولو أنكروا القيم المعنوية فماذا يقولون في الآيات القرآنية التي بينت القلوب القاسية كالحجارة ورين القلوب وظلماتها وعشرات من أوصاف للقلب، فسبحان الله!! إذا أراد الله أن يضل أحداً أنساه ما قرأ وتعلم. ألم ينزل القرآن الكريم على قلب محمد؟ «فإنه نزله على قلبك» ومعلوم أن القرآن ليس بأمر مادي بل هو قول مفهوم وكذلك القلب هنا ليس قطعة اللحم فالقلب هنا هو حقيقة محمد ﷺ وحقيقة نبوته قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ ولو كان القلب هنا اللحم المعروف لقلنا إن لكل حيوان قلباً من هذا النوع فالقلب هنا الأمر الباطني الذي يعي الحكمة والنصيحة.

وقال تعالى ﴿إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ وورد أيضاً «القلب المتكبر»



تصوير أماكن اللطائف الخمس في الجسم

«فظًّا غليظ القلب» وقال تعالى ﴿وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ ﴿وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ﴾ ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ ﴿وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ﴾ ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ﴾ ﴿رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢ﴾ ﴿وَلَا تَجۡعَلۡ فِي قُلُوبِنَا غِلّٗا﴾ ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا﴾ ﴿بِمَا كَسَبَتۡ قُلُوبُكُمۡۗ﴾ ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم﴾ ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ﴿وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ﴾ عشرات أخرى من صفات القلب تؤكد أن القلب هنا ليس القلب المعروف في الجسم بل هو القلب الذي هو مصدر الخير والشر ويثاب عليه ويعاقب.

ألم يسمع هذا الكاتب كل هذه الآيات؟ وبالأخص الآية الكريمة: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ الزمر.

والحقيقة أن جواب أمثاله هو قوله تعالى ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمۡعِهِۦ وَقَلۡبِهِۦ﴾. وأعجب ممن ينكر الذكر القلبي وهو يتلو قوله تعالى ﴿وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ الكهف ٢٨ أو قوله تعالى ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ﴾ التغابن، وما تفسير قوله تعالى ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ الحجرات ١٤ وما المراد بالقلب هنا؟ لا شك أن الإيمان يدخل حقيقة الإنسان وأمراً باطنيًّا فيه وكذلك النظر في قوله تعالى ﴿فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ﴾ فالمقصود هو الأمر المعنوي الباطني الذي يهذبه التقوى ويطهره من الحسد والكبر والأوصاف الذميمة الأخرى ويقول البعض ليس القلب صاحب البدن وقائده بل هو الدماغ وعلى كلٍّ ليس المقصود المعنى المادي من القلب أو الدماغ «بل القلب هو اللطيفة التي مقرها الصدر» فالقلب هو مركز الشيء ووسطه ولبه ومن الواضح للسالكين أن مقر هذه اللطيفة هو الصدر وأن مقر النفس هو وجه الإنسان فالنفس أقرب إلى الدماغ والقلب أقرب إلى اللحم الصنوبري في الصدر وكذلك اللطائف الأخرى كالروح والسر والخفي تقع في الصدر وأن العارفين بالسلوك الصوفي السالكين في منهجه يعرفون جيداً محل كل لطيفة ولنور كل لون

يختلف عن الآخر يميزون به اللطيفة الواحدة عن الأخرى وسأتناوله بعون الله في مبحث الطريقة النقشبندية. وخلاصة ما انتهينا إليه أن القلب عند الصوفية هو مركز هذه الصفات التي ذكرها القرآن الكريم وأن السالك يسعى بالذكر وبعون مرشده الكامل المكمل لتطهير قلبه من خبيث الصفات وتزيينه بالصفات الحميدة ليستعد قلبه لاستضافة نور ربه ويصبح ذكره تعالى زاد قلبه المعنوي فإن استقام على الطريقة في الذكر والتوبة يتجلى نوره سبحانه في قلبه ومن حرم من هذه النعمة ليس له حظ من هذا النور كما قال سبحانه وتعالى ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ سورة النور ٤٠.

وفي آخر كلامي هنا أذكر هذه الآية الكريمة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «الحديد ٢٨».

وللنور معان عديدة ذكرناها في مبحثه.

٥) النَّفْس:

ويطلق على الإنسان نفسه. وجاء بمعنى الروح وبمعنى الدم وبمعنى هوى الإنسان ورغبته وجاء بمعنى الشيء ويقال: النفس: هو من قال نعم، لمن ناداه. ووردت كلمة النفس في أكثر من مائتي موضع من القرآن الكريم.

والنفس موضوع التصوف حتى قيل إنه مفتاح باب التصوف ولب مراده يسعى السالك الصوفي إلى تنويرها وتزكيتها. قال سبحانه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ وقبلها قال سبحانه ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾.

فالسالك الصوفي يسترشد بالقرآن الكريم في تزكية نفسه، وتنمية

عنصر الخير فيها، وطرد عنصر الشر قال سبحانه ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ التغابن فالتزكية النفسية من أهم طرق السالكين ولولاها لبقي السالك في خطر السقوط، وبدونها لا يتحقق مقام الولاية له ويأتي بعدها التوجه لتحلية الباطن بالصفات الحميدة للعروج في سلم التصوف، ولكن هل هذا سهل؟ وكيف يتغلب الإنسان على جموح النفس؟ وما هي ثمرة هذا التغلب؟

تبدأ المرحلة الأولى بالتوبة:

ثم الاستقامة على المعروف وعلى العبادة طبقاً لتعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية. ثم المواظبة على ذكره سبحانه. ومقاومة النوازع النفسية.

ونعني بها تعويد النفس وترويضها بالطاعة إلى الحد الذي يصل بها إلى عين اليقين، بنفسه أو بمعونة مرشده، فلا يؤثر حينذاك في إيمانه شيء وعليه أن يبتعد عن الإفراط والتفريط.

وأرباب التصوف رتبوا للسالكين مراحل لقطع هذا الميدان. وللنفس وصف معين يلائم كل مرحلة استرشاداً بالقرآن الكريم.

جاء في كتاب معجم مصطلحات الصوفية: النفس خمسة أضرب: حيوانية وأمارة وملهمة ولوامة ومطمئنة. وجاء أيضاً: النفس ناطقة وصالحة وحكيمة ونبوية وجعل الشيخ محمد أمين الكردي للنفس في كتابه تنوير القلوب سبع مراتب:

الأمارة - اللوامة - المطمئنة - الملهمة - الراضية - المرضية - الكاملة.

الأمارة: هي النفس التي تميل إلى الجانب الحيواني. وتسمى أمارة لأنها تقود صاحبها إلى السوء. وهي معنى الآية الكريمة ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ

نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ سورة يوسف ٥٣. وقال البعض أنها أفضل من النفس الحيوانية التي لا تعرف غير متاع الدنيا كالأنعام.

واللوامة: هي النفس التي توبخ الإنسان عندما يرتكب إثماً أو ينوي شرًّا فتدفعه إلى التوبة.

قال تعالى ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾.

الملهمة: هي النفس التي تميز بين الفجور والتقوى اقتباساً من قوله تعالى ﴿وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا﴾.

المطمئنة الراضية المرضية: هي النفس التي رضيت عن ربها ورضي عنها اقتباساً من قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ﴾

النفس الكاملة: خاصة بالأنبياء والأولياء الكاملين.

والنفس لطيفة من لطائف عالم الخلق تضاف إلى العناصر الأربعة فتكون الخامسة عند فلاسفة التصوف: الماء (الرطوبة). التراب. الهواء. النار (الحرارة) تقابل، القلب الروح. السر. الخفي. الأخفى وهي من عالم الأمر. وتزكى لطيفة النفس بالذكر، وهي النفس الناطقة عند النقشبنديين.

وللبوصيري الشاعر الصوفي ت٦٩٦هـ بيت في قصيدته البردية يقول:

والنفس كالطفل إن تهمله، شب على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

قال الشيخ عبد القادر الكيلاني في كتابه الغنية: «آفة النفس ميلها إلى الفخر ورغبتها من أن تمدح، ومثل هذا الشخص حمال، ذلك أنه ليس له في عبادته إلا الحمل وهي رياء وسمعة وقد يهلك دون أن يحس بنفسه».

ولا يحصل إلا بالسعي والعمل المستقيم قال تعالى ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ

إِلَّا مَا سَعَىٰ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ وقال تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ العنكبوت.

وجاء في كتاب فتوح الغيب للشيخ عبد القادر الكيلاني:

للنفس الأمارة حالتان هما السعادة والسرور والشقاء والعذاب، فإن ضاقت بالمرء الدنيا كفر «أي بالنعمة» وإن وسعت له الدنيا أبوابها انساق نحو الهوى والشهوات. قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ ومن عرف نفسه عرف ربه ومن لم يعرف نفسه أطلقها، وقد عرف يوسف نفسه إذ قال سبحانه عنه ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾.

وخلاصة ما ذكرناه أن السعي لتزية النفس هو من أسس المنهج الصوفي في الإسلام.

٦) الذكر:

ويعني في مصطلح التصوف ذكر الله سبحانه والثناء عليه كأن يقال «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله». وكذلك الأدعية والصلوات.

وجاءت كلمة الذكر في القرآن الكريم بمعنى الصلاة وبمعنى القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ الجمعة ٩. ويراد بالذكر هنا صلاة الجمعة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ «سورة الحجر» ويراد بالذكر هنا القرآن الكريم.

أما الذكر بمعنى التسبيح فقد وردت فيه عدة آيات بينات من القرآن الكريم منها: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ وغيرها.

والذكر واجب شرعاً - بدليل قوله تعالى ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ﴾.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ﴾ وليس للذكر مكان خاص أو هيئة خاصة قال تعالى ﴿فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ النساء ١٠٣. ولا يكتفى بالذكر في الصلاة فقط أو بالذكر القليل فالذكر مأمور به في الليل والنهار، في السر والجهر، بالقلب وباللسان والكثرة فيه مطلوبة قال تعالى ﴿ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا﴾ ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾.

وقال تعالى ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ الزخرف ٣٦ ومما يدل على وجوب الذكر بأنواعه، العذاب والويل لمن تركه، قال تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ الزمر ٢٢.

أما كيفية الذكر الصوفي فنوعان: ذكر باللسان وذكر بالقلب.

وبعض الطرق الصوفية تميل إلى الذكر باللسان وبعضها تميل إلى الذكر القلبي وبعضها ترى الذكرين معاً فيبدأ باللسان ثم يتحول بعد تعوده إلى الذكر القلبي.

وذكر العلامة المناوي[١] أن الذكر ثلاثة أقسام: ذكر العوام باللسان وذكر الخواص بالقلب وذكر خواص الخواص. فهم عند مشاهدتهم مذكورهم يتركون أو ينسون كل شيء وجل أمانيهم أن تدوم حالة الشهود إلى الأبد، ويكون الحق مشهوداً لهم في كل حال.

وقال الإمام النووي[٢] رحمه الله: الذكر يكون بالقلب ويكون باللسان

---

(١) انظر نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها للدكتور عرفان عبد الحميد.

(٢) اللمع ص١٠٠ وما بعدها.

والأفضل منه ما كان بالقلب واللسان معاً فإن اقتصر على أحدهما فالقلب أفضل. قال تعالى ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا﴾ وقال تعالى ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

والحقيقة أن الأفضلية تتبع أهلية الذاكر، وإرشاد المرشد، فإن كان يخشى منه الرياء وله صوت مسموع أو أدى الجهر إلى إيذاء الآخرين فلا خير في جهره. وإن كان جهره يزيد حماسه وشوقه فهو الأفضل. وإن المسلم العاقل يهتدي إلى ما هو خير منهما.

إن ذكر الله هو العلاج الفعال المجرب منذ (١٤) قرناً ونيف من السنين لغسل الرين في القلوب، ولإزالة ما يعلق بها من صفات الرذيلة كالحسد والكبر والبخل والكذب. قال تعالى ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ الرعد ٢٨ وللقلب صدأ كما يصدأ الحديد وهو صدأ معنوي قال سبحانه ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ المطففين ١٤ ويعني ذلك أن الأعمال السيئة تنقلب إلى صدأ معنوي يتعلق بالقلب. وقال سبحانه ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾.

والغل هنا معنوي لا نحس به ظاهراً وهو الحقد والخيال المريض.

وما سعي السالك الصوفي واستقامته على الذكر إلا ليتطهر قلبه من الصدأ المعنوي وكما قالوا: القلب كالمرآة المغشاة بالدخان فإن ذكر الله سبحانه صقل وتطهر وحينذاك يتجلى نور ربه فيه، وتكشف الأسرار المعنوية ويحصل هذا الفيض للسالك بقدر استعداده. ومع أن الذكر للسالكين يتم حسب توجيه المرشدين فإن الذكر عموماً هو ذكر «الله» «لا إله إلا الله».

قال النبي (ﷺ): أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي، كلمة (لا إله إلا الله).

وقد يُقدِّر المرشد حالة مريد له فيلقنه ذكراً آخر مثل «لا حول ولا قوة إلا بالله» أو قراءة سورة من القرآن.

وللذكر آدب بيّنها العارفون، في مقدمتها، النظافة الجسمية والوضوء ومنها المكان المعزول الذي لا تشم فيه رائحة الرياء، ومنها حضور القلب فينبغي أن يلاحظ الذاكر أنه حاضر أمام ربه وأن يكون على أتم الصفات أدباً ولا يغفل، ويقول بملء قلبه: أطلب عفوك ورضاك وقربك. ولكن الشرط الأساسي هو التوبة لمن له مرشد أو ليس له مرشد، فلا يحصل له شيء إلا بعد الإقلاع بالتوبة عن كل سوء.

وكلما كان المكان خالياً كان الذكر أفضل ليتم التركيز، وسأحقق هذا الموضوع في مبحث الطريقة النقشبندية.

ويبدأ الذكر بالذات (الله).

وهنا أذكر أن من أدب الذكر أن يلصق اللسان بعرش الفم في وقت الذكر.

وقد يتساءل البعض ما هذا؟ ولماذا؟

في تجربة خاصة بي كنت في الرابعة عشرة من عمري لَقّنني شيخي ووالدي رَحَمَهُ ٱللَّهُ الطريقة وقال: اذكر الله بقلبك، وفي حال الذكر ألصق لسانك بعرش الفم. فتلقنت التعليم دون أن أسأل لماذا؟ لقلة الخبرة أولاً وعامل الخجل ثانياً. أما الآن فإني أعرف حكمتها وهي أن الغرض هو عقد اللسان ومنعه من الحركة، ذلك أن من طبع اللسان الحركة عند الكلام فإن لم يوقف فإنه يندفع بحركة تلقائية فيرجع الذكر من القلب إلى اللسان فيكون المرء ﴿كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثٗا﴾. ولا يتحقق للقلب شيء. وبهذا العمل العضلي «إلصاق اللسان» يشتد التركيز. وإن كان للذاكر مرشد حقيقي فإنه سرعان يبدأ قلبه بالذكر ويتطهر من الصدأ والرين.

وقد يرد هنا مصطلح صوفي آخر هو: عالم الخلق وعالم الأمر اقتباساً من قوله تعالى ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ الأعراف ٥٤. ويقصدون بعالم الخلق عالم المادة وبعالم الأمر عالم الممكنات والمعنويات وهو عالم كان بأمر كن. واللطائف التي ذكرناها وهي القلب والروح، والسر، والخفي، والأخفى هي ليست بمحسوسات، وهي من عالم الأمر، ويتزكى الواحد منها بعد الآخر بذكر الله سبحانه ثم تزكى النفس الناطقة وهي من عالم الحس.

فإن بدأ بالذكر القلبي، فقد ابتدأ بعالم الأمر في مصطلحهم وإن بدأ بالذكر اللساني فقد بدأ بعالم الخلق كذلك. وفي هذه الحالة فإن المرحلة الأخيرة هي تزكية القلب. أما من بدأ بعالم الأمر أي بالذكر القلبي فإن جميع اللطائف والعناصر تذل وتخضع بسبب تزكية القلب سلطان البدن، ويبلغ السالك مراده. وهذا معنى ما قاله الشيخ محمد بهاء الدين النقشبند: «أن أولى خطواتنا حيث تنتهي محطات غيرنا» إذ هم يقطعون تسع مراحل لكي يصلوا إلى القلب أما نحن فنشتغل بالقلب في أولى المراحل.

والذكر كما قلنا يكون بذكر «الله» أو بالنفي والإثبات ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

فإن استقر الذكر «الله» أو ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ في النفس قام أعضاء الجسم كله بالذكر، وهو ما يسمى عندهم بـ«سلطان الأذكار» وإذا سمع ذكر الله من كل شيء، فيسمى بذكر «ما سوى».

ولنا تفصيل آخر للذكر في الطريقة النقشبندية. وخلاصة ما ذكرنا أن الأساس الأول للتصوف هو الذكر بنوعيه وبذكر الله، أو، لا إله إلا الله.

ويرى الإمام الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال: إن السالكين

عليهم أن يستغرقوا في الذكر بعد أداء الصلاة المكتوبة والسنة ويفضل الذكر على قراءة القرآن. ذلك أن الذكر يروض الإنسان ويسكن جذوة جموحه «ومن جرب حجة على من لم يجرب».

٧) الإشراق:

اقترنت فكرة الإشراق الصوفي بالشيخ شهاب الدين يحيى بن حبش السهروردي. والسهرورد من زنجان في ميديا القديمة. ولد فيها عام (٥٤٩هـ - ١١٥٥م) وقتل في مدينة حلب عام (٥٨٧هـ - ١١٩١م) في عهد الملك الظاهر لاتهامه بالزيغ في عقيدته كما قتل الحلاج بفتوى علماء الدين. وقيل إنهم ندموا على قتله وهو غير الشيخ عمر السهروردي المتوفى في بغداد ولكنهما من أسرة واحدة.

فقد دخل الإشراق عالم التصوف في النصف الثاني من القرن السادس الهجري بالإمكان أن نقول إن أساسها بنيت على الفلسفة الأفلاطونية، أو هي ثمرة اختلاط التصوف بالفلسفة الأفلاطونية. وقال أبو القاسم الكازروني (١٠٥٠هـ - ١٦١٠م):

كما أن الفارابي يعتبر مجدد الفلسفة المشائية أي فلسفة أرسطو وسمي المعلم الثاني، فإن الشيخ شهاب الدين السهروردي هو مجدد الفلسفة الإشراقية وهي فلسفة أفلاطون.

وقال السهروردي معرفاً بفكرة الإشراق:

إن خرجنا عن الطبيعة الجسدية، وتخلصنا من التمتع بملذاتها أشرق نور الله في قلوبنا وهو نور دائم يفيض من مصدر العطاء لكل كائن وكل ذي روح ويسمى بالروح المقدسة ويسمى «العقل الفعال» بلغة الفلاسفة.

فالإشراق يعني أن الإنسان الذي يروض الطبيعة الجسدية، ويتوجه بقلبه إلى ربه فإن نور الله يشرق من قلبه كالشمس.

وقال بعضهم[1]: لمعرفة الله طريقان: أولهما، طريق الفكر والاستدلال وثانيهما، طريق المجاهدة والرياضة.

والذين اتبعوا الطريق الأول في ضوء هدي الإسلام هم المتكلمون.

وأما الذين لم يهتدوا بالدين في هذا الطريق فهم الحكماء المشاؤون.

والذين اتبعوا الطريق الثاني في ضوء منهج الدين هم الطائفة الصوفية، وأما الذين لم يهتدوا في هذا الطريق فهم الطائفة الإشراقية.

وعلى هذا لا يعتبر الإشراق صوفية إسلامية وما هو إلا اتباع المجاهدة النفسية دون الاهتداء بتعاليم الشرع[2].

وأرى أن السهروردي المشهور بالقتيل كان مسلماً صوفيًّا لامعاً وكان متقد الذكاء واسع العلم وقوي الحجة ولكنه لم يتمكن من صياغة فكره في إطار سليم مقبول شرعاً فقتل شابًّا في السادسة والثلاثين من عمره.

٨) المشاهدة:

قال عمرو بن عثمان المكي رَحِمَهُ اللهُ[3]:

المشاهدة ما لاقت القلوب من الغيب بالغيب ولا يجعلها عياناً ولا يجعلها وجداً. وقال أيضاً: المشاهدة تعني المحاضرة وتعني المداناة.

وقال أيضاً: المشاهدة حضور بمعنى قرب مقرون بعلم اليقين وحقائقها.

---

(١) حقائق عن التصوف ص١٨٢.

(٢) حقائق عن التصوف ص١٥٨ نقلاً عن الفتوحات الربانية على الأذكار النووية.

(٣) راجع حاجي خليفة في كتابه كشف الظنون والنهانوي في كتابه كشاف اصطلاحات الفنون.

وأهل المشاهدة على ثلاثة أحوال:

فالأول منها الأصاغر وهم المريدون. وهم يشاهدون الأشياء بعين العبرة أو يشاهدونها بأعين الفكر. والحال الثاني الأوساط. وأشار إليها أبو سعيد الخراز أن قال: الخلق في قبضة الحق وفي ملكه فإذا تمت المشاهدة فيما بين الله وبين العبد لا يبقى في سره ولا في وهمه غير الله تعالى. والحال الثالث من المشاهدة ما أشار إليه عمرو بن عثمان المكي في كتاب المشاهدة فقال: إن قلوب العارفين شاهدت الله مشاهدة تثبيت فشاهدوه بكل شيء وشاهدوا كل الكائنات به.

قال صاحب اللمع[١] المشاهدة حال رفيع وهي من لوائح زيادات حقائق اليقين.

قال الشيخ عمر السهروردي[٢]: المحاضرة لأرباب التلوين، والمشاهدة لأرباب التمكين، والمكاشفة بينهما إلى أن تستقر.

فالمحاضرة لأهل العلم، والمكاشفة لأهل العين، والمشاهدة لأهل الحق، أي حق اليقين. فالمشاهدة هي الرؤية بعين البصيرة بنور الحق، وتذوقها بالقلب والضمير والمكاشفة وضوح الشيء والمحاضرة الاستعداد مع الشيء أو الحضور معه، والتلوين والتمكين هما مقامان من مقامات التصوف. التلوين للسالك الذي يتنقل من مقام إلى مقام والتمكين للسالكين الذين وصلوا واستقروا.

٩) اللاهوت والناسوت والجبروت والملكوت

عالم اللاهوت من عالم الروح، ويطلق اللاهوتي على متخصص

---

(١) اللمع ص١٠١.

(٢) عوارف المعارف ٣٦٩.

في الروحانيات وعلم اللاهوت موضوعه ذات الله سبحانه مثل علم الكلام. وبمعنى الإلهيات.

وعالم الناسوت من عالم المادة، والناسوت سريانية أخذت من كلمة الناس وهو علم يتعلق بالإنسان والعالم المادي. وبمعنى الإنسانيات.

والجبروت من صفات الله سبحانه «الجبار» من القدرة والقهر.

والعبد مختار في عالم الملكوت ومجبور في عالم الجبروت عليه أن يختار ما اختاره الحق وأن يريد ما يريد. وعند أبي طالب المكي: الجبروت عالم العظمة وهو عالم الأسماء والصفات الإلهية وعند كثيرين الجبروت عالم الأوسط وهو البرزخ أي بين الناسوت والملكوت وهو عالم الغيب فالناسوت عالم المادة والطبيعة والإنسان.

والجبروت وسط بين الناسوت والملكوت

والملكوت عالم المطهرين والملائكة

وعالم اللاهوت هو عالم الغيب ويتعلق بذات الله سبحانه وحده.

١٠) العناصر الأربعة:

قال القدماء إن العالم مركب من أربعة عناصر سميت بالاستقصّات والأركان، وهي الماء والتراب والنار والهواء. ويشار إليها في كتب التصوف في مبحث تزكية اللطائف لا سيما في السلوك الصوفي النقشبندي ويقولون: اللطائف التي يتكون منها الوجود المادي والمعنوي أو الظاهري والباطني للإنسان عشر، خمس منها لعالم الخلق وهي «العناصر الأربعة» والنفس، والخمس الأخر من عالم الأمر وهي: القلب، الروح، السر، الخفي، الأخفى.

١١) الولي:

جاء الولي صفة لله سبحانه في القرآن الكريم ووصفاً للعبد أيضاً.

قال تعالى ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا﴾ ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ والولاية تعني الحفظ والنصر والعناية وحيث يأتي وصفاً للعبد يكون معناه المحفوظ والمنصور والمحبوب قال تعالى ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ سورة يوسف ٦٢ وقد عرفهم القرآن الكريم فقال سبحانه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ والولي من جمع بين الإيمان والصلاح والتقوى ويفهم هذا من قوله تعالى ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

وقال الشاعر الصوفي مولوي:

الولي من كان عارفاً بالله مدركاً للذات والصفات قدر الإمكان ملتزماً بحدود الشرع في تقواه بأنواعها الثلاثة مواظباً على العبادات متجنباً عن الشناعات.

ويريد بأنواع التقوى: التقوى عن الكفر، والتقوى عن الذنوب، والتقوى عن التهالك على الدنيا.

والولي في عرف التصوف لا سيما النقشبندية من اجتاز المقامات العشرة التي ذكرناها سابقاً كالتوبة والزهد والصبر. والولاية تقسم إلى قسمين: الولاية الصغرى والولاية الكبرى. ولا يبلغ الولاية الكبرى إلا بعد تزكية لطائفه بالذكر الدائم.

ويرى كثيرون من مشايخ التصوف: أنه تبدأ النبوة بعد درجات الولاية الكبرى، فالولي لا يصل مقام النبوة، وللأنبياء مقاماتهم؛ مثل خليل الله وكليم الله، وروح الله.

وإن مقام محمد (ﷺ) - روحي له الفداء - فوق كل مقام للنبوة.

وقد يقال: هل يدرك الولي مقامه؟

والحقيقة أنه لا يشترط أن يعرف ذلك.

وأذكر أنني كنت شابًّا في مقتبل عمري التَمَسَ مني أحد السالكين من مريدي الوالد الشيخ علاء الدين رَحِمَهُ الله أن أتكلم مع والدي بشأنه واسمه «فقي محمد». وقال: إني ما أحسست بشيء من بركات السلوك الصوفي بعد. فنقلت رسالته إلى الوالد فضحك وقال: إنه ولي منذ مدة ولكنه لا يعرف ذلك فبشره بذلك وليدع لك بالخير. فأسرعت إليه وبشرته فكاد يصعق فرحاً.

ويرى كثيرون من أهل هذا العلم أن الولاية لا تعني بالضرورة حصول الكشف والكرامة ويقولون «العبرة بالاستقامة وليست بالكرامة».

ويرى الشيخ محيي الدين بن العربي: إن الولاية لا تكسب بالجهد والرياضة والعبادة بل هي موهبة من الله سبحانه مثلها مثل الحال.

وأرى أنه يعني أن الولاية لا تتبع إرادة المخلوق ذلك أن العبادة شرط لهذه الموهبة والحقيقة أن موضوع الولاية لم يذكر بهذا الشكل في عهد البعثة النبوية والرعيل الأول. وقد أثير في أواخر القرن الثاني الهجري. ولا شك أن الأصحاب كانوا أولياء وأن مقام الصحبة أعلى من مقام الولاية.

ومن الذين سبقوا في بيان الولاية بالصورة الصوفية الشيخ محمد علي الترمذي المتوفى ٢٩٦هـ وعرفت الولاية كذلك في شخص فضيل بن عياض ١٨٧هـ والشيخ معروف الكرخي ٢٠٠هـ والشيخ جنيد ٢٩٧هـ والمحاسبي ٢٤٣هـ وذي النون المصري ٢٤٥هـ. وتوضحت الصورة الصوفية للولاية في زمن أبي يزيد البسطامي المتوفى ٢٦١هـ.

وجاء في الحديث القدسي في صحيح البخاري: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب.

١٢) المريد والمراد: مصدرهما الإرادة

المريد من غلبه حب الله سبحانه فانقطع إليه سبحانه بالعبادة وأراد رضوانه. قال سبحانه ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ سورة فصلت ٣٠ وقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ الأحقاف ١٣. وقال سبحانه بشأن مريديه، ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ الأنعام ٥٢.

والمراد هو التائب المستقيم الذي أحبه الحق وجذبه إليه، وهو يشمل الأنبياء جميعهم ويعتبر إبراهيم بن أدهم مراداً في نظر التصوف. ويروى أنه كان أميراً خرج يطلب الصيد متلهياً فنودي من وراء الحجاب مرتين: ما لهذا خلقت ولا لهذا أمرت. فنزع ثيابه الملكية وأعطاها راعياً معه مقابل ثيابه وقضى حياته في الشام والمدينة عابداً صوفيًّا. قال فيه أحد الشعراء: إن إبراهيم أدهم أعرف بسعادة الدرويش في ملكه فاسأله، إذ لا يعرف قيمة الساحل إلا من أخذه السيل فجربه.

فالمريد من أراد ربه، لا من أراد شيخه إلاّ تجوزاً، والمراد من أراده الله وطلبه.

جاء في كتاب ألفاظ الصوفية: على المريد التخلي عن رغبات النفس الأمارة بالسوء والتوجه الكلي إلى الحق سبحانه. ولا يكون المريد مريداً حقًّا إلا إذا صفت إرادته ولا تصفو إرادته إلا إذا صفا قلبه عن قبائح الصفات وتحلى بفضائل الشمائل. ومن كان كذلك يقربه الله سبحانه إلى لطفه ويفتح له أبواب رحمته فيصبح مراداً. فهو مريد في جهاده وسعيه ومراد في لطفه سبحانه وكرمه.

قال الشيخ عبد القادر الكيلاني في كتاب الغنية:

المريد يسعى ولكن المراد محظوظ، والمريد يمشي برجله والمراد

يحلق كالطير، المريد طالب والمراد مطلوب. والمراد من يجذبه الحق والمريد يسعى للحق وبسعيه يصل إليه.

جاء في كتاب معجم مصطلحات الصوفية: المريد من انقطع إلى الله عن نظر واستبصار وتجرد عن رؤيته إذ علم أنه ما يقع في الوجود إلا ما يريده الله ﷻ لا ما يريده غيره فيمحو إرادته فلا يريد إلا ما يريده الحق.

جاء في كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف(١):

المريد مراد في الحقيقة والمراد مريد لأن المريد لله تعالى لا يريد إلا بإرادة من الله ﷻ، غير أن المريد من سبق اجتهاده كشوفه والمراد من سبق كشوفه اجتهاده، ثم قال: المراد هو الذي يجذبه الحق جذبة القدرة ويكاشفه بالأحوال فيثير قوة الشهود منه اجتهاداً فيه وإقبالاً عليه وتحملاً لأثقاله.

ومِنْ آداب سلوك المريد «قلة الأكل، وقلة النوم، وقلة الكلام، والعزلة، والاستقامة على العبادة والدوام على الذكر، وترك ما لا يعنيه، والاسترشاد بمرشد حقيق لا بمرشد مزيف قاطع للطريق» ومنها الأدب: ويرى بعضهم أن التصوف هو الأدب ثم الصدق والإخلاص للمرشد ثم الاستقامة وغيرها من فضائل الدين.

قال القشيري: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول:

«الإرادة لوعة في الفؤاد لدغة في القلب، غرام في الضمير، انزعاج في الباطن، نيران تتأجج في القلوب» نعم هكذا تكون إرادة المريد!!

وقال الجنيد: إذا أراد الله تعالى بالمريد خيراً أوقعه إلى الصوفية ومنحه صحبة الفقراء. وقال أبو بكر الدقاق: لا يكون المريد مريداً حتى لا يكتب عليه صاحب الشمال عشرين سنة.

---

(١) ص١٣٩.

وقال القشيري في الفرق بين المريد والمراد:

سنة الله مع القاصدين مختلفة فأكثرهم يوفقون للمجاهدات ثم يصلون بعد مقاساة اللتيا والتي إلى سني المعالي. وكثير منهم يكاشفون في الابتداء بجليل المعاني ويصلون إلى ما لم يصل إليه كثير من أصحاب الرياضات إلا أن أكثرهم يردون إلى المجاهدات بعد هذه الأرفاق ليستوفي منهم ما فاتهم من أحكام أهل الرياضة. وينقل عن أبي بكر الدقاق قوله أن هنالك فرقاً بين الأنبياء ويقول: كان موسى عليه السلام مريداً فقال: رب اشرح لي صدري وكان نبيًّا مراداً فقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ويقولون: المريد يذهب المراد يُدعى والكل يصل المراد.

١٣) الخليفة:

ومما يستحسن بيانه هنا بالمناسبة أن «الخليفة» في عرف أهل الطريقة من يخلف الشيخ وينوب عنه في أداء بعض وظائف مرشده، وهو فيما بينهم أقسام:

القسم البدائي: وهو الذي ينوب عن المرشد في تعليم الطالبين آداب الطريقة من الذكر والفكر والخلوة ومداومة اتباع الكتاب والسنة وترك المحرمات وأداء الواجبات والمندوبات بقدر الطاقة إلى غير ذلك.

القسم المتوسط: هو الذي تنورت لطائفه الصدرية من لطيفة القلب والروح والسر والخفي والأخفى بدوام الذكر، وينوب عن المرشد بإذنه أن يتوجه بقلبه إلى قلب المريد مستمدًّا من روحانية مرشده حتى يشع على قلب المريد بالأنوار ويكسح ما فيه من المفاسد النفسية والرذائل البشرية وينوره بأنوار الحقيقة ليتمكن من ملازمة الشريعة الغراء ويبتعد عن إطاعة النفس والهوى ويبتعد عن الشيطان فيكون من عباد الله المخلصين.

القسم الثالث: الإعدادي هو الذي ينوب عن المرشد في الإرشاد

وإلقاء الأنوار حضوراً وغياباً، ويكون بحيث إذا أراد إلقاء الأنوار إلى قلوب بعض المريدين الغائبين أمكنه الله تعالى من ذلك ويكون له في هذه الدرجة المكاشفات والتلقيات الروحية من مرشده ومنه إلى المريدين ويستقيم على هذه الحالة بحيث يعتبر من الناس الصالحين المتبعين بمعنى الكلمة، وهم الصالحون الذي أشار إليهم الباري تعالى في كثير من آيات الذكر الحكيم، وأصحاب هذه الدرجة من الخلفاء يقدرون على تربية المريدين في ظل أوامر الشيخ المرشد وفي حياته (لا بعد وفاته).

والقسم الرابع: المحترم هو المريد السالك في مسالك الطريقة والواصل إلى درجة الفناء والبقاء وهما درجتان عاليتان ينالهما من خصَّه الله تعالى بأنواره وألهمه من أسراره وتمكن من تلقي الفيوضات الربانية، فهم على الدوام تشع على قلوبهم الأنوار كما تشع الشمس طيلة النهار على من كان في أفقها الطالع.

وعند ذلك يأذن لهم المرشد بإرشاد المسلمين إلى الحق وملازمته التقوى، ولهم في ذلك المقام الارشاد المطلق بحول الله وقدرته ويتبين كل تلك الدرجات بالآثار والأدلة الواضحة. منها أولاً، ملازمة الطاعة ومجانبة الهوى والمحرمات مطلقاً وثانياً، عدم الانهماك في الدنيا الدنية ومطامعها السيئة ولا يقتربون مما يغفلهم عن ذكر الله تعالى ويداومون على أداء الفرائض والمندوبات المؤكدة، ومنها ثالثاً، استفادة من جاورهم، من أنوارهم القلبية ونصائحهم اللسانية وآدابهم المرضية.

ورابعاً، يتنورون بالأنوار الموجودة في قلب ذلك الشخص كما يحترق الورق الذي يقابله المنظار المقابل للشمس، وهذه العبارات واقعة في موقع التمثل والله يحق الحق ويهدي السبيل.. ومن الجدير بالذكر فإن المرشد عندما يأذن خليفة بواحد من الأقسام المذكورة، يذكر حدود إمكانات الخليفة ومقامه ودرجته، خاصة بالنسبة للخليفة المجاز بالإرشاد، إن كان في حياة المرشد أو بعدها، خاصة بالنسبة للإرشاد

المطلق.. فلا بد أن يؤشر المرشد في متن الإجازة بأن فلاناً قد وصل إلى مقام البقاء بعد الفناء، وإن لم يذكر ذلك فمعناه أن الخليفة ليس إلا ممثل مؤقت للمرشد في حال حياة المرشد لا بعد ذلك، وأن النموذج الحي بالنسبة للطريقة النقشبندية هو إجازة الشيخ محمد بهاء الدين بن الشيخ عثمان سراج الدين النقشبندي عم مرشدنا الشيخ علاء الدين ﵀ لأخيه الشقيق الشيخ عمر ضياء الدين قدس الله أسرارهم فهناك يشهد الشيخ بهاء الدين بأن أخاه الشيخ ضياء الدين تجاوز المقامات المطلوبة كافة إلى أن استقر في مقام البقاء بعد الفناء... فلا ينال مقام الإرشاد المطلق إلا ذو حظ عظيم(*).

(*) وإن متن هذه الإجازة منشورة في كتاب «يادي مه ردان» للشيخ عبد الكريم المدرس، وكذلك في كتاب «ما هو التصوف» لأمين النقشبندي وفي آداب المشايخ النقشبندية، لا يستحق أحد أن يقوم بالإرشاد المطلق خاصة بعد وفاة المرشد، إلا بعد الوصول إلى هذا المقام الكريم، والحصول على الإجازة المذكورة من مرشده.

[illegible]

الحمد لله الذی نوّر قلوب عباده بالکتاب و[illegible] المؤمنین ببرهان رسوله الکریم الهادی علی نهج الحق و الصواب صلی الله

علیه و [illegible] سیدنا و مولانا حبیبه و خیر خلقه محمد و آله و صحبه الذین هم نجوم الهدی لاولی الالباب اما بعد

[illegible] از آنجا که فقیر بی بضاعت با وجود عجز و تقصیر حسب الامر و اجازهٔ حضرت والد ماجد قدس سره مجاز و مأذون مطلق در طریقهٔ علیهٔ نقشبندیه مجددیه [illegible]

[illegible] خدمت [illegible] کرام [illegible] قدس سره [illegible] ارشاد [illegible] طالبان این نعمت عظمی [illegible]

[illegible] بهره [illegible] حق [illegible] و با هر یک بقدر استعداد خود معامله

[illegible] سعادت [illegible] عزیز

ظاهری و باطنی [illegible]

[illegible] حضرت [illegible] استقامت [illegible] تهذیب [illegible]

[illegible] تفاوت [illegible]

[illegible] حضرت [illegible]

[illegible] اجازه حضرت [illegible]

کامل و نسبت [illegible] صدق [illegible]

مسرور بوده [illegible] قبول [illegible]

مریدان و در تعلیم طالبان [illegible] طریقت [illegible]

طریقت مشایخ [illegible] اوقات [illegible]

[illegible] قبول [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

نص الرسالة

بسمه سبحانه وتعالى

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، وأهدى المؤمنين بإرسال رسوله الكريم إليهم على طريق الحق والصواب. وصلى الله على سيدنا ومولانا حبيبه وخير خلقه محمد وآله وصحبه الذين هم نجوم الهدى لأولى الألباب.

أما بعد، گزارش ميرود ازانجا كه فقير بي بضاعت، باوجود عجز وتقصير، حسب الأمر وأجازه، حضرت والد ماجد قدس سره، مجاز ومأذون مطلق در طريقه عليهء نقشبندية بوده وهستم، وبه أمر ظاهرى. وباطنئ مشايخان كرام واولياء عظام قدس الله أسرارهم بر سجاده، إرشاد نشسته ام. طالبان أين نعمت عظمى وغواصان بحر توفيق از عشق اين جواهر نقيسهء كبرى كه وصول به درجهء حق اليقين است، دست توسل به ذيل اين خادم درويشان زده وميزنند، وبا هريك به قدر استعداد خود معاملهء ظاهرى وباطنى معمول شده وميشود، لا سيما برادر والا گهر، درّ درياى ارادت، مصباح زجاجهء سعادت، مركز دائرهء صداقت، كوّهء بصيرت، وقوهء بصر، عزيز الوجود خجسته سير شيخ عمر خفظه الله الملك الأكبراست، كه در عصر حضرت والد ماجد قدس سره مدت

مدید بر سلوك استقامت داشته وتهذیب أخلاق نموده، واستعدادا بر أمثال وأقران خود بر مثال تفاوت شمس وسائر كواكب غالب گردیده، والحمد لله شرف نعمت بقای بعد از فنا یافته، ومراتب ومقامات علیه را طی نموده، وبه خلعت اجازهء حضرت ایشان وسائر مشایخان قدس سرهم بهره یاب گردیده.

علی هذا نظر رأفت وشفقت حضرت پیر در حق وی بمنه كامل، ونسبت اخوتش با فقیر به سه جهت حاصل است. یكی نسبی، ویكی حسبی، ویكی عهدي. فقیر نیز از كمال ادب وارادت وصدق رضای خاطر عزیزش همواره مسرور بوده. اگرچه قبول خاطر بزرگان زودتر شده بود، باز هم به نیابت مشایخان كرام قدس الله أسرارهم، محض اتمام داب سعادت آن عزیزرا از قبول نمودن مریدان وتعلیم طالبان وتبلیغ أحكام شریعت وطریقت مجاز ومفوض نمودیم كه بر وفق شریعت غرای حضرت سید الأنام علیه وعلی آله ألف صلاة وسلام وآداب طریقت مشایخان قدس الله أسرارهم به تربیت طالبان اوقاترا صرف نماید، وطالبان را از خلفا ومرید ومحسوب ومنسوب از صغار وكبار وأدنی وأعلی نیز وظیفهء عین است كه حسن أدب وأطعات أوامر ونواهي وقبول نصایح مشفقانه آن عزیزرا آویزهء گوش هوش داشته صحبت وشرفت خدمتش غنیمت وقت خود شمرند، واز عجز دررنجش خاطرش بپرهیزند، چنانچه از زهر قاتل بپرهیزند كه رد وقبولش رد وقبول حضرت حقیر وحضرت پیر دستگیر وسائر مشایخ عظام واولیاي كرام است.

زیك شاخیم اگر شیرین اگر تلخ
زیك بزمیم اگر هشیار اگر مست

(ذلك فضل الله یؤتیه من یشاء، والله ذو الفضل العظیم. اللهم اجعله للمتقین إماما، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظیم. وصلی الله

على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٥ ذي القعدة ١٢٩٤هـ

محمد العثماني النقشبندي

فقير در درون دل شيخ عمر سلمه الله در دنيا وعقبى قبول نمودم، بل در ميان جان جاى داده ايم. همين نوشته سنداست. حق سبحانه وتعالى قبول فرمايد.

محمد العثماني

بسمه سبحانه وتعالى

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب وهدى المؤمنين بإرسال رسوله الكريم إليهم على طريق الحق والصواب وصلى الله على سيدنا ومولانا حبيبه وخير خلقه محمد وآله وصحبه الذين هم نجوم الهدى لأولي الألباب، أما بعد:

فقد أجازني والدي رحمه الله للإرشاد. فمن أراد القرب من فيض الحقيقة، وسلوك الطريقة (وحق اليقين) استرشد بي، وكان لكل ما يستحقه وفقاً لاستعداده.

ومنهم أخي (الشيخ عمر) الذي عاش مدة يزكي نفسه بالطاعات تحت تربية شيخنا الوالد وقد تميّز بين أقرانه تميز الشمس عن النجوم وقطع المقامات العالية ووصل إلى «نعمة البقاء بعد الفناء» وتشرف من قبل بخلعة الإجازة من الوالد والمشايخ الكرام، فقد أجزته أيضاً لإرشاد الشريعة والطريقة توثيقاً لآداب الطريقة وتأكيداً لعرى الأخوة النسبية والإيمانية. وله الآن حق تربية المريدين بالاستقلال طبقاً لشريعة سيد الكائنات. فعلى المريدين والخلفاء اتباع نصائحه وإرشاداته واحترام

توجيهاته. وليحذروا من إيذائه حذرهم من السم القاتل. فمن رضي به رضينا به ومن رده رددناه.

نحن الاثنان ثمار شجرة واحدة كيفما كنا

نحن من فصيل واحد كيفما كنا.

وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم اللهم اجعله للمتقين إماماً، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ذو القعدة ١٢٩٤هـ

محمد العثماني النقشبندي

هذا وفي الأصل المترجم بيان مفصل للأخلاق الحميدة التي يتحلى بها الصوفي وللصفات الذميمة التي يتخلى عنها، وأكتفي في الترجمة بتعدادها لوضوح معانيها للقارئ العربي.

الصفات الحميدة



١ حب الخير للناس
٢ الإخلاص
٣ التواضع
٤ الجود
٥ الصدق
٦ الأمانة
٧ القناعة
٨ الرحمة
٩ الحياء والأدب
١٠ محبة الناس
١١ الشجاعة
١٢ الثقة
١٣ الحلم
١٤ العفو
١٥ صلة الرحم
١٦ السعي للخير
١٧ شكر النعمة
١٨ نكران الذات والإيثار
١٩ الوفاء

الصفات الذميمة



1. الحسد
2. الرياء والنفاق
3. الكبر والعجب والغرور
4. البخل
5. الكذب
6. خيانة الأمانة
7. التكالب على المال أو الجاه
8. القسوة
9. الوقاحة
10. كراهية الناس
11. الجبن
12. عدم الثقة
13. الغضب
14. الانتقام
15. قطع الرحم
16. النميمة
17. كفران النعمة
18. حب الذات

الباب السادس

الطريقة النقشبندية

الطريقة النقشبندية

الطريقة مسلك خاص من مناهج التصوف يتخذه السالك للوصول إلى غاية هي الإيمان الكامل الذي يصل إلى عين اليقين أو حق اليقين. وهنا لا يكون الإيمان تقليديًّا أو استدلاليًّا يمكن تعرضه لهزة الشك إذ يرى بعين بصيرته فلا يؤثر فيه شيء. وكما قال الإمام الرباني في مكتوباته إن الفرق بين إيمان العلماء وبين إيمان المشايخ الكاملين للتصوف هو أن معرفة العلماء بالاستدلال وأن معرفة المتصوفين بالكشف والذوق وسواء كان الأساس استدلالاً أو كشفاً فإن الغاية هي تطبيق الشريعة المحمدية.

وكما أننا نجد في ميادين علوم الشريعة مجتهدين كباراً برزوا وتركوا مذاهب ومناهج مستقيمة فَسّرت للأجيال الإسلامية معاني الشريعة وأهدافها مثل الإمام مالك بن أنس (٧١٥-٧٩٥م) وأبي حنيفة (٦٩٩-٧٦٧م) ومحمد بن إدريس الشافعي ٧٦٧-٨٢٠م وأحمد بن حنبل ٧٨٠-٨٥٥ ومجتهدين آخرين درسوا هذه العلوم وتبحروا فيها وكونوا مدارس متميزة فإننا نجد في ميادين علم التصوف رجالاً فضلاء شقوا طرقاً ومسالك اتخذها عشاق الروح للوصول إلى الإيمان الكامل من أمثال: الشيخ معروف الكرخي وأبي يزيد البسطامي، وذي النون المصري وعبد القادر الكيلاني، وأحمد البدوي وأحمد الرفاعي وبهاء الدين النقشبند، والشيخ عمر السهروردي، وأبي الحسن الشاذلي، ونجم

الدين الكبرى، وجلال الدين الرومي ومعين الدين الحسني الجشتي، وأبي العباس التيجاني، وعشرات من هؤلاء الرجال الذين أسسوا طرقاً خاصة لتربية السالك للوصول إلى نهاية المرام ولكنها تنبع جميعاً من مصدر واحد، ومَثَلُ ذلك «في الأمور الدنيوية» إننا نصنع من الحنطة عشرات من أنواع الخبز وصوره ونصنع من اللحم، والأرز أصنافاً عديدة من الطعام ولكل مذاق يختلف عن الآخر بالرغم من وحدة الأساس والمادة ولكن الجميع يؤدي غرضاً واحداً هو الشبع، والتمتع وبناء الجسم وتماسكه.

أو كما أن المذاهب الإسلامية تهدف إلى توضيح طرق العبادة وأحكام الشريعة والسنة النبوية لاتخاذها منهجاً للحياة.

فإن الطرق الصوفية تهدف أيضاً إلى ترسيخ الإيمان الكامل، وإيصال السالك إلى الإيمان اليقين «عين اليقين» لكي يكون قلبه مطمئناً بالإضافة إلى دعوته لتطبيق تعاليم الشرع.

وللسلوك الصوفي النقشبندي منهج خاص لإيصال المريد إلى غايته فالطريقة القادرية مثلاً تتخذ الذكر الجهري شعاراً لها والطريقة المولوية تعرف بقراءة الأشعار والذكر وحفلات السماع وللنقشبندية أوراد خاصة بهم ومع اختلاف الطرق في الأوراد والذكر والشعارات فإنها تلتقي في هدف واحد هو معرفته سبحانه ورضوانه والقرب منه.

وهي طرق حددها العارفون بالله من المشايخ المجتهدين في علم التصوف بهداية من ربهم سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ البقرة ٢٨٢ ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ العنكبوت ٦٩ فقد علمهم الله وهداهم ويتولون هم إرشاد مريديهم إلى هذه الطرق ومثل ذلك مثل الطبيب الذي يكتشف دواء لمرض فيصفه لمرضاه وهؤلاء أطباء القلوب تسلقوا معالي الآمال في معرفة الله فيرشدون السالكين للوصول إلى قمم الآمال ولا شك أنها جميعاً تعود إلى سنة النبي وسيرة السلف الصالح من

الصحابة والتابعين ومصدرها جميعاً هو القرآن الكريم وخاتم النبيين محمد (ﷺ).

ذكرنا أنه لا فرق بين الشريعة والطريقة ولكن الصوفي ينقطع للذكر والفكر فيصفو قلبه، ويزيد إيمانه فيكون عين اليقين فيُطبّق الشريعة بقلب ممتلئ الإيمان. ومَن انحرف عن الشريعة برأت منه الطريقة.

وبعد هذه المقدمة آن لنا أن نعرف:

١- ما هو المنهج النقشبندي للوصول إلى قمم الآمال الروحية؟

٢- كيف بدأت النقشبندية؟ وسلسلة رجالها حتى الوالد (الشيخ علاء الدين بياره) رحمه الله.

٣- متى سُمِّيَت هذه الطريقة بالنقشبندية؟ ولماذا؟

أشير أولاً إلى أقوال لمشايخ التصوف قبل الشروع في الإجابة المفصلة: قال الشيخ عبدالله الدهلوي المتوفى في (١٢٤٠هـ):

إن ثمرة هذه الطريقة «النقشبندية» هي الحضور الدائم في حضرة الحق تعالى وترسيخ العقيدة الإسلامية عقيدة أهل السنة والجماعة واتباع سنة النبي الكريم (ﷺ).

وفي كتاب الحديقة الندية للشيخ محمد بن سلمان البغدادي يروى أن الشيخ محمد مراد الأزبكي قال: «إن الطريقة النقشبندية طريقة الصحابة الكرام باقية على أصلها، لم يزيدوا ولم ينقصوا وهي عبارة عن دوام العبودية ظاهراً وباطناً بكمال الالتزام بالسنة والعزيمة وتمام اجتناب البدعة والرخصة في جميع الحركات والسكنات من عادات ومعاملات مع دوام الحضور مع الله تعالى على طريق الذهول والاستهلاك» ونقل في نفس المصدر عن ابن حجر الهيتمي ٩٠٩-٩٧٤هـ.

«الطريقة العلية السالمة من كدورات جهلة الصوفية هي الطريقة النقشبندية» قال مقدم كتاب القدسية: التصوف النقشبندي اتباع السنة وهو

معتدل ووسط وأساسه تطبيق الشريعة وتجنب البدع. ويقول أيضاً: إن اعتدال السلوك النقشبندي وما فيه من اتباع الشريعة، ويسر الطريقة كان السبب في شيوع هذه الطريقة لا سيما بين علماء الدين فقلبُ الصوفي النقشبندي لله، وجسمه للناس.

والحقيقة أن المشايخ الذين وصفوا هذه الطريقة مجمعون على أنها اتباع للشريعة أولاً، والدوام على الذكر والفكر والعبودية والإخلاص والإيثار ونكران الذات ثانياً، وبالنسبة لجواب السؤال الأول نقول:

جاء في كتاب إيضاح الطريق:

إن النقشبنديين لهم ثلاث طرق للوصول إلى قمة المراد:

١- الدوام على الذكر.

٢- المراقبة.

٣- طاعة المرشد.

لا بد من القول إن الخطوة الأولى هي التوبة أي الإقلاع عن كل عمل سيئ بشكل بات. وتطبيق تعاليم القرآن والسنة النبوية.

١- الذكر

وللذكر صورتان:

- ذكر «الله» ويعني ذكر الذات أو ذكر الجلالة.
- ذكر «لا إله إلا الله» ويعني النفي والإثبات.

ومن المعلوم أن الذكر عند النقشبندية ذكر خفي بالقلب.

أ- ذكر الله:

من آدابه: إن يكون الذاكر متوضئاً وفي مكان طاهر هادئ مستقبلاً

للقبلة. فيدعوه سبحانه لحفظه من وسوسة الشيطان والنفس ثم يستغفر الله. ويتذكر مرشده إن كان له مرشد. وبعد ذلك يبدأ بالذكر بقلبه.

ولكن الذاكر يمكنه ذلك بكل صورة وفي أي وقت قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ آل عمران.

ومن آداب الذكر الصوفي النقشبندي:

في البدء يلصق المريد لسانه بعرش فمه لمنعه من الحركة. وقد سبق بيان حكمته ثم تذكر «الله» قلبيًّا. والقلب من لطائف الباطن وليس المراد به اللحم الصنوبري ولكنه تحت الثدي الأيسر قليلاً ويتأمل عظمة «الله» لا شكل كتابة اسم «الله» «ليس كمثله شيء» فيؤمن أن الله موصوف بجميع صفات الكمال ومنزّهٌ عن كل نقص. وعلى الذاكر أن يكون دائم الذكر ليلاً ونهاراً ودون حركة من اللسان والبدن حتى يبدأ قلبه بالذكر، ويشعر هو به. ثم يتوجه إلى روحه التي في الجانب الآخر من الصدر تحت الثدي الأيمن بإصبعين. فيذكر الله به حتى يصبح الرّوح ذاكراً أيضاً، ثم يتوجه إلى لطيفة السر التي تقع فوق الثدي الأيسر بإصبعين مائلاً إلى الصدر ثم إلى لطيفة الخفي الذي يقع فوق الثدي الأيمن بإصبعين مائلاً إلى الصدر ثم إلى لطيفة الأخفى الذي يقع وسط الصدر فيبدأ بالذكر.

وحين تبدأ لطائفه بالذكر تصبح كل لطيفة مصباحاً مضيئاً بنور خاص وتبدأ لطيفة النفس بالذكر وهي في الجبين وهي من عالم الخلق واللطائف الأخرى من عالم الأمر وهي لطائف معنوية يحس بها السالكون وحدهم. وقد ذكرت سابقاً. وبعد ذلك يبدأ دور «القالب» البدن المؤلف من العناصر إذ تبدأ كل ذرة في جسده بالذكر ويحس به السالك نفسه.

وقال الملا حامد البيساراني وهو أحد علماء التصوف من

النقشبنديين: منهم من يذكر الله في يوم واحد خمسة وعشرين ألف مرة وأقلهم يذكر الله خمسة آلاف مرة.

واتضح مما سبق أنهم وضعوا خمس مراحل لذكر اللطائف التي في عالم الأمر ومرحلتين للطائف عالم الخلق. إذا للذكر سبع خطوات: هذا معنى ما قاله الإمام الرباني «إن طريقتنا سبع خطوات» وقال بعضهم كناية: «الطريقة خطوتان» خطوة في عالم الأمر، وخطوة في عالم الخلق. وإن الدوام على الذكر يجعل اللطائف السبع وكل ذرة في الجسم تذكر الله». وفي هذه الحال يشعر المريد بالراحة واللطافة في قلبه ووجدانه. وتقال لهذه الحالة «سلطان الأذكار» أو «سلطان الذكر» وقد يصل إلى حالة يحس فيها الذاكر بعد مواظبته على الذكر أن العالم كله يذكر «الله» بل يسمع ذكر «الله» من كل ذرة في الكون وهذا الذكر يسمى ذكر «ما سوى». ويعني أن كل مخلوق يذكر الله سبحانه. وهذه من لطائف الطريقة الجليلة. وقد أشار إليها الشيخ عمر ضياء الدين قدس سره حين قال في إحدى قصائده الصوفية «اللطائف جميعها غارقة في ذكر الله».

ولا بد من توضيح أن هذه الحالة هي ألف باء التصوف ومقدمته وهي من حالات التزكية أي تطهير اللطائف، وليست من حالات فناء اللطائف. ولكل لطيفة حالة فناء خاصة. وبعد فناء الكل يأتي البقاء وفي هذه المدة يطلع السالك على أسرار عجيبة ويُمنح من ربه مواهب معنوية.

ذكرنا أن اللطائف تتحول إلى مصابيح مشرقة بالنور حين تبدأ بالذكر ويقولون: إن نور كل لطيفة تحت قدم واحد من الرسل والأنبياء أولي العزم وكل سالك يفتح له بسبب أحد هذه اللطائف. فيكون له شبه بالخلق المعنوي لذلك النبي. وهي علاقة معروفة لدى العارفين، حتى إنهم يدركون هذه العلاقة بعد موت أصحابها في قبورهم. فهذا خلقه محمدي وذلك عيسوي ومن أدرك هذه الأمور بعين البصيرة كيف يتسلل الشك إلى إيمانه؟

لطيفة القلب تحت قدم آدم ولون نوره أصفر.

لطيفة الروح تحت قدم نَبِيَّينِ هما نوح وإبراهيم واللون أحمر.

لطيفة السر تحت قدم موسى واللون أبيض.

لطيفة الخفي تحت قدم عيسى واللون أسود.

ولا تناقض بين النور ولون السواد فقد يكون السواد أجمل شيء كلون العين والحاجبين مثلاً.

ولطيفة الأخفى ولونها أخضر تحت قدم حضرة سيدنا محمد (ﷺ).

فإن كان للسالك مرشد فإنه ينتقل بمريده من لطيفة إلى أخرى وإن تم نور اللطيفة تلألأ هذا النور في وجه المريد فيحس به هو ومرشده.

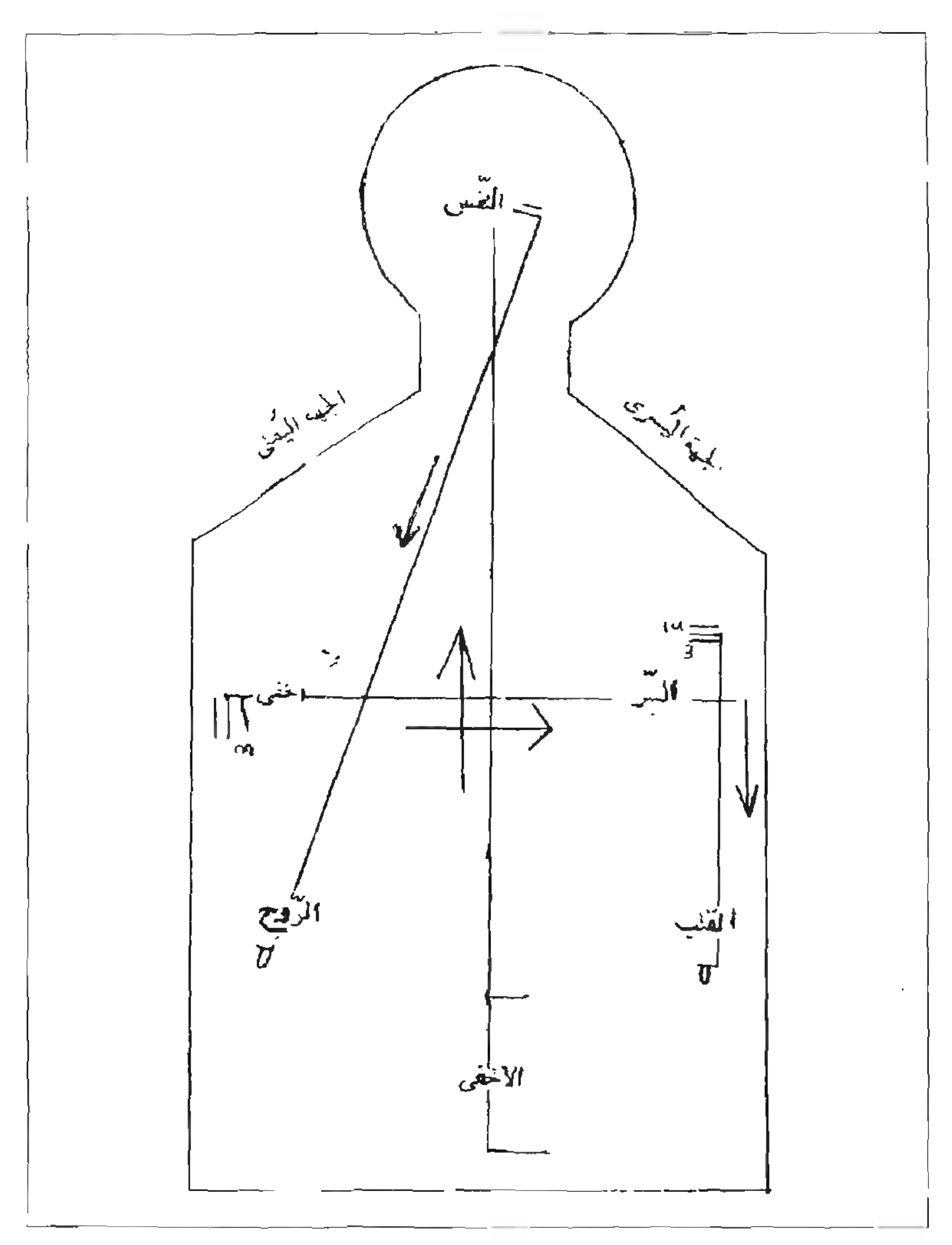
واللطائف مثلها مثل الحواس وهي في عالم المادة واللطائف من عالم الباطن.

وبعد تزكية لطائف عالم الأمر تبدأ تزكية النفس، وهي من عالم الخلق وليس لها لون كالماء يتلون بما يدخل فيه وتزيكتها صعبة فهي من عالم الطبيعة وهي في الأساس أمارة بالسوء ومنها تخرج كل الرغبات الخبيثة ولكن ذكر الله سبحانه يطهّرها ويروّضها. ويرى مشايخ التصوف أن هذا النوع من التزكية يحتاج إلى مرشد والمقصود بالمرشد العارف العابد الذي لا شك في ولايته واجتيازه هذه المقامات وهو إنسان بالاسم ولكنه قطعة من نور وملائكي الصنعة وربانيّ المسلك، ومن أصحاب المقامات العالية للبقاء بعد الفناء.

ومثل هذا الإنسان لا يُتَصوّر منه الخيانة لأمة محمد ولا يعقل أن يكون هدفه من الإرشاد الدرجات الدنيوية أو المكتسبات المالية.

ومن السهل أن ينقاد المرء لشخص له هذه المواهب والصفات ويجعله أستاذه ومرشده.

قلنا الذكر له صورتان أ- ذكر الله وقد ذكرناه.



كيفية ذكر النفي والإثبات (لا إله إلا الله)

وهذه صورة توضيحية لذكر لا إله إلا الله سرًّا وعلى الذاكر أن يفكر في المعنى لا في شكل «لا إله إلا الله» فيكون قصده في قلبه أنه لا موجود بحق يستحق العبادة إلا الله وأن العبودية هي هدف الذاكر. ويقصد من قوله «لا إله» أن كل موجود فان ومن قوله «إلا الله» إن الله باق وحده.

ب- ذكر «لا إله إلا الله» وهو معروف بالنفي والإثبات وإن معظم السالكين يبدأ بذكر الله ثم بالنفي والإثبات وقد يقدم المرشد ويؤخر في ذلك حسب تشخيصه لحال السالك وهو أدرى به. فلنعلم طريقة هذا الذكر:

يتحلى بنفس الأدب والصورة التي ذكرناها من ذكر «الله» ثم يذكر بلسان الخيال كلمة «لا» ويمدها من تحت الصرّة إلى الجبين وبعبارة أخرى يمد كلمة «لا»، من أسفل لطيفة أخفى فوق لطيفة أخفى إلى لطيفة النفس في الجبين ثم من الوجه يمد كلمة (اله) إلى الثدي الأيمن إلى جانب لطيفة الروح ولطيفة الخفي ومن هناك يعيد كلمة «إلا» إلى ظهر الثدي الأيسر وهو محل لطيفة السر وبعد ذلك يضرب بالتخيل بلفظ الجلالة (الله) بقوة النَّفَس المحبوس على سويداء القلب حتى يظهر أثرها وحرارتها في سائر الجسد بحيث يحرق جميع الأجزاء الفاسدة في البدن بتلك الحرارة، فيتَنوّر ما فيه من الأجزاء الصالحة بور الجلالة.

وبعد إكمال «لا إله إلا الله» بلسان الخيال وبالشكل الذي صورناه مرة أو ثلاث مرات أو أكثر يقول في حال التنفُّس «محمد رسول الله».

وهذه صورة توضيحية لذكر لا إله إلا الله سراً وعلى الذاكر أن يفكر في المعنى لا في شكل «لا إله إلا الله» فيكون قصده في قلبه أنه لا موجود بحق يستحق العبادة إلا الله وأن العبودية هي هدف الذاكر. ويقصد من قوله «لا إله» أن كل موجود فإن ومن قوله «الا الله» أن الله باق وحده.

ومن آداب الذكر سواء كان ذكر الله أو ذكر لا إله إلا الله:

إنه بعد الذكر يرتاح قليلاً ومن هذه الاستراحة يقول: إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي ولا أطلب من عبادتي سوى رضوانك، إني تخليت عن العالمين ولكن أرجو أن تهبني محبتك ومعرفتك. وعليه أن يتأمل بقلبه دون التفكير في الطلب المادي وهذه المراقبة تسمى بـ«الوقوف

القلبي». وبمناسبة الحديث عن الوقوف القلبي نقول إن للنقشبنديين (١١) مادة، أو كلمة أو إحدى عشرة درجة وعموداً وقلنا سابقاً إن الذي لا يتجاوز المقامات العشرة لا يبلغ درجة الفناء والبقاء وهي عبارة عن: التوبة، الإنابة، الزهد، القناعة، الورع، الصبر، الشكر، التوكل، التسليم، الرضا.

وبعد اجتياز طريق السلوك، على السالك أن يتحلى بأحد عشر خلقاً وإلا لم يحصل على شيء، ثمانية منها مأثورة عن حضرة الشيخ عبد الخالق الغجدواني (٥٧٥هـ) وبعدها ثلاثة عن الشيخ الأكبر السيد محمد بهاء الدين النقشبند والمجموع ١١ كلمة وهي: النظر إلى القدم، السفر في الوطن، الخلوة في الجلوة، الذكر الدائم، العودة من الذكر، اليقظة عند النفس، الحضور الدائم، حفظ آثار الذكر في القلب، والوقوف القلبي والوقوف العددي والوقوف الزماني لبهاء الدين النقشبند. وسنذكر معانيها.

ويطلب السالك الفيض والرحمة من الله سبحانه ومتوجهاً إلى السماء رعاية للأدب لأن الله سبحانه فوق كل شيء ليس له مكان وليس له فوق أو تحت.

وللوقوف القلبي شرطان أولهما: يحاول أن لا يخطر على قلبه شيء من الخيالات وثانيهما، إن خطر على قلبه خيال توقف عن الذكر كاللجام وجاهد لطرد الخيالات ثم بدأ بالذكر من جديد ويسمى «بالتوقيف».

ومن الأفضل توقف التنفس وقت الذكر وحسب نصائح المرشدين.

ومن هذه الحال تنشأ حرارة القلب، وشوق في الداخل، وتتولد المحبة وتطرد الوسوسة وتزال الحجب أمام السالكين شيئاً فشيئاً.

ويتبين من هنا أن التصوف سلوك ينبغي معرفة بميدانه.

ويعني الوقوف العددي أن يكون الذكر بالوتر، مرة أو ثلاثاً أو

خمساً أو سبعاً وهي درجة للسلوك النقشبندي وله أثر في كشف أسرار الطريقة.

وعلى السالك أن يحاول أن يذكر «لا إله إلا الله» (٢١) مرة بِنَفَسٍ واحد فإن فعله مع المراقبة والتحلي بالآداب التي ذكرناها فإنه يحصل على ثمرات معنوية ويتطهر قلبه وتكشف له أسرار يحس بها، وقد ذكرناها، وإن لم تحصل هذه الثمرات فإنه لم يطبق شروطه فعليه بالتفكير لاكتشاف الخطأ وإن كان له مرشد فإنه يأخذ بيديه إلى لبّ عمله. ولا بد من العلم بأن هذه الشروط مثل الوقوف القلبي العددي أو التوقف عن التنفس وإمرار الذكر على اللطائف تكون سهلة بعد الاعتياد عليها. كما أن الرياضة في بدايتها صعبة ثم يتمرن المرء عليها فقد يكون من الصعب أن يرفع عشرة كيلوات أولاً ثم يسهل عليه رفع ١٠٠ك فإن الرياضة الروحية كذلك ولكن ثمرة الرياضة البدنية مادية وثمرة العبودية هي رضا الخالق وإن الرياضة البدنية تتعطل في عمر معين وبعد مدة ولكن الرياضة الروحية تقوى وتكون مصباحاً للناس.

وإن الثمرة الأساسية لهذا الخُلق هي التزكية كما هي الحال في ذكر «الله» أي تزكية اللطائف إذ بذكر الله تتزكى اللطائف واحدة بعد الأخرى ويشع منه النور ومن حيث إن هذا الذكر «لا إله إلا الله» يمر باللطائف كلها فإنها جميعاً تشرق بالنور معاً أو يبدأ بالقلب ثم تبدأ اللطائف الأخرى بالذكر ويشع نور خاص منها ويشعر بذلك السالك نفسه.

وبعد أن ذكرنا الخطوة الأولى للنشقبندية وهي الذكر نأتي إلى الثانية:

٢- المراقبة:

وكل شرط ذكرناه للذكر فهو مطلوب للمراقبة أيضاً كالتوبة والاستغفار وغيرها وهي الاستعداد والجلوس في مكان هادئ وطرد

الخيالات عن القلب والتوجه إلى باب الحق ويتضرع إلى ربه بكل مسكنة وبكل عشق من الباطن دون واسطة مرشد أو الذكر ويسأل الله أن يستمطر الرحمة والفيض والبركة على قلبه وباطنه وأن يشرق قلبه بنور وجهه.

وحين يصبح التوجه إلى الحق ملكة وخلقاً راسخاً بسبب المواظبة ليلاً ونهاراً على هذه الحال يصل إلى حالة تسمى في التصوف بـ«التوجه إلى المذكور لا الذكر» أي التوجه إلى صاحب الاسم وهو الله، لا الاسم وهو الذكر.

وبهذا يتجلى نور ربه في قلبه وتتحقق المشاهدة.

وقال كبار المشايخ: الجذبة أي الانجذاب إلى الحق تتحقق عن طريق المراقبة بصورة أسرع من الذكر. ويقال أيضاً: إن المواظبة على المراقبة ترفع السالك المراقب إلى درجة الوزارة المعنوية وهي أعلى الدرجات. ومن ثمرات المراقبة أن هذا السالك المراقب يطاع في الملك والملكوت، ويكون عارفاً بالباطن وآمراً على القلوب.

ومن كان خلقه المراقبة فعليه ألا يغفل عن الذكر والعبادة وقيام الليل وأداء الصلوات. وقالوا أيضاً إن الاقتراب من هؤلاء الصالحين هو سبب الفوز والنجاح قال تعالى ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ التوبة ١١٩ وقد تكشف أسرار لكبار السالكين في حال المراقبة فيعرفون أوضاع سلوكهم.

وهذه معنى المراقبة الخاصة في الطريقة النقشبندية وقد بينت سابقاً المعنى الآخر للمراقبة في التصوف وهو مراقبة النفس وكبح جماحها.

٣- طاعة المرشد

أي يكون السالك تلميذاً لمرشد كامل، مطبقاً لتوجيهاته بإخلاص وأدب كما هو الحال لتلميذ يتلقى العلم من أستاذه.

وقال كبار علماء التصوف: إن هذا السلوك أسهل وهو أقرب لنيل الغاية ويسمى ذكر «الرابطة» وهو عبارة عن مواصلة العلاقة القلبية مع الله سبحانه فمن كان له مرشد فإن هذه العلاقة تتم عن طريق قلب المرشد. وكيفية ذلك: إن قلب السالك هنا يتعلق بقلب المرشد الذي لا شك في أنه نوراني ويشرق فيه نور الله سبحانه، ونوره سبحانه مصدر الأنوار. وإن نور الحق يشرق دائماً في قلب محمد (ﷺ) كالكهرباء الذي يتوزع في الجهات كلها، وكالنهر الذي تتوزع جداوله في كل الأنحاء ولكل جدول عشرات من المزارع وآلاف من الأشجار تروى بها. وكذلك يتوزع الفيض والماء الزلال على العاشقين المحبين لكي تروى مزارع قلوبهم بهذا الفيض والبركة وتثمر ثمراتها الطيبة. والمرشد الكامل يحصل على نصيبه من هذه البركة ويوزعه على المريدين.

ذكرنا سابقاً أن الشاعر الصوفي مولوي بعث قصيدة إلى مرشده الشيخ عثمان النقشبندي قال فيها: أنت ساقي المزارع (ويقصد المزرعة الروحية) وكفيتهم جميعاً بالكفاف. أما مزرعتي فتشكو العطش، وثماري تشكو الجفاف.

هذا حيفٌ: فافتح الجداول جدولاً بعد جدول وارو مزارعي.

ولا بد من بيان أن هذه العلاقات هي روحية ومعنوية ولا تدرك إلا بعين البصيرة ذلك أنها ليست بقنوات فيها المياه تجري ولا هي علاقات مادية.

فإذا ما استقرت الرابطة وتمكن المريد من ترسيخ هذه العلاقة فإنه يستمد النور والبركة منها ويكون لهذا النور انعكاسات من اللطائف فتتزكى واحدة بعد الأخرى وتعالج العلل والأمراض واحدة بعد الأخرى كعلة الحسد، ومرض الغرور، وطول الأمل، والتهالك على جمع المال، والأمراض المعنوية الخبيثة الأخرى، وعندما يتزكى باطن السالك

من الغش واشتعل نور الحق في اللطائف وتبدأ اللطائف بالذكر فإن المريد يصل حالة الحضور والمشاهدة وهي الأمل المنشود وبهذه الخطوة يطمئن قلبه وباطنه وتبدأ مرحلة «سير الأنفُس» أي التوجه نحو مرحلة الفناء للوصول إلى منزل البقاء. وفي مبحث الذكر أشرنا إلى أن السالك يبدأ بالذكر القلبي حتى يصبح قلبه ذاكراً، ثم يبدأ يتنقل من ذكر لطيفة إلى ذكر لطيفة أخرى ولكنه في هذه الحال يعينه المرشد بالتوجه إليه. وكيفيته: يتوجه بقلبه إلى إحدى لطائف السالك ويربطها بلطائفه ولا ريب في أن لطيفة المرشد ذاكرة ونورانية فتنعكس على لطيفة السالك فتصبح ذاكرة ونورانية وبعد أن يستقر وضع السالك بعد مهلة في اللطيفة الواحدة يتوجه المرشد إلى لطيفة أخرى لمريده لمهلة قصيرة وإذا كان للمريد شيء من الاستعداد لما يتحلى به من الذكاء فسرعان ما يصل الغاية وتزكى لطائفه وكذلك فيما يتعلق باجتياز المقامات حتى يصل مرحلة الفناء والبقاء.

وفي هذه المرحلة يستغنى عن المرشد ويكون كاملاً بالمعنى النسبي «والكمال المطلق لله وحده» ويرفع الله درجاته ما دام الله سبحانه يريد علو منزلته كما أنه ليس للعلم الظاهري المادي حدود وأن العالم يظل يطلب العلم ليزداد علمه وكذلك الغني يطلب مزيداً من الغنى وكذلك ليس للطف الله حد والإنسان الكامل الذي بلغ قمة الإنسانية هو سيدنا محمد (ﷺ) ويليه بعده الأنبياء ثم الأولياء.

وفي عرف التّصوف يُعتبر السالك الذي منح درجة البقاء بعد الفناء إنساناً كاملاً، وهذه الدرجة كالدكتوراه في العلوم الدنيوية أو غيرها فيصبح أستاذاً ومرشداً في سلكه. ولا بد من التنبيه هنا على أشد ما يخاف منه في الطريقة النقشبندية:

هو أن يأذَنَ المرشد لمريديه بالرابطة دون أن يكون قد وصل مرتبة البقاء بعد الفناء. وهي خطيئة كبيرة لأنها قد توقعه في شبهة الشرك أولاً

ويكون المرشد مسؤولاً عنها، ويوقع المريد ثانياً في أمراض الوسوسة ومصائب أخرى عديدة فالإرشاد شيء وإجازة الرابطة شيء آخر.

والإرشاد بمعنى «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» واجب على كل مسلم والإرشاد للشريعة واجب علماء الدين، وبالنسبة للطريقة فعلى المرشد أن يصارح مريديه قائلاً: إني أنصحكم وأرشدكم إلى التوبة ولكني لست بمرشد كامل ولا يجوز لكم الرابطة معي. أو يقول كما قال (الأمير كولال) مرشد الشيخ النقشبند، له: إن حدود معرفتي هنا وعليك البحث عن مرشد يعلمك بعد.

وليس المقصود بالتوجه أن يكون المرشد متصلاً بالمريد في المكان، ذلك أن المرشد الكامل يستطيع التوجه إلى مريده من مكان بعيد أيضاً ويدخل في قلبه المسرة الروحية ولكن القرب المكاني أفضل كما قلنا: إن التقرب من الصادقين سبب السعادة والفوز. فالرجل الصالح الولي حبيب الله والاقتراب من حبيب الله هو سبب سعادة الدارين.

فعلى المريد أن يطلب المساعدة من مرشده.

قال الشيخ عبدالله الدهلوي: مع أن الذكر اللساني لا يحقق أهداف السالك ما لم يتحول إلى ذكر قلبي ويصبح ملكة وخلقاً راسخاً فإن الذكر اللساني مفيد وتكون للذاكر حظوة روحية معنوية إن تم حسب الشروط المذكورة.

ثم قال: على المريد أن يظل ذاكراً لله متذللاً أمام باب الحق حتى في أوقات انشغاله بالأعمال الدنيوية وقال: «بركات من الله تنزل ولكن لقلوب المؤمنين تُعجّل».

وهذه تسمى حال «الخلوة في الجلوة» ومعناه أنه مع الحق ولو كان مع الخلق وهذا معنى ما قيل: الصوفي كائن بائن. (بالجسم كائن مع الناس وبالروح بائن عنهم).

والخلوة في الجلوة إحدى صفات ودرجات السالكين للطريقة النقشبندية.

وقد بيّنت سابقاً أن أمراض القلب هي الصفات الخبيثة كالحسد والحقد و... والمسلم الحقيقي من طهر قلبه من هذه الأمراض، ولكنه أمر صعب وإلا لعولجت مشكلات الإنسان.

وفي الحال التي يكون للسالك مرشد فإنه يتولى معالجة هذه الأمراض وتخليص قلب مريده منها.

وإن طبق السالك آداب الذكر المعروفة وتمسك بذكر «لا إله إلا الله» فتسهل عليه معالجة أمراضه القلبية. وحين يقول «لا إله» يتخيل معه طرد الحسد، وأن لا حسد في قلبه ولا شيء في قلبه «إلا الله» فيشعر بنظافة قلبه من الحسد وهكذا الأمر بالنسبة لكل رذيلة.

ومن الناس من ليست له بعض الرذائل كالكذب والكبر مثلاً فيحقق في حال نفسه وما فيها من الرذائل. وبهذا النوع من الذكر يطهر قلبه منها. ويقول في بعض الأحيان معترفاً في قلبه: إنني مبتلى بهذه الرذيلة فجنّبني منها فيتخلص منها واحدة بعد الأخرى ببركة هذا الذكر.

وهذا التطهير القلبي والتزكية، وإشراق اللطائف، والتنقل من خطوة إلى أخرى وهي سبع خطوات تسمى «السفر في الوطن» أي الارتحال قلبيًّا من مركز إلى مركز حتى تظهر جميعاً، وهو أيضاً التأمل في النفس لكشف الأمراض لمعالجتها قال تعالى ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾؟

والصوفي في هذه المرحلة يعيش مع الذكر ويعاف كل شيء عدا ذكر ربه وكما قالوا: كل شيء ما عدا ذكر الله سبحانه نزع للروح ولو كان طعام السكر.

وفي القرآن الكريم ﴿وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ الجمعة ١٠.

ومن حصل على بركة معنوية وأحسَّ بها فعليه العمل للمحافظة عليها، فإن ذهبت عاد إلى الذكر إلى أن يستعيد البركة وتصبح البركة حالاً دائماً وخلقاً مستمرًّا.

وقد ذكرنا في تعريف اللوامع أن المريد المبتدئ يرى شعاع النور في قلبه ولكنه يذهب ولا يستقر، ويتكرر حتى يألف ويستقر في القلب.

وبعد هذا نأتي إلى «جذبة القبول».

وهي اسم للسالكين يطلق عليهم عندما تتوجه إليهم حالة خاصة فينجذبون فيها إلى ربهم فيكون محموداً عند ربه فإن نضجت الجذبة وظهرت تسري بين حنايا قلبه فيوضات إلهية يحس بها السالك المجذوب فتلتذ روحه ويسر وقد يسعد بها السالك سعادة تفقده وعيه. فإن استدامت هذه الحالة فإنه يقرب من حالة الحضور والفناء وهذه الحالة تسمى «حقيقة الذكر» لأنه من المرحلة الأولى لهبوب البركة كانت الصورة ومن حالة الحضور تكون الحقيقة وتسمى هذه الحال: (درج النهاية في البداية) أو اندراج النهاية في البداية وهذه لا تحصل في يوم أو مرة، ولكل شيء وقته ومدته وحسابه.

أما الثمار الطيبة المتنوعة للطائف ولكل عبادة كالتهجد وقراءة القرآن الكريم فإنها لا تعد ولا تحصى وقد ذكر الإمام الرباني في مكتوباته البركات الخاصة لكل حالة. وفي الطرق الصوفية العديدة، فإنه كان مرشداً للطرق القادرية. والسهروردية، والجشتية والكبروية، بالإضافة إلى كونه من كبار مشايخ النقشبندية.

قال الشيخ عبدالله الدهلوي: بركة الصالحين قد تنزل كضياء من الشمس فتدخل القلب في زاوية وقد تكون كسحاب يعمُّ جوانب القلب، أو كصبا لطيف أو كمطر، أو نهر، أو كخيمة من حرير تشمل البدن كله أو كالندى الذي ينزل على القلب.

وقال أيضاً: قد يحصل الشوق والدفء الروحي لسالكي الطريقة الجشتية، ويحصل الصفاء واللمعان لسالكي الطريقة القادرية، ويحصل لسالكي الطريقة النقشبندية الغياب وفقدان الوعي، أما السهروردية فآثارها هي آثار النقشبندية نفسها.

هذه قطرة من بحر التصوف. وباقة ورد من حديقة غناء تشمل الأرض كلها، أردتُ بها بيان قدر منه لكم لا الاحاطة به فإن عالم التصوف في حقيقته هو عالم معرفة الله سبحانه وهو عالم لا نهاية له ولا حد له لا في أوله ولا في آخره.

ولتوضيح مصطلح «اندراج النهاية في البداية» نقول كما أن الاندراج يعني استقرار حقيقة الذكر في القلب وهو ما أشرنا إليه سابقاً فإن له صورة أخرى هي:

قد ينتقل المرشد بمريده في حال توجهه إلى مقامات كبيرة فيريه إياها، أو يبقيه هناك مدة يظن فيها أنه قد حل هناك فيعيده إلى مقامه الأول وهدفه تشويق المريد وحثه على العمل للوصول إليها بقلب مشتاق ملهوف.

ومثله مثل الأمور الدنيوية حين يُدعى إنسان إلى قصور فخمة ويقال له إنك إن وصلت إلى ذلك المقام أصبحت صاحب هذه القصور، فإذا كان ممن يرغب في الدنيا فإنه يعمل بشوق أكبر للحصول عليها حقيقة.

ومن صور الاندراج أنه قد يحصل الكشف للسالك وتبدو له بعض الأسرار كأن يكشف له حال الميت صالحاً أم لا، وهو في الحقيقة لم يصل إلى هذا الحد الذي يدرك بقوته المعنوية هذه الأحوال. وحكمة ذلك دعوته للخوف والأمل «الخوف والرجاء» ويصل إلى «عين اليقين».
ومن صوره أنه يجتاز المريد المراحل كلها ويقترب من الوصول حتى يصبح خليفة دون أن يكون صاحب البركات، ولكن قوته الباطنية تقع في

ظل القوة الباطنية للمرشد، ويسمى اصطلاحاً «في ظل المرشد» أو في ظل القطب واصطلح عليه أيضاً بضمنية المرشد، وهذا الخليفة لا يعرف أن هذه القوة ليست له وهي لمرشده، وصادف مراراً أن كبار المشايخ يرسلون خلفاءهم في هذه الحالة للإرشاد.

تبين أن درج النهاية أكبر من غيرها. فقد يحتار الناس من هذه المواهب والكرامات والبركات التي تظهر على هذا الخليفة الذي لا يختلف توجهه عن توجه شيخه وهو يعالج أمراض القلب العديدة، ويوصل السالك، ولكنها في نفس الوقت اختبار للمرشد ليكتشف قابليته فقد يسقط الخلفاء في الامتحان ويسيطر الغرور عليهم ويظنون أنها من قدراتهم وإن لم ينجحوا فإنهم لن يرجعوا إلى مقاماتهم الأصلية بل قد يطردون مدة وإن نجحوا يعادون إلى مقاماتهم ولكن هذه الدورة مفيدة إن اعتبر بها وحافظ على الآداب إذ يرفع درجاته وقد اطلع على المقامات العليا وعندما يرجع إلى محله السابق فإنه يتنبه إلى أن هذه القوى لم تكن له وإنما هي لمرشده. أين هو من هذه المقامات؟ فعليه عمل شاق ورياضة دائمة للوصول إليها.

وهذه الصور المختلفة لدرج النهاية في البداية تابعة لرغبة المرشد ذلك أنه أستاذ القلب، وخبيره وطبيبه وهو أدرى بحاجة كل مريد ومَداها.

إن منهج سلوك اللطائف بشكل مقسم هو منهج الإمام الرباني، أما خلفاؤه ومنهم نجله الشيخ محمد معصوم استصعبوا هذا العمل فاكتفوا بتربية لطيفة القلب في عالم الأمر، ولطيفة النفس في عالم الخلق وإيصالها، أما اللطائف الأخرى فتربيتها بالتزكية حتى وصول مرحلة الفناء والبقاء. وقال الشيخ عبدالله الدهلوي: نحن نأخذ بالرأي الأخير، ولذا نقول: إن المرشد النقشبندي هو الذي يختار ما يراه الأفضل والضروري لمريده لا سيما بالنسبة لمن يجري تربيتهم عن طريق الرابطة، وعندما تبدأ اللطائف بالذكر يحظى بحضور الحق ولهذا الحضور أنواع وقد وضع

كبار السالكين لكل نوع من الحضور اسماً وذلك لمعرفة وإفهام المريدين.

وإن كان حضور الحق مقابل حضور الخلق بحيث لم يسكرك هذا الحضور فتنسى الناس، ولم يؤثر في حضورك الناس، فيُسمّى «ذكر القلب».

وإن كان حضور الحق غالباً فهذا «ذكر الروح» وإن أنساك هذا الحضور نفسك ولكن لم تنس الخلق فهو «ذكر السر».

فإن أنساك حضور الحق نفسك والخلق فهو «الذكر الخفي».

فما هو الحضور؟ وكيف الإحساس به؟

قال: إن استطاع المريد النظر إلى قلبه وعرف أنه قريب من الله سبحانه فهذا هو الحضور وحتى إذا لم يكن دائماً فإنه واضح للسالك. وقد يقل الحضور بسبب انشغال المريد بكسب الدنيا وإن كان حضوره بشكل «كأنك تراه» وفي كل وقت وحال، حين الكلام وحين السكوت، وعند السرور والغضب، وأصبح الحضور ملكة فهذه الحال تسمى «الوعي الدائم» وهو التذكر الدائم. وهي إحدى أسس الطريقة النقشبندية.

وتبذل هذه المحاولات، ذلك أنه قد سعد بعين بصيرته بالرؤية والمشاهدة وقد يشعر السالك في هذه الحال أنه يشاهد بعين البصر لا بعين البصيرة إذ يغلب عليه الحضور فيتلفظ بكلمات يفهم منها الحلول والاتحاد، والحقيقة أنه في حال حضور وما يقوله يعتبر شطحات تخرج من فمه وقد يقال له إنك قلت كذا وكذا فلا يصدق كما هو حال السكران بعد إفاقته.

وهذه الرؤية تشبه الرؤية المنامية هي رؤية خاصة.

ولا يمكن رؤية الله بعين البصر في هذه الدنيا فإن سمعنا أمراً مخالفاً من مجذوب فعلينا أن نعلم أنه يقصد ما يحس به في نفسه لا في الواقع.

وقال الشيخ عبدالله الدهلوي: وبعد هذه الحالة «عين اليقين» تبدأ «المراقبة المعيّة» كما قال سبحانه وتعالى.. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ الحديد ٤.

وهنا أجيز للذكر باللسان وهذا النوع من القرابة يعتبر من الولاية الصغرى وهي أول درجة الأولياء وهي قطع المسافة في ظل «أسماء الله» وهذا المقام يسمى مقام الجذبة فيتحقق له الشعور بالبركة، والخفقان، والشوق والبكاء والذوق والتوحيد الفعلي وتجليات نور الحق ورؤية الوحدة والكثرة وحالات الأنس والهيمان والوحشة والحيرة كما لا يخفى على أرباب هذه الولاية، ويتحقق أيضاً الاستغراق في بحر المعرفة فينقطع عن علاقاته بالناس وينسى ما سوى الله ويسلم قلبُه من الخطرات والوساوس. وهذه تتحقق في مرحلة الولاية ويتحقق هنا أيضاً فناء القلب أي الدوام على حالة السكر الروحي وطرد ما سوى الله في قلبه.

ويقول أحد الشعراء الحالمين بهذه الدرجة ما معناه:

متى أفترق عن نفسي

ولا يبقى أنا وأنت

والباقي هو الله

وهذه حالة المعية أو المراقبة المعية.

وسبق أن ذكرنا أن الله قريب منا وفي القرآن الكريم ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ والعبد أيضاً لسبب تزكية باطنه يشعر بهذا القرب والحقيقة أن كل عبد قريب منه ولكن الطاهر يحس بالقرب أما الذي لم يتزكَّ قلبه فإنه لا يشعر بنعم الله، وتحدث الشيخ عبدالله عن أربعة أنواع من الفناء فقال:

١- فناء الخلق: وهو أن لا يخاف من أحد ولا يرجو أحداً إلا الله.

٢- فناء الرغبة: فالسالك هنا لا يرغب إلا في القرب منه سبحانه.

٣- فناء الإرادة: فلا تبقى له ويكون كالميت فلا يطلب شيئاً.

٤- فناء الأفعال: لا تبقى له قدرة على أي فعل فيريد كل شيء من ربه أو عندما تنتهي قدرته على الفعل يتولى الله سبحانه أعماله، وهذه إشارة إلى الحديث القدسي «ما يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها».

كما ذكرت سابقاً: يقول النقشبنديون إن مقام الولاية عبارة عن عشرة مقامات هي: التوبة، الإنابة، الزهد، القناعة، الورع، الصبر، الشكر، التوكل، التسليم، الرضا.

وفي النقشبندية أن مقام الولاية وفناء القلب لا يكفي ليكون الشيخ مرشداً ولا يكون كذلك إلا بعد فناء النفس وتحقق كمالات الولاية الكبرى فيكون صالحاً للإجازة المطلقة في الإرشاد.

إن في حال فناء القلب تزول الخطرات من القلب فتنزل في النفس وفي حال فناء النفس التي مكانها في الجبين لا يبقى مكان للخطرات. وهذه الدرجات التي يقطعها السالك في رحلته إلى الله سبحانه من أولها إلى الدرجة التي لا يعلمها إلا الله وقد يحس بها السالك شبّهت بالدوائر.

وهذه الدوائر تشتمل على جميع اللطائف والمنح والمواهب في مقدمتها تسمى دائرة الإمكان وفي آخرها دائرة اللاتعيين، وهي عشرون دائرة، وفي هذه الدوائر قال بعضهم:

إذا أزيل حجاب على خد المحبوب يظهر حجاب آخر، وإذا قطع حجاب يظهر حجاب آخر.

وقد تحدث الإمام الرباني في مكتوباته والشيخ عبدالله الدهلوي في كتابه إيضاح الطريق عن هذه الدوائر وهي اسم معنوي ولكنه يشبه فعلاً الدائرة وواضح عند سالكي الطريقة النقشبندية وسأتناولها باختصار:

على السالك قبل كل شيء أن يقطع دائرة الإمكان وهي تمام عالم

الخلق والأمر والعروج بتزكية هذا العالم، وهو عبارة عن تزكية اللطائف الخمس وتزكية النفس والعناصر الأربعة وطبيعة الجسم، فإن أكمل مسيرة هذه الدائرة بالتزكية تخلص من دائرة الإمكان ووصل إلى الدائرة الثانية وهي الولاية الصغرى التي هي ولاية الأولياء وفي هذه الولاية يبدأ السير والعروج نحو قمة المطلوب في ظلال الأسماء والصفات ومن هذا الموطن يتحقق الشروع في حقيقة الفناء «والجذبة» من ثمراته.

وبعد العروج من الدائرة السابقة بطريقة السير في ظل أسماء الله يكون ذلك شروعاً في الولاية الكبرى وهي مخصوصة بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالأصالة ووصول أصحابهم الكرام إلى هذه الدائرة بالتبعية ومن وصل إلى هذه الدائرة فقد اجتاز مقام «فناء النفس».

وأقول إن فناء النفس وفناء القلب يختلفان عن تزكية القلب أو تزكية النفس فالتزكية هي للابتداء وهي تطهير للقلب ليس إلا، ولكن فناء اللطائف مقام أعلى وهو آخر درجة، ودائرة الولاية الكبرى لها ثلاث دوائر وقوس واحد أي ثلاث دوائر ونصف دائرة يحس بها السالك وعليه أن يجتازها واحدة بعد الأخرى بكل قوة ورجولة كما هو حال السالك في طريق جبلي أو طريق صحراوي: والسالك نفسه يعرف أين هو!!

ويتم السير في هذا الطريق في ظل الأسماء والصفات وثمار السالك من هذه الدائرة هي الفناء الحقيقي، حقيقة الإسلام، وشرح الصدر، ومقام دوام الشكر والرضا، والتخلص من الأخلاق المذمومة.

دائرة الولاية العليا

وهي دائرة الملأ الأعلى من الملائكة والأرواح وتحصل للصالحين بالتبعية. وفصّل الإمام الرباني ذلك فقال:

إن عمر الإنسان كله لا يكفي لاجتياز خطوة في هذا الميدان لولا عناية الله سبحانه، وفي هذا الموضوع يشير إلى قوله تعالى ﴿تَعْرُجُ

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ المعارج ٤. فلا يمكن العروج إلى المقام إلا بعون منه سبحانه ومن ثماره النور الذي يحصل للسالك فيتذكر الوقت الذي كان في سلطان الأذكار وحصل له مثله ولكن أين هذا النور من ذلك؟ وهو مقام عظيم ورفيع.

وحيث إن هذه الولاية أصلاً للملأ الأعلى فتحصل للسالك علاقةٌ بالأرواح والملائكة ويدرك الأسرار التي كانت من ثمار لطيفة السر، ولطيفة الأخفى، فهنيئاً لأرباب النعيم نعيمهم. ثم تبدأ الرحلة في دائرة كمالات النبوة. وفي هذه الدائرة يحصل التجلي الذاتي دون غطاء الأسماء والصفات.

ويقول: إنَّ تقدم خطوة هنا أفضل من مقامات الولايات، إذ يتحقق الحضور دون تردّدٍ أو خفقان قلب ويتحقق برد اليقين، وهو لا يبلغه الحال ولا المقام، وهنا أيضاً تظهر له علوم الشريعة وهي مقام خاص بالأنبياء أساساً يرثه الأولياء باتّباع طريقهم.

واقتبس هنا مما كتبه الشيخ عبدالله الدهلوي في كتابه إيضاح الطريق مكتفياً ببعض الأمور المهمة في هذا الموضوع، والدوائر الأخرى هي سير في الكمالات حيث يحصل كمال بعد كمال لكبار رجال التصوف مثل:

دائرة كمال الرسالة، دائرة كمال أولي العزم،

دائرة حقيقة الكعبة، دائرة حقيقة القرآن،

دائرة حقيقة الصلاة، دائرة المعبودية المحضة.

ومن هنا يتوقف السير بالقدم ويبدأ السير النظري فيرى بعين البصيرة هذه المقامات، فيرون بهذه العين «دائرة الخِلّيّة» وهي مقام سيدنا إبراهيم خليل الله، والأنبياء الآخرون تابعون له في هذا المقام «اتبع ملة إبراهيم حنيفا» النحل ١٢٣ كما تقول في الصلاة «اللهم صل على محمد وعلى

آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم» ومعنى كما صليت هو التبعية. وتسمى هذه الدائرة بالحقيقة الإبراهيمية.

ثم دائرة «المحبة الصرفة الذاتية» التي تظهر لكبار السالكين ويقع من مركزها الحقيقة الموسوية وهي دائرة حقيقة موسى، ثم دائرة المُحبيّة والمحبوبية الممتزجتين وهي: دائرة الحقيقة المحمدية، وهي دائرة عظيمة.

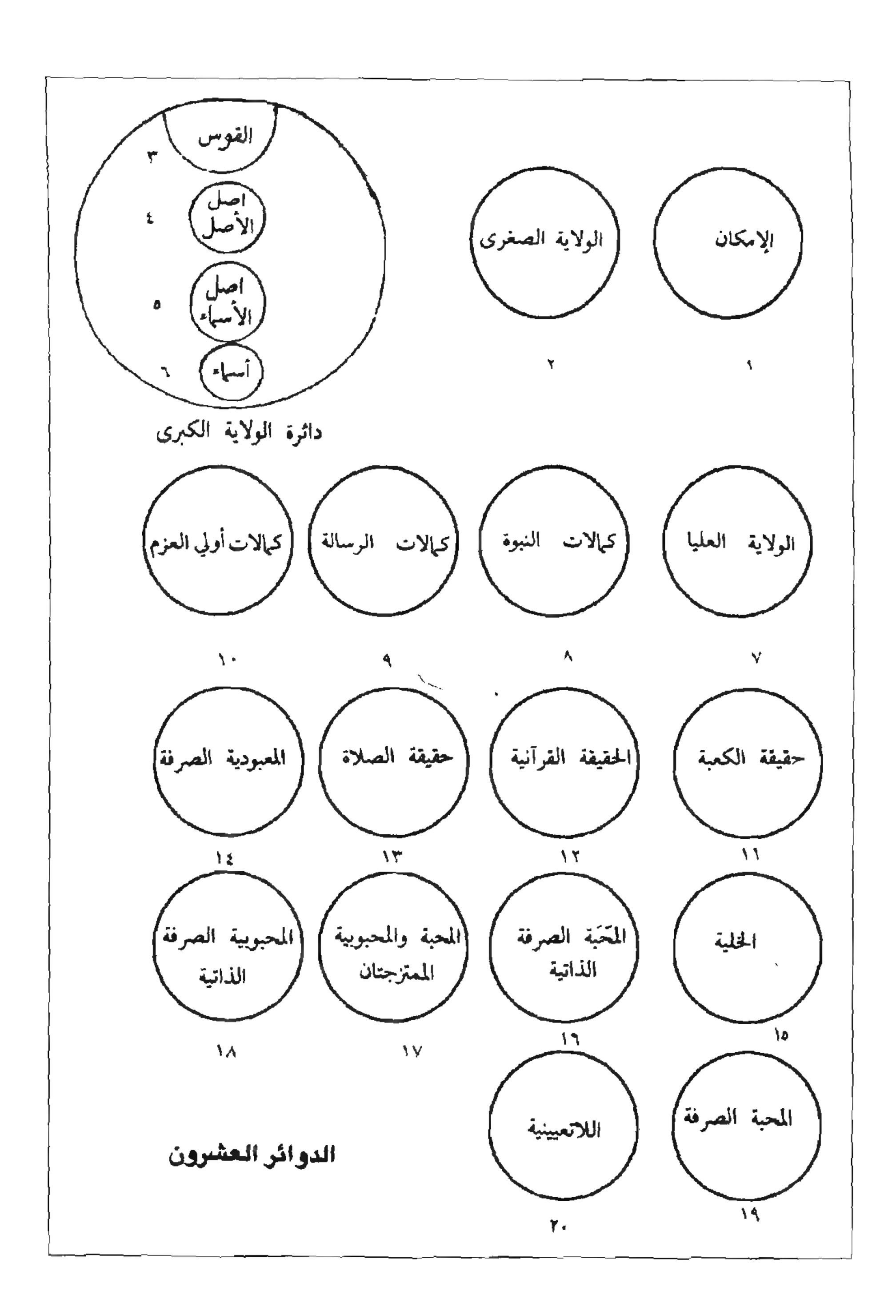
ثم الدائرة المحبوبية الصرفة الذاتية وهي الحقيقة الأحمدية ثم دائرة الحب الصرف ويأتي بعدها «اللاتعيينية» وهي الدائرة التي لا يبلغها أحد بالسير القدمي بل بالسير النظري.

وقد يحظى السالك بمقام معين (بالتبعية) وهي في اصطلاحهم كالضّمنية والظلية ومعناه: إن صاحب المقام (البركة) يأخذ صديقه المحبوب بالتبعية إلى مقام ليس له فهو تابع وليس بصاحب مقام وهو يُحترم في هذا المقام تقديراً لمضيفه، كما هو الحال في أمور الدنيا وعلاقاتها، وأساسه هو حب أبي بكر ﵁ لسيدنا محمد (ﷺ) حيث قال ﷺ «ما صبَّ الله شيئاً في صدري إلا وصببته في صدر أبي بكر»[1].

ثم قال الشيخ عبدالله الدهلوي في آخر الموضوع:

إن درجات الولاية الثلاث «الصغرى الكبرى العليا» والكمالات الثلاثة النبوة والرسالة وأولي العزم، والحقائق السبع (حقيقة الكعبة، القرآن، الصلاة، الإبراهيمية، الموسوية، المحمدية، الأحمدية) وبعدها دوائر المحبة الصرفة واللاتعيينية، لا تحصل لكل من سلك من اتباع الطرق، بعضهم يبلغ ولاية القلب وقد لا يتجاوز دائرة الإمكان، وبعضهم يصل إلى الولاية الكبرى وقليل منهم يبلغ الولاية العليا، والأقل منهم يبلغ الكمالات الثلاثة وأين من يبلغ الحقائق السبع وأعلاها؟؟

(١) وهو التذكر الدائم: وهي إحدى أسس الطريقة النقشبندية.
مكتوبات الإمام الرباني الصفحة (٢٤١).


القوس
٣
اصل الأصل
٤
اصل الأسماء
٥
أسماء
٦
الولاية الصغرى
٢
الإمكان
١
دائرة الولاية الكبرى
كمالات أولي العزم
١٠
كمالات الرسالة
٩
كمالات النبوة
٨
الولاية العليا
٧
المعبودية الصرفة
١٤
حقيقة الصلاة
١٣
الحقيقة القرآنية
١٢
حقيقة الكعبة
١١
المحبوبية الصرفة الذاتية
١٨
المحبة والمحبوبية الممتزجتان
١٧
المحبة الصرفة الذاتية
١٦
الخلية
١٥
اللاتعيينية
٢٠
المحبة الصرفة
١٩
الدوائر العشرون

الكمالات الإحدى عشرة
في الطريقة النقشبندية

إن مبنى الطريقة النقشبندية على العمل بإحدى عشرة كلمة وقاعدة صوفية استمدت من التجربة السلوكية لمشايخ الطريقة ثمانٍ منها مأثورة عن الشيخ عبد الخالق الغجدواني (٥٧٥هـ) وثلاث منها مأثورة عن الشيخ الأكبر محمد بهاء الدين النقشبند (٧١٧-٧٩١هـ).

وقد علم أن النقشبندية أسست على الذكر القلبي، والذكر هو التأمل في اسمه تعالى حتى يبدأ القلب وكل الجسد بالذكر وثمرته تطهير القلب من الرذائل ودوام الحضور.

والحقيقة أن المقصود هو المذكور والقرب من الحق والذكر وسيلة للقرب وحين يتجلى نور الله في القلب وتحقق الحضور لا يبقى الذكر إذ يكون المذكور حاضراً، وهذا القرب كما قلنا ليس بقرب الذات من الذات وليس بقرب الجسد من ذات الله سبحانه بل بقرب الباطن من نور الله سبحانه وهذا القرب يدرك بعين القلب لا بعين الرأس أي بالبصيرة لا بالبصر.

وكما قلنا إن المثال على ذلك هو الرؤية في المنام. فبأي عين نرى في المنام؟ وبذلك نقرب المعنى في نفوسنا.

وهذه الكلمات هي:

١- اليقظة عند النَفَس

٢- النظر إلى القدم

٣- السفر في الوطن

٤- الخلوة في الجلوة

٥- الذكر الدائم

٦- العودة من الذكر إلى الذات

٧- حراسة القلب من الغفلات والخواطر، أو الحضور الدائم

٨- حفظ آثار الذكر في القلب

٩- الوقوف الزماني

١٠- الوقوف العددي

١١- الوقوف القلبي

١- اليقظة عند النفس: «هوش دردم»

ومعناه حفظ النفس عن الغفلة عند دخوله وخروجه وبينهما ليكون قلبه حاضراً مع الله في جميع الأنفاس فلا تتوزع خيالاته على أمور دنيوية.

قال النقشبند: إن عمل السالك متعلق بنفسه، فعليه أن يعلم فيما إذا مر نفسه مع الحضور أو مع الغفلة لكي يبقى السالك في حالة الذكر ولا يتورّع باله على الماضي أو المستقبل في حال الغفلة.

قال الشيخ عبيدالله الأحرار ٨٠٩ - ٨٩٥هـ وهو أحد كبار النقشبندية: أهم عمل في الطريقة النقشبندية هو مراقبة النفس حتى لا يخرج في الغفلة، ومن لم يفكر فيها يقال له إنه (فقد نفسه).

وقال الشيخ سعد الدين الكاشغري وهو معاصر الشيخ عبيدالله:

معنى اليقظة عند النفس هو أن لا يغفل السالك من نفس إلى نفس وأن يتنفس مع الحضور وأن لا يخلو النفس عن الحق.

وباختصار تعني هذه الكلمة عند رجال الطريقة النقشبندية اليقظة والدقة والفكر عند التنفس وهو درجة من درجات الطريقة وإذا أضاع السالك نفساً له فكأنه ارتكب ذنباً، ذلك أن ضياع النفس هو ضررٌ لهُ.

٢- النظر إلى القدم: «نظر برقدم»

يرى البعض أن معناه: على الصوفي في حال مشيه في الطريق أن يكون نظره مركزاً على موضع قدمه حتى لا يتوزع باله وعقله على أنحاء كثيرة، وحتى يكون عقله وفكره مع الله فلا يغتر بجمال ومتاع الدنيا وهذا عمل محمود ولكن الإمام الرباني يقول: النظر على القدم هي حال «السفر في الوطن» وهما معنويان والمقصود بهذه الكلمة:

هو أن السالك قبل أن يسير من مقام إلى مقام أعلى عليه أن ينظر بعين البصيرة إلى هذا المقام أن يخطو على قدمه المعنوي. وفي مبحث الدوائر أشرنا إلى أن المسيرة بالقدم تصل إلى نهاية مقامات الحقائق وآخرها حقيقة الصلاة ثم تبدأ الرحلة النظرية. وقال الإمام الرباني، إن السير النظري كالاستطلاع للسير على القدم لعروج المقامات وقبل أن يخطو بقدمه إلى المقام الجديد فعليه أن يتحقق فيه ويعرف مكانه، فيخطو إلى المقام الجديد، ويقال لهذا التحقق في المقام الجديد «النظر إلى القدم» لذلك يشبه حالة السفر في الوطن، ذلك أن النظر على القدم يعني الرحلة من مقام إلى مقام وهي نفس معنى السفر في الوطن. والتحقق في موضع القدم في حال السفر يعني النظر على القدم وهوتبصير السالك بدرجته ومنزلته في مستقبله. وبعد مرحلة الرحلة على القدم تبدأ مرحلة نظر السالك، والسالك يرى المقامات الكبرى بالنظر فقط.

يقول فخر الدين الكاشفي في الرشحات: النظر على القدم يشير إلى مدى تقدم السالك في مسلك التصوف للعروج إلى مقامات الوجود، وتجاوز عقدة الأنانية. وله كتاب مهم موسوم بـ(الأصول النقشبندية) محفوظ في المكتبة الوطنية الفرنسية.

٣- السفر في الوطن: «سفردر وطن» وله معان:

المعنى الأول:

لا نشك في أن السفر بالمعنى المعروف مفيد لرفد الخبرة وتوسعة الإدراك، والسير في الأرض يورث العبرة في النظر إلى المخلوقات، ويوجه أبصار الإنسان إلى عظمة خالقه. فالسفر باعث للتفكر وقد مدح الله سبحانه المتفكرين في خلق السموات والأرض وقرنهم بالذاكرين قال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ آل عمران ١٩١ ثم مدح السائحين في الأرض وقرنهم بالتائبين العابدين. فقال سبحانه ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ﴾ التوبة ١١٢ وفي سورة التحريم ﴿تَـٰٓئِبَـٰتٍ عَـٰبِدَٰتٍ سَـٰٓئِحَـٰتٍ﴾.

وفي القرآن الكريم عناية خاصة بالسائرين في الأرض للاعتبار بما جرى على الأرض عقاباً للمعتدين، أو دلالة على التغيرات في أمور الحياة. يقول سبحانه في أربعة مواضع من القرآن الكريم ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وفي ثلاثة مواضع ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وفي موضعين ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وهي حثٌّ للمسلمين على السفر وعلى التجول في الأرض ليزداد إيمانهم بالله سبحانه.

ألا يعني ذلك أن أساس هذه القاعدة الصوفية النقشبندية هو الخلق الإسلامي القرآني؟؟

المعنى الثاني:

هو البحث عن المرشد الصالح فقد أوصى كبار المشايخ بسفر المريدين للبحث عن مرشد كامل ولكنهم قالوا فعند ذلك على السالك أن يطيع كل ما يأمر به المرشد وإن رحلة مولانا خالد النقشبندي من العراق إلى الشام والحجاز، ومن الحجاز إلى كردستان ومنها إلى إيران والأفغان وكابل، وقندهار إلى أن يصل إلى حضرة الشيخ عبدالله الدهلوي ويحظى بأمنيته في حضرة هذا المرشد الكامل تعتبر من الرحلات الصوفية المهمة في هذا المجال وكذلك رحلة الإمام الغزالي من طوس إلى بغداد ومنها إلى الشام والحجاز للبحث عن مرشد مثال آخر لهذه الرحلات.

المعنى الثالث:

وهو المعنى المعنوي في المصطلح النقشبندي:

يقول النقشبنديون إن المعنى المعنوي لهذه الكلمة عبارة عن محاولة السالك للانتقال من الصفات البشرية الخسيسة إلى الصفات الملكية الفاضلة وهو سفر من عالم الخلق إلى الحق وهو ابتعاد عن مغريات الدنيا والتقرب من مالك الدارين وهو سفر من حال ومقام إلى حال ومقام أحسن وأعلى.

٤- «الخلوة في الجلوة: «خلوت در انجمن»

ومعناه أن جسده مع الخلق وقلبه مع ربه.

والخلوة نوعان:

النوع الأول - خلوة مادية:

وهي عبارة عن انتقال السالك إلى زاوية معزولة للتعبد والتأمل وهذه نافعة للسالك لضبط حواسه وإمكان التركيز على قلبه والانهماك في حال قلبه ومن المعلوم أنه كلما استطاع تعطيل الصفات الخارجية من العمل تزداد الصفات الباطنية نشاطاً وعملاً وبهذا يقرب من عالم الملكوت بشكل أحسن.

والنوع الثاني - خلوة القلب:

بحيث لا يغفل عن ذكر ربه حتى إذا كان مع الناس ومشغولاً بالكسب والذهاب والإياب فيبقى قلبه ذاكراً ولا يغفل عن ربه قال تعالى ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ النور ٣٧ والمقصود هنا المعنى الثاني.

قال الشيخ محمد أمين الكردي في كتابه تنوير القلوب «فمعناه أن يكون قلب السالك حاضراً مع الحق في الأحوال كلها غائباً عن الخلق مع كونه بين الناس».

ويستحسن معظم كبار علماء التصوف أن يبقى قريباً من الناس، عاملاً بالكسب الحلال بعد أن يستقر السالك ويتقدم في سلوكه.

قال الشيخ أبو سعيد الخراز المتوفى ٢٧٩هـ:

ليس الكامل من صدر عنه أنواع الكرامات وإنما الكامل الذي يقعد بين الخلق يبيع ويشتري معهم ويتزوج ويختلط بالناس ولا يغفل عن الله لحظة واحدة.

ويقولون (الصوفي كائن بائن) أي بالظاهر والجسم كائن مع الخلق وبالباطن والقلب بائن عنهم.

قال الإمام الرباني:

الخلوة في الجلوة فرع للسفر في الوطن ذلك أنه متى يتيسر السفر في الوطن يسافر في خلوة الوطن أيضاً في نفس الجلوة ولا تتطرق تفرقة الآفاق إلى حجرة الأنفس. وقال: هذا العمل في البداية صعب ولكنه سرعان ما يسهل وقال: هذه الموهبة في طريقتنا للمبتدئين أما في الطرق الأخرى فهي للمنتهين. ذلك أنها تحصل في السير في الأنفس وهي بداية الطريقة النقشبندية والسير الأفاقي يحصل مع السير في الأنفس والسالكون من الطرق الأخرى عليهم أن يكملوا السير الأفاقي ثم يبدأوا بالسير في الأنفس.

وللتوضيح أقول: إن السير الأفاقي هو سير في عالم المادة وفي عالم الخلق.

أما السير في الأنفس فهو عبور المقامات القلبية الباطنية وتسمى اللطائف وهي من عالم الأمر، والأسرار والأنوار التي تكشف خارج القلب هي من عالم الخلق أي أفاقي وما تكشف في القلب وترى فهي للأنفس وعالم الأمر.

وقد كنت أسمع من والدي قدس سره: إن كثيرين من الصالحين يذهبون إلى السوق، ويدخلون في المجتمعات لا يعرفهم الناس، ذلك ليختصوا برحمته سبحانه حيث تنزل رحمته على الناس جميعاً ولكن يصيب الناس غير الغافلين والناس في السوق غافلون، وهذه هي الخلوة في الجماعة (الجلوة).

والتحلي بهذه الصفات والقدرة على تحقيق هذه الأعمال هي من مواهب هؤلاء السالكين الذين ملكوا هذه الدرجات بما قدموا من الذكر والعبودية والصدق والمجاهدة.

٥- الذكر الدائم (يادكرد):

والذكر بالمعنى العام الذي يشمل ذكر اسم الجلالة والتأمل، والصلاة وقراءة القرآن الكريم والدعاء هو أساس السلوك الصوفي، والغالب الشائع من معانيه هو ذكر اسم الجلالة «الله» والتأمل.

والذكر قد يكون جهراً وقد يكون سرًّا والسلوك النقشبندي يعتمد الذكر السري وله صورتان: ذكر «الله» ﷻ، والنفي والإثبات «لا إله إلا الله» وفي الحديث الشريف (أفضل ما قلتُ أنا والنبيون من قبلي، لا إله إلا الله) وهذه الطريقة كانت تسمى الطريقة الخواجية، باسم مرشدها الأكبر المعروف بخواجه عبد الخالق الغجدواني، وهو الذي أسس الذكر السِرّي في الطريقة النقشبندية وروجه وابتكر هذه النصائح التي نحن بصدد بيانها، وقد ظل الذكر الجهري معمولاً به بجانب الذكر الخفي عند السالكين إلى عهد الشيخ محمد بهاء الدين النقشبندي وهو رئيس الطريقة النقشبندية إذ قرر أن الطريقة هي الذكر القلبي لا غير، وأضاف ثلاث نصائح أخرى إلى كلمات الغجدواني وهي: الوقوف القلبي والوقوف العددي والوقوف الزماني فأصبحت (١١) كلمة أو نصيحة.

والمقصود بالذكر هنا هو مداومة الذكر والتذكر، والفائدة في الذكر القلبي أنه لا يحتاج إلى صوت أو حرف أي القول باللسان فيستطيع أن يذكر السالك حتى في خضم العمل ولكن الذكر اللساني لا يتحقق في حال العمل ولا سيما في حال الكلام مع الناس.

وهذا الذكر القلبي يتطلب المداومة حتى يتحقق للذاكر السالك الحضور الدائم مع المذكور وهو الله سبحانه وهدفه هو هذا الحضور وحينذاك يدرك السالك بحسه الباطني وبعين بصيرته أنه حاضر أمام ربه ويرى البركات وهي حالة المشاهدة.

وقد ذكرنا أن منهم من يذكر الله في يوم واحد (٢٥) ألف مرة وأقل

الذكر بالنسبة للمبتدئين (٥) آلاف مرة، وبعد أن يبلغ مرحلة الحضور لا يبقى للعدد مفهوم وكذلك الذكر اللساني ذلك أن المذكور، وهو الله قد أحاط بقلبه والسالك يقطع المقامات.

٦- العودة من الذكر إلى الذات «بازگشت»:

ومعناها رجوع الذاكر من النفي والإثبات «لا إله لا الله» بعد إطلاق نفسه إلى المناجاة بهذه الكلمة الشريفة باللسان أو بالقلب «إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي» وذلك لطرد كل الخيالات من قلبه حتى يفنى من نظره وجود جميع الخلق.

٧- حراسة القلب من الغفلات أو الحضور الدائم. «نگاه داشت»:

ومعناه أن يحفظ المريد قلبه من دخول الخواطر ولو لحظة فإن خطر على قلبه شيء حقًّا أم باطلاً فعليه أن يوقف ذكره حتى ينتهي من طرد الخواطر فيبدأ بالذكر من جديد.

وجاء في كتاب (مناهج السير) للسيد أبي الحسن زيد المجددي الفاروقي مطبوع في دلهي ١٩٥٧: إن هذا التوقف معناه أنه على السالك أن يحافظ على الثمار من البركات التي حصل عليها بمداومة الذكر أو على درجة الحضور والمشاهدة التي حصل عليها باستقامة على الذكر فلا يسمح بتسلل الخطرات إلى قلبه.

وفي كتاب رشحات عين الحياة (المطبوع ١٩١٢ في كانبيرا) ينقل فخر الدين على الكاشفي عن سعد الدين الكاشغري: على السالك أن يتمرن ساعة أو ساعتين أو ثلاث ساعات يوميًّا حسب طاقته على حبس ذهنه وفكره القلبي بحيث لا يخطر في قلبه شيء ولا يبقى في قلبه غير الله سبحانه ويرى بعضهم أن التوقف خاص بذكر النفي والإثبات (لا إله إلا الله)

وهو أن رسخ معنى الذكر في قلبه ويحبسه لكي يدون المعنى وهو أنه «لا إله إلا الله».

فإن لم يستطع فلا يحصل له الحضور القلبي.

وإن هذه المحاولة كما يبدو تهدف إلى دوام الحضور، ذلك أن حضور القلب وحفظ الباطن عن كل الخطرات والخيالات من أهم مقاصد الصوفية يرعاها المتصوفون، وهي درجة من درجات التصوف وللمشايخ أقوال ونصائح عديدة في هذا المجال.

ويجب أن نعلم بأنه ليس المقصود أن لا يمر أي خاطر في القلب ولكن معناه هو أن لا يستقر ويكون كالأوراق التي تمر سريعاً على الماء الجاري ولا تتوقف.

وفي كتاب الحدائق الوردية للسيد عبد المجيد الخاني رواية عن علاء الدين العطار يقول: «إن منع الخطرات والخيالات عن التسلل إلى القلب صعب وشاق ولكن عليكم العمل على طردها وعدم إبقائها». وقال: إني حرست قلبي عشرين سنة من الخطرات والخيالات ومع ذلك تسللت إلى قلبي بعد كل هذه المدة ولكنها لم تستقر[1].

٨- المشاهدة «ياد داشت»:

التوجه الخالص لمشاهدة أنوار الذات، وتسمى أيضاً عين اليقين، والشهود. قال الشيخ محمد أمين الكردي: هي كناية عن حضور القلب مع الله تعالى على الدوام في كل حال من غير تكلف ولا مجاهدة وهذا الحضور في الحقيقة لا يتيسر إلا بعد طي مقامات الجذبة وقطع منازل السلوك.

وقال أيضاً: والحق إنه لا يستقيم إلا بعد الفناء التام والبقاء السابغ

(١) مكتوبات الإمام الرباني الصفحة ٣٥٧.

فالمشاهدة «يادداشت» هي ثمرة عمل السالك وهي عبارة عن حال المريد بعد الوصول إلى غايته وقد تكون ثمرة الذكر أو المراقبة أو مساعدة المرشد، ويصلها السالك بعد قطع كل الحواجز.

قال الشيخ عبيدالله الأحرار:

تعني هذه الكلمة «المشاهدة يادداشت» مشاهدة الحق بالحب الذاتي، وهو حضور لا غياب فيه، يغطي الحب السالك بصورة دائمية وقيل أيضاً (يادكرد) هو الدوام على الذكر و«الرجوع» بمعنى أنه بعد أي توقف من الذكر يعود السالك إلى قلبه ليقول:

(إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي» و«التوقف» (حراسة القلب) هي حراسة هذه الحالة دون أن يذكر شيئاً.

فالمشاهدة هي دوام حراسة هذه الحالة والمحافظة على الحضور.

أما الكلمات الثلاث التي أضافها الشيخ النقشبند إلى القواعد الثماني فهي:

٩- الوقوف الزماني:

وهو المحاسبة القلبية ومعناه أنه ينبغي على السالك بعد مضي كل ساعتين أو ثلاث أن يلتفت إلى حال نفسه كيف كان في هاتين الساعتين أو الثلاث فإن كانت حالة الحضور مع الله تعالى شكر الله تعالى على هذا التوفيق وإن كانت حالة الغفلة استغفر منها وأناب.

وجاء في كتاب الرشحات أن الشيخ بهاء الدين النقشبند قال:

الوقوف الزماني هو أن يكون السالك واعياً لحاله عارفاً بما هو فيه هل يستحق الشكر عليه أو يجب عليه الاعتذار فإن كان حسناً شكر الله عليه وإن كان غير ذلك اعتذر.

قال مولانا يعقوب الجرخي هو أحد المريدين الكبار للشيخ النقشبند:

- إن الشيخ محمد بهاء الدين النقشبند كان ينصح السالك الذي ابتلي بحال القبض، بالاستغفار وينصح السالك الذي أسعده الله بحال البسط بأن يشكر الله سبحانه. فالوقوف الزمني هو مراقبة الحالين القبض والبسط ويفهم أيضاً أن حالة البسط أساسها اليقظة وحالة القبض أساسها الغفلة.

١٠- الوقوف العددي

وهو المحافظة على عدد الوتر في النفي والإثبات ثلاثاً أو خمساً «لا إله إلا الله» ومنهم من يستطيع الذكر (٢١) مرة بنفسٍ واحد، فهذه المراقبة العددية تسمى الوقوف العددي فالسالك واقف متيقظ بضبط نَفَسه على الذكر بالوتر وهذا الذكر بالقلب وبالباطن وكذلك عَدّهُ بالقلب وبالباطن وليس باللسان ولهذا الوقوف ثمرة معنوية كبيرة وقد جربه المشايخ والمريدون وهو من بديهيات الطريقة.

قال الشيخ عبد الرحمن الجامي (٨١٧-٨٩٨هـ) (وهو مؤلف نفحات الأنس) في رسالته النورية (وهي مخطوطة في دار الكتب المصرية):

حكمة الوقوف العددي هي معرفة السالك متى وفي أي عدد من الذكر تحصل له ثمرته؟

فإن بلغ (٢١) مرة ولم يشعر بالثمرة المعنوية فإنه علامة واضحة لنقصان شروطه وإنه يراقب العدد ليعرف فيما إذ حصلت له البركة أم لا... فإن لم تحصل البركة من (٢١) مرة فعليه أن يبحث عن سر نقص عمله.

قال الشيخ النقشبند:

إن هذا الوقوف العددي هدفه ضبط فكر السالك وعقله لكي لا يشتط ويذهب إلى هناك أو هنا.

قال علاء الدين العطار:

ليس المهم من الثمرة كثرة الذكر بل المهم هو التيقظ والمراقبة ويتحقق في الوقوف الزمني والعددي.

١١- الوقوف القلبي:

قال الشيخ عبدالله الدهلوي: إنه عبارة عن تنبه السالك لحال قلبه بمراقبته ومحاولة الاطلاع على أنه ذاكر أم لا وعليه أن يتوجه بقلبه إلى ذاته سبحانه دون أن يتصور القلب، أو الاسم.

فالوقوف القلبي هو حراسة القلب لكي يذكر الله دائماً ولا يغفل عنه ويكون القصد من الذكر، (المذكور) لا الكلمة وينتظر السالك البركة متوجهاً إلى السماء ومع أن الله سبحانه في كل مكان فإن السماء بالاعتبار الإنساني هي مركز العلو والبركة. ويرى الشيخ محمد بهاء الدين النقشبند:

إن الوقوف القلبي أفضل من الوقوف الزماني والوقوف العددي، ذلك أنه مع أهمية الوقوفين الزمني والعددي لاستحصال البركات فإن فقدانهما لا يؤثر في السلوك الصوفي، ولكن الوقوف القلبي ضروري فإن فقده السالك الذاكر وأصبح ذكره مجرد حركة اللسان أو القلب دون الوعي فإنه لا يحصل على شيء.

السلسلة النقشبندية

إن الطريقة النقشبندية تصعد سلسلة بعد سلسلة إلى أن تصل إلى نبينا الأكرم سيدنا محمد ﷺ ولها ثلاث سلاسل:

السلسلة الأولى: السلسلة المتصلة بآل البيت وتسمى السلسلة الذهبية وهي:

١- الرسول الأكرم سيدنا محمد ﷺ

٢- الإمام علي عليه السلام

٣- الإمام الحسين عليه السلام

٤- الإمام زين العابدين عليه السلام

٥- الإمام الباقر عليه السلام

٦- الإمام جعفر الصادق عليه السلام

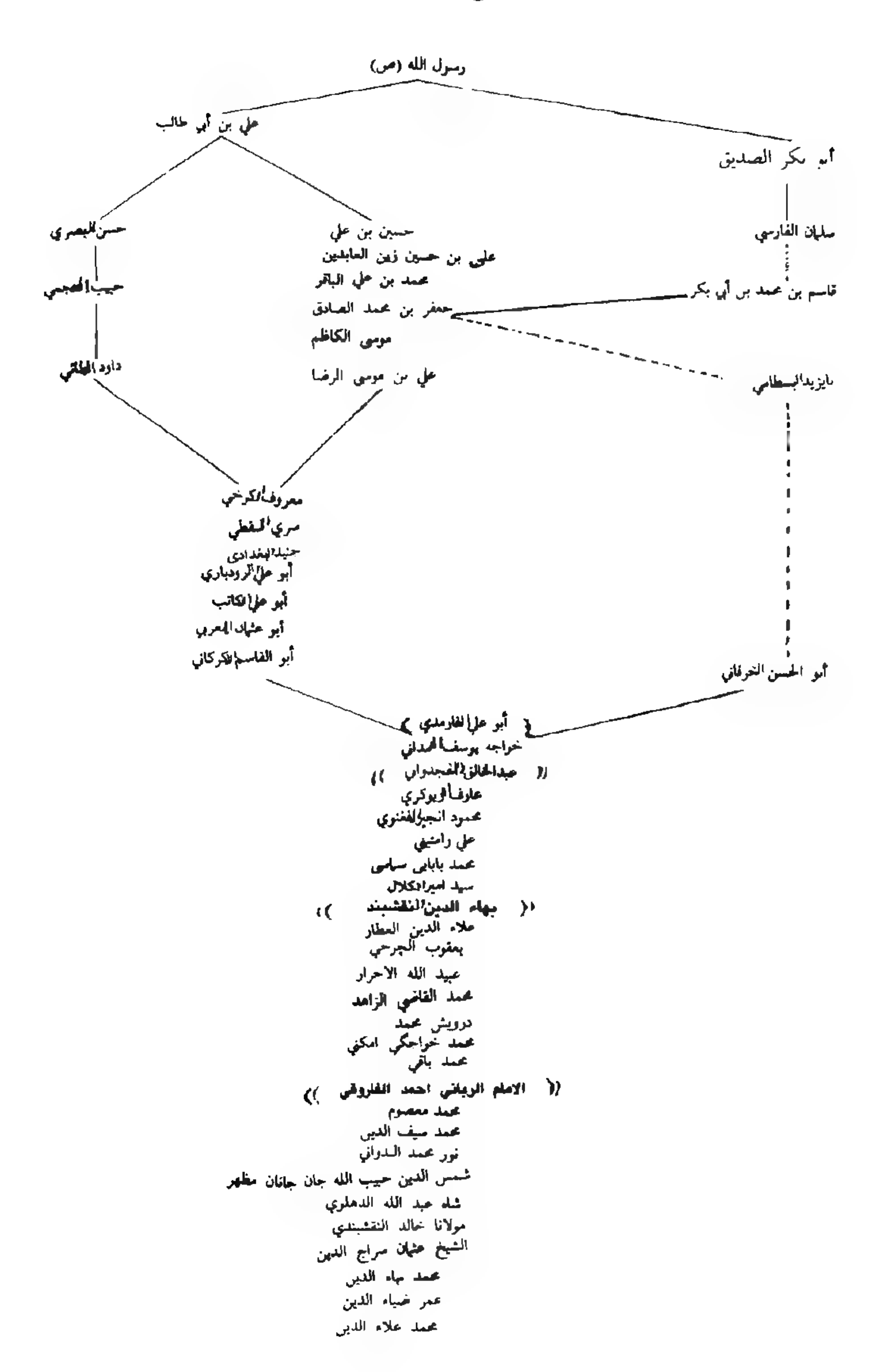
٧- الإمام موسى الكاظم عليه السلام

٨- الإمام الرضا عليه السلام

٩- الشيخ معروف الكرخي

١٠- السري السقطي

السلاسل الثلاث للنقشبندية



١١- الجنيد البغدادي

١٢- الشيخ أبو علي الروذباري

١٣- أبو عثمان المغربي

١٤- أبو القاسم الجرجاني

١٥- الشيخ أبو علي الفارمدي

وتلتقي السلاسل الثلاث عند الشيخ أبي علي الفارمدي، وله الإجازة المطلقة من الجانبين وقد التقت سلسلتان عند الشيخ معروف سابقاً.

السلسلة الثانية:

١- الرسول الأكرم سيدنا محمد ﷺ

٢- الإمام علي عليه السلام

٣- الشيخ حسن البصري

٤- الشيخ داود الطائي

٥- الشيخ معروف الكرخي

فقد أجيز الشيخ معروف من السلسلتين، وكما أجيز الإمام جعفر الصادق من طرف جده الإمام علي ووالد أمه سيدنا أبي بكر الصديق.

وكان الخطاط الأديب السيد طاهر الهاشمي كتب لي بخطه الجميل السلاسل النقشبندية وهي مطبوعة في هذا الكتاب، وسأكتبها بالشكل الذي كان متداولاً في الختم، والختم عبارة عن ذكر في الفجر وذكر في المغرب تؤديه حلقات السالكين النقشبنديين يتذكرون الموت أولاً، ويتخيلون المرشد ثم يرتلون الصلوات ويقولون لا حول ولا قوة إلا بالله. يا باقي أنت الباقي بالقدر المعين ثم يقرؤون القرآن ويقدمون مثل ثوابه

إلى روح مرشدهم ومرشد مرشدهم إلى النبي ﷺ. وفي هذا الوقت تطفأ الشموع، ويغمضون عيونهم لمنع الخطرات من التسلل إلى قلوبهم ومن أجل التركيز ولكل شيء هنا قدر معلوم، وقد يشارك المرشد معهم وقد يتوجه بقلبه إلى قلب المريدين وينالهم من الحظوظ ويسمّى بالتوجه وقد ينيب أحياناً بعض خلفائه للتوجه وهو دليل بلوغ الخليفة إلى مستوى الإرشاد والتوجه ولكنه بداية الطريقة.

وقد يستفاد من المرشد إن كان حقيقيًّا دون حضوره وقد يفيد المرشد مريده بما لا يستطيع المريد الوصول إليه ولو عمل لذلك عشر سنوات. «إني أكدتُ سابقاً بأن هذه المعلومات أساسها بعض الخبرة والمصادر من كتب التصوف وليس لي حظ من العلم فيها ومع ذلك فإنه يشرّفني أن والدي الشيخ علاء الدين لقنني الطريقة. ومع أنني لم أحظ بكراماتها فإني سعيد بأنّي ولدُه الحسّي وكذلك ولده المعنوي وأعتبر نفسي مريداً له تقبل الله مني هذا الاتباع الذي هو اتباع لسنة الرسول الأكرم سيدنا محمد ﷺ» وهذه سلسلة الطريقة النقشبندية التي أخذتُها من والدي ومرشدي:

١- الشيخ محمد علاء الدين النقشبندي

٢- الشيخ عمر ضياء الدين النقشبندي

٣- الشيخ محمد بهاء الدين النقشبندي

٤- الشيخ عثمان سراج الدين النقشبندي

٥- الشيخ مولانا خالد النقشبندي

٦- الشيخ عبدالله الدهلوي

٧- شمس الدين حبيب الله جان جانان

٨- السيد نور محمد البدواني

٩- السيد محمد سيف الدين

١٠- الشيخ محمد معصوم

١١- (الإمام الرباني الشيخ أحمد الفاروقي المجدد)

١٢- الشيخ محمد باقي

١٣- محمد خواجگي امكني

١٤- درويش محمد

١٥- شيخ محمد القاضي الزاهد

١٦- شيخ عبيدالله الأحرار

١٧- شيخ يعقوب الچرخي

١٨- شيخ علاء الدين العطار

١٩- (الشيخ محمد بهاء الدين النقشبند)

٢٠- الشيخ السيد كلال

٢١- الشيخ محمد بابا سماسي

٢٢- الشيخ علي الرامتيني

٢٣- الشيخ محمود انجير فغنوي

٢٤- الشيخ عارف ريوكري

٢٥- (الشيخ عبد الخالق الغجدواني)

٢٦- يوسف الهمداني

٢٧- أبو علي الفارمدي

٢٨- أبو الحسن الخرقاني

٢٩- أبو يزيد البسطامي

٣٠- سيدنا جعفر الصادق

٣١- قاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق

٣٢- سلمان الفارسي

٣٣- سيدنا أبو بكر الصديق

٣٤- سيدنا وحبيبنا وشفيعنا محمد ﷺ.

الطريقة النقشبندية

تبين لنا في دراستنا أن الطريقة النقشيندية اتباع مطلق وكامل للدين الإسلامي الحنيف والسنة المطهرة. ومعلوم أن بعض الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين تميز عن الآخرين بمداومة الذكر والعبادة والجهاد ولكن شرف الصحبة أعلى وأجمل لذلك سموا جميعاً بالأصحاب وكذلك الأمر مع التابعين الذين ظهر الميل إلى العزلة الصوفية في عهدهم، فإن لقب التابعين ظل هو السمة الأظهر للجميع وفي منتصف القرن الثاني الهجري بدأ وصف التابعين يختفي ويحل معه «الزاهد والعابد» وصفاً للعارفين العابدين الذين اختاروا حياة العزلة والانزواء.

وفي أواخر القرن الثاني الهجري أطلق الصوفي لأول مرة على العابدين الذين لم تخدعهم مغريات الدنيا وظلّوا مستقيمين على العبودية المطلقة لله سبحانه كما كان كبار الأصحاب والتابعين.

ولا شك بعد هذا التحقيق في أن لباس الصوف الملائم لهذا الميل وهذه الحياة هو السبب في إطلاق اسم «الصوفي» على هؤلاء العابدين الناسكين في الزاوية المعزولة.

قالت رابعة العدوية شهيدة العشق الصوفي وهي في سكرات

الموت لصاحبة لها: إذا متُّ اغسليني وكفنيني في عباءتي هذه التي من الصوف.

وفي كتاب تذكرة الأولياء لفريد الدين العطار: ٥١٣-٥٨٦.

يقول: كان الحسن البصري لا يبدأ بالوعظ إلى أن تحضر رابعة العدوية وكان يقول: إن بركة وعظي تأتي من هذه العجوز التي تغطي نفسها بالصوف.

وأقصد أن هذه المرأة الصوفية كانت تلبس الصوف مع أن البصرة حارة!! ولي مقصدان آخران من هذه المقدمة أولها، إن اسم الطريقة لم يكن موجوداً ومعروفاً، والمتداول من الألقاب المميزة: الأصحاب والتابعون كما أن اسم المذاهب لم يكن موجوداً أو معروفاً ثم تحدد المذهب والطريقة باسم قادته وكبار مؤسسيها، فلولا أبو حنيفة والشافعي لما وجد المذهب الحنفي والشافعي ولولا الشيخ عبد القادر الگيلاني وبهاء الدين النقشبندي لما وجدت الطريقة القادرية والنقشبندية.

ويقول أصحاب الطريقة النقشبندية إن طريقتهم كانت تسمى «الصديقية» نسبة إلى أبي بكر الصديق ﷺ ثم سميت «الطيفورية» نسبة إلى أبي يزيد البسطامي واسمه طيفور.

ولا يعني ذلك أن أبا بكر وعليًّا سَمّى مذهباً خاصًّا والمقصود أن السلسلة من مرشد إلى مرشد تصل إلى سيدنا أبي بكر أو علي عليه السلام أو معناه أننا نطبق ما تحلى به سيدنا أبو بكر الصديق بعد وفاة الرسول (ﷺ) وقد قال النبي ﷺ ما صَبَّ الله في صدري شيئاً إلا وصببته في صدر أبي بكر وهذا ليس بمادي بل حب معنوي يعني المعرفة والحكمة، وهي أسرار تُسبّب السعادة وتسمى هذه الحالة في علم التصوف، بـ(الضمنية) فالمقام أساساً لشخص آخر ولكنه يستطيع أن يأخذ شخصاً آخر معه فيشاركه في هذه النعمة.

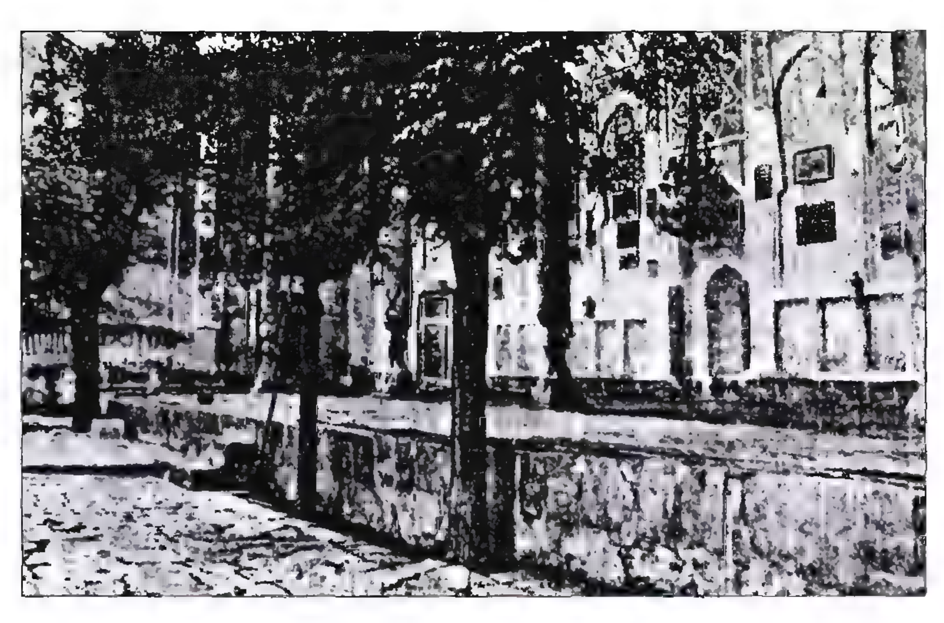
وسُمّيت بعد ذلك بالنقشبندية نسبة إلى بهاء الدين النقشبند.

وقد سميت هذه الطريقة أيضاً بعد نقشبند باسم أشهر الرجال فيها، مثل عبيد الله الأحرار والإمام الرباني المجدد ومولانا خالد النقشبندي، فقيل، الاحرارية، المجددية، الخالدية، ويلاحظ أن أحداً منهم لم يستطع إخفاء اسم «النقشبند» حتى الإمام الرباني، ولا تزال النقشبندية هي العَلم: ولم يدعُ أحد منهم أنهم وصلوا مقاماً أعلى من مقامه، كما أن أحداً لم يدعُ الوصول إلى مقام الشيخ عبد القادر الگيلاني إلى الآن.

ونتناول هنا باختصار حياة هذا الرجل العظيم وننهي موضوع الطريقة النقشبندية.



مقبرة الشيخ محمد بهاء الدين النقشبند
في قرية قصر عارفان «قرب مدينة بخاري»



المقبرة والمسجد وإيوان المسجد

حياة بهاء الدين النقشبند

هو الشيخ بهاء الدين محمد بن محمد بن محمد المشهور بالنقشبند، والملقب (بمحمد البُخاري) وُلِدَ قدس سره في شهر محرم الحرام سنة سبع عشرة وسبعمائة هجري في قرية قصر هندوان التي سميت فيما بعد (بقصر عارفان) من قرى بخارى على فرسخ منها، وفي بعض المصادر ذكر أنه سيد حسيني وجده الأكبر محمد جلال الدين، وهو مريد خواجه محمد بابا السماسي وهو شيخ طريقة خواجگان، وقد أشرنا إلى أن هذه الطريقة كانت تسمى طريقة خواجگان، توفي الخواجه محمد بابا السماسي في (٧٥٥هـ).

وقد حل السماسي مع عدد من مريديه ضيفاً في قرية قصر هندوان وهي قرية محمد بهاء الدين ولم يمض ثلاثة أيام في عمر محمد بهاء الدين الطفل فاحتضنه جده وقدمه للسماسي الشيخ، ففرح به وقال إني قبلت هذا الطفل ولداً لي، وَبَشَّر مريديه بأن هذا المولود سيكون إماماً لزمانه، كان جده يريد تربيته تربية صوفية فزوجه وعمره ١٨ سنة وأخذه في نفس السنة إلى سمّاس لخدمة العارف الكبير الشيخ محمد السماسي وتلقى الطريقة منه وبعد وفاة الشيخ السماسي في ٧٥٥هـ أخذه جده وذهبا إلى سمرقند للبحث عن رجل صالح قادر على تربيته ثم ذهبا إلى السيد أمير كلال خليفة الشيخ السماسي فأخذ الطريقة منه وبدأ بالسلوك وقال أمير كولال له: إن

حضرة الشيخ محمد السماسي أوصاه به وقال له لا تأل جهداً بتربية ولدي محمد بهاء الدين ولا بالشفقة عليه. فبدأ بهاء الدين بالذكر والفكر والسلوك الصوفي، وتربية القلب وتزكية النفس. وكان استعداده فوق العادة فكان يَقطع مسافة شهر بيوم واحد ومسافة عام بأيام، ففي يوم من الأيام جمع السيد أمير كلال مريديه وقال لمحمد بهاء الدين إمامهم:

إني نفذت وصية مرشدي الخواجه السماسي بتربيتك ولم آل جهداً في تربيتك ثم مد يده إلى صدره وقال: إني أرضعتك جميع ما في صدري فيبس ثديي فتمكنت من إخراج قلبك من قشرة البشرية وتخليصك من النفس والشيطان وأصبحت رجلاً عظيماً وأنبتك محل نفسي ولكن همتك تتطلب العالي وهذا منتهى مقدرتي على تربيتك وأجيزك لتبحث عن رجل أصلح مني لَعَلَّه يعرج بك إلى مقام أعلى.

وقد ذكرت سابقاً أن بعضاً من المريدين يتقدمون على مشايخهم كالشيخ النقشبند مع مرشده وهو السيد أمير كولال.

وبعد أن ترك السيد أمير كولال وقضى سبع سنوات مع مولانا عارف الديك كراني وهو أحد خلفاء كولال وصاحبه وقضى ١٢ سنة مع شيخ تركي اسمه (خليل آتا) فكان عاشقاً للعبودية والسلوك.

وكان بهاء الدين بالإضافة إلى السلوك يتنقل بين علماء الشرع ولا سيما السنة النبوية لدراستها.

وقد حج مرتين وفي إحدى سفراته ذهب إلى (هرات) فاحترمه الملك معز الدين وكانت له أسفار عديدة فسافر إلى سمرقند وريورتون وسمنان ومرو، وطوس ومشهد وتاياباد وتزل رباط وكيش. توفي محمد بهاد الدين النقشبند ليلة الإثنين ثالث شهر ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وسبعمائة وسِنُّه أربع وسبعون سنة ودفن في بستانه في الموضع الذي أمر به وبنى عليه أتباعه قبة عظمية لا تزال تُزار.

وقد ربي عشرات الألوف من المريدين وقد وصل بعضهم درجة الإجازة المطلقة وقد اجتازوا درجات البقاء بعد الفناء.

وبفيض بركاته تمكن خلفاؤه ونوابه إبلاغ مريديهم إلى غاياتهم. وأحدهم هو خواجه محمد بارسا الذي ولد في بخارى ٧٤٩ وتوفي في بلخ ٨٦٥هـ فقد ترك عشرين مؤلفاً منها كتاب «القدسية» وهو كتاب يضم أقوال الشيخ النقشبند. وخلفه ابنه أبو النصر پارسا وهو من كبار مشايخ النقشبندية. ومن عظماء الطريقة النقشبندية الذين تصل إليهم سلسلتنا الشيخ محمد بن محمد المشهور بعلاء الدين العطار فقد رَبَّى مئات من المريدين وأبلغهم إلى قمم الغايات. وفي كتاب الحدائق الوردية عشرات من أسماء مريديه وأخبار عشرات من خلفائه، وجاء فيها: وله خلفاء كنجوم السماء.

وفي كتاب «القدسية» المطبوع والمحقق من قبل السيد أحمد طاهر العراقي إشارة إلى المراجع المخطوطة للنقشبندية وهو مزين بصورة ضريح النقشبند الذي يقول المستشرق الدانيماركي الوفسين وكان في بخارى في أعوام ١٨٩٦ - ١٨٩٩: إن ضريح بهاء الدين هو في ركن من بستان مليء بأشجار كثيرة من التوت والمشمش وجانباه جامع ويُزار.

وقال أرمينوس وهو أيضاً في القرن التاسع عشر، ومستشرق مجري: يتوافد على ضريحه على الدوام خلق كثير، حتى من الصين ومن عادة أهل بخارى أنهم يزورونه يوم الأربعاء ومنهم من يظل يصلي الليل كله في جامعه وإن جانب المرقد مسجد وخانقاه.

جاء في كتاب الحدائق الوردية و(الأنوار القدسية) وهي نفس الحدائق:

عندما توفي بهاء الدين دُفِنَ في بستان له وبنيت قبة وجامع في جانبه فوراً وقد وقف الملوك والعظماء كثيراً من الأملاك عليها.

قال كاتب ومحقق القدسية:

لبهاء الدين النقشبند عدا الرسالة القدسية، رسائل أُخرى توجد في مكتبات العالم كالأوراد البهية، وأوراد الصغير، والأوراد البهائية وهي مشروحة وكذلك رسالة الواردات وتوجد نسخة منها في أيا صوفيا وكذلك كتاب «دليل العاشقين» ورسالة الحياة وهي نصائح.

كلمة النقشبند:

تساءل كثيرون عن معنى هذه الكلمة وهي نقشبند وليست «نقشبندي» وهي كلمة فارسية معناها «الناقش» كالمصور ويستعمل للحفر في الحجر والشجر ويقال «النقاش» لمن صور باليد، وكلمة النقش عربية ويقال «العلم في الصغر كالنقش في الحجر».

وقيل أن أجداده كانوا نقاشين وهو غير صحيح فلو كان ذلك صحيحاً كان اسم بهاء الدين نقشبنديًّا وليس بنقشبند. وإنه شخصيًّا طول حياته لم يسلك عملاً غير السلوك الصوفي. فالمعنى متوجه إلى المعنويات أي كان بهاء الدين نقاش القلوب وقد رسخ نقش «الله» في قلبه وقلوب مريديه ونهجه كما هو واضح، عمل للمذكور ليكون في قلبه.

يقول الشاعر النقشبندي:

يا رفيقا في طريق النقشبندِ
انقش ذكر الحق في قلبك بجدِّ.

وقال بعضهم: النقشبند قرية في (بخارا) وبهاء الدين من سكانها وهو غير صحيح إذ لا توجد قرية بهذا الاسم وإن حياته معروفة وواضحة ولو كانت هنالك قرية بهذا الاسم لقيل النّقشبندي لا النقشبند.

والحقيقة هي أنه روّج الذكر الخفي من أجل دوام المذكور في القلب ونقشه في الباطن.

ومن أسمائه: محمد بهاء الدين الأويسي البخاري

وهو يوضح أنه من «بخارى» ولكن ما معنى الأويسي؟

يقول مؤلف كتاب «تاريخ التصوف في كردستان» نقلاً عن كتاب «تاريخ السليمانية» لأمين زكي، سُمّي أويسيا لأن خُلقه في التصوف هو خلق الأويس القرني لذلك سمى أويسيا.

والحقيقة أن المشايخ الذين توصلوا عن طريق المشايخ المتوفين أو المشايخ الذين لم يلتقوا بهم جسديًّا وتربوا على أيديهم معنويًّا وليس جسديًّا يسمون بـ«الأويسي» فكما أن سيدنا أويس القرني حُرِم من نعمة اللقاء بالرسول ﷺ وحظي بروحانيته وبركاته.

وهكذا يمكن أن يستفيد المشايخ من مشايخ توفوا أو لم يلتقوا بهم وهم أحياء.

وحيث إن النقشبند قد تلقى التربية الروحية كما قال في وصف رحلته الروحية، من روحانية الخواجه عبد الخالق الغجدواني، وكان أمير كولال قد اعترف بأنه قد أوصله إلى مقام معين قدر طاقته، وقد رفعته روحانية الشيخ الغجدواني المتوفي قبلَ بهاء الدين بسنين طويلة إلى هذا المقام الكبير، فهو على هذا الأساس (أويسي المشرب) لذلك يقال له «بهاء الدين الأويسي». ولذلك أيضاً يقال إن سلسلة بهاء الدين النقشبند تصل إلى النبي (ﷺ) بعد عشرة من المشايخ ويقع أمير كولال، والسماسي، وعلى رامتيني ومحمود أنجير فغنوي وعارف ريوگري بين بهاء الدين و«الغجدواني» فما دامت روحانية الغجدواني هي التي ربَّت بهاء الدين النقشبند فيُعتبر مرشداً له.

وهذا المقام الأويسي لم يكن خاصًّا به بل كذلك الشيخ حسن الخرقاني ومن المشهور أن روحانية البسطامي ربت الشيخ حسن المتوفى في ٤٢٥هـ وتوفي بايزيد في ٢٦١هـ كما أنه من المشهور أن البسطامي من تربية الإمام جعفر الصادق المتوفي في (١٤٨هـ).

ويقول البعض: يوجد شخصان باسم بايزيد أحدهما عاش في زمن الإمام جعفر وأقصد بذلك توضيح معنى «الأويس» وإلا فإن هؤلاء المشايخ الكبار قصدوا الله سبحانه وهو حاضر في كل مكان وهادي عبده «واتقوا الله ويعلمكم الله».

ومن كان له مرشد كبير مثل أمير كولال وقال إني أعطيتك كلّ ما أملك وأخرجتك من القالب البشري، وهذه إشارة إلى مقام البقاء بعد الفناء، فإنه يستطيع بعد ذلك شق طريقه والله سبحانه قادر على أن يأمر روحانية رجل صالح لتربية الآخرين.

ومن كبار المشايخ الذين أوصلهم النقشبند، الخواجه يعقوب الجرخي المتوفى في سنة ٨٥١ وهو واحد من فرسان طريق الهداية والإرشاد وأوصل مئات من السالكين إلى غاياتهم.

وإنّ أقوال بهاء الدين النقشبند في الإشارات وأسرار الطريقة وفي الإرشاد تكفي لتوضيح هذه الميادين الصوفية.

ومن أراد الاطلاع على الطريقة النقشبندية وكبار مشايخها فعليه مطالعة هذه الكتب:

١- القدسية، وهي كلمات بهاء الدين النقشبند، نشرها السيد أحمد طاهر العراقي باللغة الفارسية وفيها إشارة إلى مراجع أخرى كثيرة.

٢- رسائل أخرى للشيخ بهاء الدين النقشبند.

٣- مكتوبات الإمام الرباني وهو كتاب عظيم.

٣- نفحات الأنس للملاجامي.

٥- رشحات عين الحياة فخر الدين علي كاشفي.

٦- أنيس الطالبين وعدة السالكين.

٧- الحديقة الندية في آداب الطريقة النقشبندية محمد بن سليمان البغدادي/ مطبوعة في مصر.

٨- حبيب السّير.

٩- مناهج السير لأبي الحسن المجددي طبع ١٩٥٧ في دلهي.

١٠- المواهب السرمدية في مناقب النقشبندية.

١١- تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب. للشيخ محمد أمين الكردي.

١٢- الحدائق الوردية في إجلاء النقشبندية. عبد المجيد الخاني.

١٣- الأنوار القدسية من مناقب السادة النقشبندية محمد الرّخاوي وهو نفس كتاب الحدائق.

١٤- أسرار التوحيد في مقامات الشيخ أبي سعيد.

١٥- رياض المشتاقين لملا حامد البيساراني خليفة الشيخ عثمان سراج الدين النقشبندي مخطوطة.

١٦- قال مقدم كتاب القدسية:

من المؤسف أن ما كُتب في النقشبندية محفوظ في أوروبا وأميركا. وقد بَحثَ مستشرقٌ شاب وهو (ماريژان موله) في النقشبندية كثيراً وقد نُشرت رسالة من تحقيقاته سنة (١٩٦٣) في مجلة المطالعات الإسلامية في باريس ذكرت فيها المسائل الخاصة بها.

وقد أشرت إلى هذه الكتب لعل الكتاب المحدثين تأخذهم النخوة ويستفيدون من هذه المراجع ويوضحون كثيراً منها.

والقدسية أهم مصدر وكذلك المراجع المثبتة في الكتاب.

المصادر

١ - القرآن الكريم

٢ - الإسلام والتصوف «نيكلسون».

٣ - ألفاظ الصوفية د. حسن محمد الشرقاوي.

٤ - الأنوار القدسية في مناقب السادات النقشبندية (محمد محمد ماضي الرخاوي).

٥ - الأنوار القدسية في معرفة القواعد الصوفية (الامام عبد الوهاب الشعراني).

٦ - إيضاح الطريق الشاه عبدالله الدهلوي «مخطوطة».

٧ - إيقاظ الهمم وشرح الحكم - أحمد بن محمد بن عجيبة.

٨ - بين التصوف والحياة... عبد الباري الندوي.

٩ - تاريخ الفلسفة في الإسلام. ج - دي بور.

١٠ - التصوف الإسلامي، د. زكي مبارك.

١١ - التصوف الإسلامي... د. عبد الرحمن بدوي.

١٢ - التصوف وفريد الدين العطار... د. عبد الوهاب عزام.

١٣ - التصوف عند المستشرقين... د. محمد الشرباصي.

١٤ - التصوف أبو عبد الرحمن السلمي.
١٥ - تذكرة الأولياء... فريد الدين العطار.
١٦ - التعرف لمذهب أهل التصوف «الكلاباذي».
١٧ - تفسير (روح البيان) للبرسوي، وتفاسير أخرى.
١٨ - تنوير القلوب، محمد أمين الكردي.
١٩ - حقائق عن التصوف... عبد القادر عيسى.
٢٠ - دراسات في الفلسفة الدينية والصوفية... د. عبد القادر محمود.
٢١ - دائرة المعارف الإسلامية ترجمة إبراهيم زكي. وأصدقائه.
٢٢ - الرسالة القشيرية. عبد الكريم هوازن القشيري.
٢٣ - رسالة طب القلوب... الشيخ علاء الدين الشيخ عمر النقشبندي.
٢٤ - رسائل ابن العربي... الشيخ محي الدين بن العربي.
٢٥ - رياض المشتاقين... ملا حامد البيساراني «مخطوطة».
٢٦ - شرح الحكم العطائية... محمد بن إبراهيم النفري.
٢٧ - شطحات الصوفية... عبد الرحمن بدوي.
٢٨ - صحيح مسلم... (حديث نبوي شريف).
٢٩ - صحيح البخاري... «حديث نبوي شريف).
٣٠ - الطبقات الكبرى للإمام الشعراني.
٣١ - عوارف المعارف. الشيخ عمر السهروردي.
٣٢ - الغنية - الشيخ عبد القادر الكيلاني.
٣٣ - الفتوحات المكية... الشيخ محيي الدين بن العربي.

٣٤ - فصوص الحكم... الشيخ محي الدين بن العربي.
٣٥ - الفلسفة الأخلاقية الأفلوطينية... د. نادي التكريتي.
٣٦ - الفلسفة الصوفية في الإسلام د. عبد القادر محمود.
٣٧ - الفلسفة العلمية وأسلوب التحقيق فيليسين شاليه «فارسية».
٣٨ - الفتح الرباني... الشيخ عبد القادر الكيلاني.
٣٩ - الفتح الرباني... الشيخ عبد الغني النابلسي.
٤٠ - الفهرست لابن النديم...
٤١ - قوت القلوب. أبو طالب المكي.
٤٢ - القدسية... كلمات بهاء الدين النقشبند.
٤٣ - قوانين حكم الإشراق. جمال الدين محمد أبو المواهب.
٤٤ - اللمع، أبو نصر السراج.
٤٥ - مقدمة ابن خلدون.
٤٦ - المدخل إلى التصوف الإسلامي. محمد أبو الفيض المنوفي.
٤٧ - مدارج السالكين... ابن قيم الجوزية.
٤٨ - المرشد إلى آيات القرآن الكريم، محمد فارس بركات.
٤٩ - مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد... الشيخ نجم الدين الرازي.
٥٠ - المعجم الصوفي، الدكتورة سعاد الحكيم.
٥١ - معجم مصطلحات الصوفية... د. عبد المنعم الحفني.
٥٢ - مكتوبات الامام الرباني... الشيخ أحمد الفاروقي.
٥٣ - المنقذ من الضلال... الإمام محمد الغزالي.
٥٤ - منازل السائرين، شيخ الإسلام الهروي.

٥٥ - المواهب السرمدية في مناقب السادات النقشبندية... محمد أمين الكردي.

٥٦ - نشأة الفلسفة الصوفية وتطورها... د. عرفان عبد الحميد فتاح.

٥٧ - نشأة التصوف الإسلامي، د. إبراهيم بسيوني.

٥٨ - نعت البدايات وتوصيف النهايات، محمد فاضل بن مامين.

٥٩ - نور الناظرين. ملا محمد باكي «مخطوطة».

٦٠ - الوصايا... الشيخ محيي الدين بن العربي.

٦١ - مذكراتي الشخصية..

وما يقارب من خمسين كتاباً ومعاجم وقواميس مختلفة.

فهرس المحتويات